



فنون البلاغة واستراتيجيات الخطاب الإقناعي

في كتاب "عجيب الخطب" لابن الجوزي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم

إشراف الأستاذ:
أ.د/ أحمد حيدوش

إعداد الطالبة:
مهديّة صياد

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	مؤسسة الانتماء	الصفة
مصطفى ولد يوسف	أستاذ التعليم العالي	جامعة أكلي محمد والحاج . البويرة	رئيساً
أحمد حيدوش	أستاذ التعليم العالي	جامعة أكلي محمد والحاج . البويرة	مشرفاً ومقرراً
قادة يعقوب	أستاذ محاضر . أ .	جامعة أكلي محمد والحاج . البويرة	ممتحناً
صليحة لطرش	أستاذ محاضر . أ .	جامعة أكلي محمد والحاج . البويرة	ممتحناً
بوجمعة شتوان	أستاذ التعليم العالي	جامعة مولود معمري . تيزي وزو	ممتحناً
محمد الهادي بوطارن	أستاذ التعليم العالي	المدرسة العليا للأساتذة . بوزريعة	ممتحناً

تاريخ المناقشة: 19 أكتوبر 2022

إهداء :

إلى روح ابن الجوزي إجلالاً وإكباراً هناك، وإلى المعلم أحمد حيدوش هنا

إلى زوجي، عوني وسندي، وإلى ابني حفظهما الله آدم ونوح

إلى عائتي وعائلة زوجي الكريمتين

وإليكم جميعاً أهدي هذا العمل.

مقدمة:

رشف موضوع بحث " فنون البلاغة واستراتيجيات الخطاب الإقناعي " رشفة من نبعين من المعرفة، تمثل النبع الأول في علم البلاغة، والذي يهتم بتحسين الكلام وتعميقه مع تحقيق الفهم والتواصل، كما ورشف من علم تحليل الخطاب، والذي يختص بمجالات البرهنة وآليات وتقنيات الحجاج التي يودعها المبدع نصّه، منتقلاً به من كونه نصاً يحقق الإمتاع إلى كونه خطاباً يسعى لتحقيق غايات إقناعية، فأسلوب الخطابة مستمد من طبيعة هذا الفن الذي يجمع بين الإقناع والاستمالة، فهو أسلوب متميز فيه الأدلة التي تكفل الإقناع بالإثارة التي تحقق الاستمالة، فلا بد أن يكون منوعاً جامعاً تقرير الحقائق وإثارة العواطف يتجه إلى الفكر والوجدان لينفذ منها إلى العزيمة.

وقد كان الدافع لاختيار هذا الموضوع، قلة البحوث والدراسات حول الخطاب الإقناعي الذي يختص بالمدونات النثرية الدينية القديمة، والتي احتواها التراث العربي القديم، وأنا عن نفسي فإن ميلي للتراث النثري يضاهي بكثير التراث الشعري، فسلاسة ألفاظه، وبساطة أساليبه، ووضوح معانيه، تكسبه في نفسي الأفضلية على منافسه الشعري، ومما زادني رغبة فيه أن بحثي هذا قد اعتبر امتداداً وتكملة لبحثي الخاص بمذكرة الماجستير، والذي تناولت فيه مكونات السرد والحجاج في إحدى كتب ابن الجوزي الدينية أيضاً، والذي وسم بملقط الحكايات، بحيث انتقلنا في بحثنا هذا من الحكاية التي مثلت وسيلة تحمل أبعاد عدة (سردية ووعظية وكذا حجاجية)، إلى الخطب التي تمثل خطاباً ورسالة إقناعية بالدرجة الأولى، وكذا على ما تحويه من أدوات بلاغية يتفنن الخطيب في عرضها على متلقيه ومستمعيه، فتزيد في الخطبة تأثيراً واستمالة.

بحيث يعالج البحث واحدة من فنون النثر العربي والمتمثل في الخطبة الدينية للواعظ ابن الجوزي، وذلك في كونها تمتاز بخصائص ذات قدر من الجمال من حيث فصاحة الألفاظ وبلاغة التراكيب، والتي سنستعين بعلوم البلاغة في استكشاف حقيقتها وتقصي أحوالها، كما أنها تمثل رسالة تواصلية بعث بها المرسل ابن الجوزي إلى

مرسل إليه وهو زميله الذي أشار إليه في مقدمة الكتاب، والذي حفّ بهما سياق معين أثر في خاصية الخطب وفي درجة تأثيرها على المتلقين.

من هنا تظهر ملامح المنهج التداولي والذي اخترته منهجاً للبحث، إذ يعتبر نمطاً جديداً من الدراسات اللغوية في تعاملها مع النصوص الأدبية، ويهدف هذا المنهج إلى البحث عن الآليات التي تساهم في تحويل اللغة إلى خطاب، كما يحاول الكشف عن طبيعة العلاقة التي تربط اللغة بالسياق الذي يمثل مجموعة العوامل اللغوية وغير اللغوية التي تتدخل أثناء استعمال اللغة، وتسهم في تحديد أغراض ومقاصد المتكلم، فالبعد التداولي في دراسة اللغة يتجاوز مجالي الشكل والمعنى إلى مجالات أخرى هي الحجاج والاستدلال في اللغة وغيرها.

إذن، فقد شكّلت مجموعة خطب ابن الجوزي الثلاثين، بناءً تبليغياً مؤسساً وفق مقدمات خطابية تواصلية تخاطب وتجاوز الآخر، فكانت ظاهرة التواصل فيها مفتوحة على علاقة الإنسان بخالقه، متخذة الإقناع سبيلاً يسلكها في دعوة الناس نحو عقيدة التوحيد من خلال جملها وعباراتها التي يخاطب بها العقل والوجدان البشريين، معتمداً في ذلك استراتيجيات مختلفة باختلاف مخاطبيه أو متلقيه، إذ للتأثير على الخصم أكثر يقتضي على المدّعي أن يلجأ إلى تقنيات وآليات حجاجية لإثبات ادّعائه، وهي مجموعة من الطرائق والاستراتيجيات اللسانية والمنطقية والعقلانية وحتى البلاغية، والتي تمكّن ابن الجوزي الذي هو في مقام المدّعي، من تحقيق هدفه في التأثير على الطرف الآخر، وهي عوامل تتحقق بها دلالات القول من داخله، وفي علاقته بالظروف المقامية والمعرفية والنفسية.

يظهر التوجه العام للبحث، في كونه يبحث عن الفنون البلاغية التي حوتها خطب الكتاب، من صور بيانية ومحسنات بديعية، وكذا البحث عن الاستراتيجيات الخطابية التي أودعها ابن الجوزي في الخطب نفسها، وذلك بالتعريج على عديد الآليات البلاغية التي أضفت جمالية على ألفاظ وتراكيب ومعاني الخطب، وكذا بالتطرق والتفصيل في مختلف التقنيات والخطط الحجاجية التي اعتمدها ابن الجوزي لأغراض

إقناعية تفيد في تقوية المعاني ومضاعفة الأثر الذي تحدثه في النفس، وقد اعتمدنا في هذا البحث على خطة:

فمهدت له بمدخل، وقد حددت فيه بعض مفاهيم البحث، من بينهم مفهوم البلاغة وكذا مفهوم الفنون البلاغية، بالإضافة إلى مفهوم الاستراتيجية ومفهوم الخطاب وكذا الخطاب الإقناعي بوجه الخصوص، فبينت مفهوم الإقناع ووضحت آلياته المختلفة، ثم انتقلت إلى الخطبة، فبينت مفهومها وأركانها وعناصرها اللغوية وخصائصها، كما عرّجت على عناصر التأثير والاستمالة فيها وعلى أسلوبها، إضافة إلى مفهوم الجمالية والوظيفية في الخطاب وكذا مفهوم السياق الذي يتحكم في بنية الخطبة ويؤثر فيها بعناصره الفاعلة.

وقد كان الفصل الأول من البحث يتحدث عن " أجزاء القول في خطب ابن الجوزي (افتتاح، عرض، واختتام) "، فخصت في افتتاح الكتاب وكذا افتتاحات الخطب الثلاثين، كما فصلت في الافتتاح نفسه كونه قد حوى مقدمة وعرض وخاتمة، كما قمت بالبحث في صيغه الافتتاحية وكذا طبيعته ومعانيه، ثم انتقلت إلى ثاني أجزاء القول وهو العرض، فقمت في الوقت نفسه بالتفصيل في موضوعات الخطب الثلاثين كونها قد تركزت في هذا الجزء من القول، فحددت الموضوع الرئيسي الذي دارت حوله مجموع الخطب من خلال قراءة الخطب واستخراج العامل المشترك بينها، كما قمت بتحديد الموضوعات الثانوية التي تصب كلها في الموضوع الرئيسي، فقد أودع ابن الجوزي خطبه مجموعة معانٍ ومضامين خدمت الموضوع العام من حيث أن كل موضوع قد تضمنه واحتواه، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى ثالث أجزاء القول وهو الاختتام، ففصلت في بدايته ووسطه ونهايته.

بينما يتحدث الفصل الثاني من البحث عن " فنون البلاغة في كتاب عجيب الخطب لابن الجوزي"، والتي تنقسم إلى صور بيانية كان أساسها المعنى ومحسنات بديعية كان أساسها اللفظ، إذ فصلت في الصور البيانية من خلال استخراج مجموعة عناصر فنية كالتشبيه والاستعارة والكناية، ثم انتقلت إلى المحسنات البديعية ففصلت

في مجموع العناصر الفنية التي اندرجت في إطارها، كالتفصيل في الطباق والمقابلة والسجع والجناس، وكذا إظهار بلاغة كل من العناصر المذكورة، وفي الأخير أوردت خاتمة تحدثت عن أهم النتائج التي توصل إليها الفصل.

وجاء الفصل الثالث الموسوم بـ " استراتيجيات الخطاب الإقناعي في كتاب عجيب الخطب لابن الجوزي " ليعنى بالاستراتيجيات الإقناعية التي وظفها ابن الجوزي في مجموع الخطب الثلاثين، والتي سعى من خلالها إلى إقناع المتلقين بصدق القضايا المعروضة وإثباتها وإبعاد الشك عنها، وقد احتوى هذا الفصل أربعة عناصر رئيسية، وهي تضم بداخلها عناصر جزئية بنت لها وأسست دعامتها.

وأولى العناصر التي ابتدأنا بها هي استراتيجيات الإقناع في الخطب، إذ فصلت في هذا الجزء في مجموع الاستراتيجيات التي وظفها ابن الجوزي في الخطب بغرض إقناع المتلقي والتأثير في أفكاره ومعتقداته وسلوكه، وهي تنقسم إلى استراتيجيتين بارزتين، هما استراتيجية تغييب الحروف والتي ظهرت على مستوى ألفاظ الخطب كونها تحوي الحروف وتتكون منها، أما الاستراتيجية الثانية فهي استراتيجية الحجاج، وتدرج تحتها عديد الاستراتيجيات الثانوية التي سنفصل فيها منها: تلك التي تظهر على مستوى موضوعات الخطب، كما تتوفر من الاستراتيجيات تلك التي تظهر على شكل استعارات بلاغية وكذا آيات قرآنية، كما تتوفر تلك التي تظهر على شكل تقنيات كالتصوير والتمثيل والتكرير، كما تتوفر من تظهر على شكل عبارات مخصوصة ظهرت في أجزاء معينة من الخطب يعيد ناظم الخطب ذكرها في كل حين.

وثاني العناصر الرئيسية التي قمت بالتطرق إليها والتفصيل فيها، هي العلاقات الحجاجية، وهي تمثل شكلا من العلاقة التي تظهر بين السبب أو الحجة وبين النتيجة أو المآل، وتنقسم إلى نوعين، تمثل النوع الأول في العلاقة السببية، وهي تقوم على جعل موقف معين سبباً لموقف آخر، بينما تمثل النوع الثاني في علاقة الاقتضاء، والتي تقوم بدورها على جعل الحجة تقتضي النتيجة اقتضاءً، وفي العلاقتين حضور كبير لملاحح الحجاج والإقناع.

وثالث العناصر الرئيسية السلاالم الحجاجية، والتي لاحظت حضور مادتها في الخطب، وهي تشبه في مضمونها العنصر السابق والمتمثل في العلاقات الحجاجية في كونها تقوم على عنصرين أساسيين في الكلام هما عنصر السبب والنتيجة، فقط يكمن الاختلاف بينهما في كون الحجة في السلاالم الحجاجية تتعدد بينما تحتفظ النتيجة بثباتها، وقد لاحظنا عدداً وثيراً من نماذج هذه السلاالم في الخطب، ما يثبت حجاجية الخطب وتوفرها على قدر لا بأس به من أسباب الإقناع لدى المتلقي بصدق القضايا المطروحة، ويزيد درجة الإذعان لديه.

وأخر العناصر التي قمت بالتطرق إليها في هذا الفصل هي كيفية تأثير عناصر السياق في توجيه استراتيجيات الخطاب الإقناعي، بحيث أثر المتلقي بطريقة ما في تكوين الخطب عند ابن الجوزي وفي توجيه استراتيجياته، كما ساهمت بعض العناصر المشتركة بين ابن الجوزي ومتلقي الخطاب كالمعرفة المشتركة والعلاقة التي تربطهما، في بناء الخطب الثلاثين، وهذا ما خضت فيه في موقعه المخصص، وسعيت في آخر العناصر إلى إظهار الغاية من وراء توظيف الاستراتيجيتين المذكورتين سلفاً، وفي الأخير أوردت خاتمة تحدثت عن أهم النتائج التي توصل إليها الفصل.

وأدرجنا في آخر الفصول ملحقاً يضم وصفاً للمدونة والمتمثلة في كتاب " عجيب الخطب " لابن الجوزي، وكذا بعض الخطب التي أوردها كتابه، وذلك كي يسهل على الطالب الاطلاع عليها.

وقد اعتمدت في هذا البحث على مجموعة من المراجع أهمها كتاب البيان والتبيين للجاحظ، سر الفصاحة للخفاجي، منهاج البلغاء للقرطاجني، الصناعتين للعسكري، أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز للجرجاني، الخطابة لأرسطوطاليس، استراتيجيات الخطاب لعبد الهادي بن ظافر الشهري، في بلاغة الخطاب الإقناعي لمحمد العمري، والحجاج في البلاغة المعاصرة لمحمد سالم محمد الأمين الطلبة.

وقد واجهتي خلال التدرج في هذا البحث بعض الصعوبات منها قلّة المراجع التي تختص بدراسة الحجاج في المدونات القديمة إلا بعض المقالات هنا وهناك، إضافة إلى انقطاعي عن مكتبة الجامعة بسبب بعد المسافة.

مدخل: المهاد النظري للبحث.

تحديد مفاهيم البحث:

1- مفهوم البلاغة:

تتمثل البلاغة عند أبي هلال العسكري في: " كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكّنه من نفسه لتمكّنه في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن، وإنما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطاً في البلاغة"¹، إذ يركز أبي هلال العسكري في مفهومه للبلاغة على ثلاثة عناصر أساسية: تمثل الأول في بلوغ الكلام للمعنى المراد، بينما تمثل العنصرين الباقيين في حسن المعرض وقبول الصورة، فالتبليغ هو أساس الكلام ذلك أن المتكلم يقوم أثناء تأدية فعل الكلام بتوصيل رسالة للمتلقى تتمثل في إفهامه لأمر محددة، حيث نجد الجاحظ يحدد غاية الكلام بأنها " القدرة على تحقيق التفاهم"²، من أجل هذا سميت بلاغة: " لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه"³، أي أن يصل المعنى من الكلام إلى ذهن السامع كما يصل إليه الكلام نفسه، والمعبر عنه عن طريق الأصوات والحروف.

كما جعل أبو هلال العسكري توفر حسن المعرض وقبول الصورة في الكلام شرط مهم من شروط البلاغة، فبالإضافة إلى الإفهام الذي هو الشرط الأساسي في الكلام بين المتكلم والمستمع، يأتي شرطين آخرين هما المعرض الحسن، وقبول صورة الكلام لدى المستمع أو المتلقي، وكلاهما يخصان شكل اللغة أو اللباس الذي يكتسبه الكلام، إذ وجب توفر بعض الشروط في ألفاظ الكلام وتراكيبه كإحكام رصف الكلمات وحسن نظم التراكيب، ومنه: " أن يستعمل المتكلم من تراكيب الكلام البليغة ما يطابق مقتضى الحال وما يكسو الكلام حلة التزيين، ويرقيه أعلى درجات التحسن"⁴، كما على المتكلم اختيار الألفاظ الحسنة والملائمة للمعاني فلا تكون وحشية ولا مستهجنة، وألا يكثر من

¹ أبي هلال العسكري: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ضبط مفيد قميجة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت لبنان، 2008، ص15.

² حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، دار كنوز المعرفة العلمية، ط1، عمان الأردن، 2014، ص300.

³ أبي هلال العسكري: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ص13.

⁴ حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص34.

التراكيب التي تحمل المعنى نفسه وإلا كان الكلام حشواً دون فائدة، كما أن من الأهل أن يزين كلامه بأبهى زينة وبأجمل صورة ممكنة كي ينال قبولاً عند المستمع.

كما ووجب أن يشتمل معرض الكلام أو صورته على مميزات منها: " البعد عن الإطالة، والتقرب من معنى البغية، والدلالة بالقليل من اللفظ على المعنى "1، أي أن يضع المتكلم صوب عينيه ما يروق المستمع من إيجاز في الكلام، وملاءمة الألفاظ للمعاني، وتحليها بالبساطة وبعدها عن التعقيد، والتحلي بالإيجاز وعدم الإطالة في الكلام، كما ووجب اختيار الألفاظ القريبة من المعنى المراد توصيله للمتلقى قدر المستطاع، فالبلاغة: " اختياراً للكلام وتصحيحاً لأقسامه "2، بما فيها الألفاظ والتراكيب.

إذن فالمزية كلها في نظم وتأليف أقسام الكلام، وتركيب أجزاء القول بعضها ببعض، ف: " اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان، للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة المقصود للسامع، وهذا هو معنى البلاغة "3.

ومن تعاريف البلاغة التي لها علاقة بالحجاج قول <أوليفي روبول Olivier Reboul 1925. 1992> البلاغة: " تتخذ معاني ذات أبعاد اجتماعية، فهي تعني دراسة تقنيات الحجاج "4، حيث يظهر من خلال التعريف جانب آخر من جوانب البلاغة، غير ما تقتضيه من عناصر التبليغ وحسن الصورة والزخرف اللفظي، تمثل في الجانب الخاص بالمقصد من إنتاج الخطاب، وهو إقناع الآخر عن طريق

1. ينظر: أبو محمد عبد الله بن سعيد بن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، تح: داود غطاشة الشوابكة، دار الفكر، ط1، 2006، ص202.

2. ينظر: الخفاجي: سر الفصاحة، ص54.

3. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بنغازي ليبيا، 2004، ص62.

4. حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص6. (نقلا عنه)

استراتيجيات حجاجية يحتوي عليها الخطاب نفسه، يقول > شايم بيرلمان Chaim perelman 1912 . 1984: " إن اللجوء إلى مفعولات اللغة، وإلى قدرتها على الإثارة هو الذي يسمح بالتنقل بين البلاغة باعتبارها فن الإقناع، والبلاغة باعتبارها تقنية التعبير الأدبي"¹، فأساس البلاغة التعبير عن الأفكار التي تختلج النفس عن طريق آليات وأدوات لغوية مكونة من ألفاظ وتراكيب معروضة في صورة حسنة، وهذا بغية إقناع المستمع بهذه الأفكار، إذن: " تكمن قوة البلاغة من جهة أولى في ارتباطها بالإقناع"².

وفي شأن ارتباط البلاغة بالإقناع سئل ابن المقفع ما البلاغة؟ قال: " البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً"³، حيث يظهر من خلال هذا القول أن للبلاغة معان عديدة، منها أنها قد تكون في السكوت، لأن للسكوت مواضع يصلح فيها أكثر مما يصلح الكلام، كما قد تكون في الاستماع لأن هناك مواضع يصلح فيها الاستماع ولا يصلح فيها الكلام.

كما قد تكون البلاغة في الإشارة التي تكون دون الكلام، وقد تكون البلاغة في الكلام نفسه أو في الحديث، كما قد تكون في الاحتجاج وذلك أن أساس الكلام الذي يحوي وسائل بلاغية هو إقناع المستمع بأفكار محددة، كما قد تكون البلاغة في ابتداء الكلام أو افتتاحه لما له من دور في دفع القارئ أو المستمع للاستماع للكلام وتحقيق عنصر التشويق فيه، وتكون أيضاً في الشعر من خلال جودة ألفاظه وأساليبه، وتكون كذلك في السجع والخطب كونها تحوي قدرًا لا بأس به من الزخرف اللفظي وكذا الموسيقى الخاصة بفواصل الكلام.

¹. حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص256. (نقلا عنه)

². المرجع نفسه، آخر صفحة من الكتاب > في الغلاف الخارجي <

³. أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، تح: حسن السندوبي، دار المعارف، تونس، 1990، ص109.

2. مفهوم الفنون البلاغية:

نعني بفنون البلاغة مجموع القضايا البلاغية التي تهتم كل دارس للبلاغة العربية، وقد تمحورت مجمل هذه القضايا في ثلاثة علوم بلاغية هي: علم المعاني، علم البيان، وعلم البديع، وهي تعني كذلك مجموع المظاهر التي تترجم للبلاغة العربية، إذ يدرس علم المعاني: " الخبر والإنشاء، فيدرس الخبر من زاوية الإسناد بطرفيه في مختلف أحوالهما (الحذف، الترتيب، التكرير، والتعريف، النفي والإثبات إلخ)، ومن زاوية التوكيد فيه، والفصل والوصل إلخ، أما درس الإنشاء فيهتم بما عدا الخبر من تراكيب يحدث بها المتكلم معنى ما كالأطلب (الاستفهام، الأمر، التمني)، أو غيره كالتعجب"¹ بينما يتمحور موضوع علم البيان حول دراسة: " الوجوه التي يخرج بها اللفظ عن معناه الأصلي إلى معنى آخر متصل به، وتجمع هذه الظاهرة في المجاز (المرسل والعقلي والاستعارة والكناية)"²

في حين يدرس علم البديع: " وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة"³، أي هو العلم الذي يهتم بمحسنات القول أو المحسنات اللفظية إضافة إلى اهتمامه بالمعاني وملاءمتها للألفاظ، وما يناسب كل مقام من مقال، فهو يبحث في: " المعنى أو اللفظ من حيث تزيينه وتدبيجه، وإلباسه ثوباً من البهجة والبهاء، يسترق السمع، ويستأسر اللب"⁴، وهذه الزينة والديباجة، وتلك البهجة، وذلك الحسن والبهاء كلها زخارف في الألفاظ تدعو المستمع إليها، لقراءتها، أو لسماعها، للتمعن في معانيها، فيعجب بها، وبجمال فواصلها وبجودة تراكيبها.

إلا أن ما نركّز عليه في موضوع بحثنا هذا هما علما البيان والبديع، والتي تتمحور موضوعاتهما حول الصور البيانية (من تشبيه واستعارة وكناية) والمحسنات البديعية

¹. الأزهر الزناد: دروس في البلاغة العربية، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1992، ص 97. 98.

². المرجع نفسه، ص 14.

³. المرجع نفسه، ص 151.

⁴. عبد العاطي غريب علام: دراسات في البلاغة العربية، منشورات جامعة قازيونس بنغازي، ط1، 1997،

ص 155.

(من طباق ومقابلة وسجع وجناس)، فقد ضمّت البلاغة العربية: " مهذان كبيران أنتجا مسارين كبيرين، مسار البديع يغذيه الشعر، ومسار البيان تغذيه الخطابة"¹، حيث يتوفر الشعر على مقومات كالقوافي والأوزان والتي تجعل منه أرضاً خصبة للبديع، كما يتوفر النثر وبالتحديد الخطابة على اللغة السلسة المسترسلة والأسلوب العذب التي يتوافق مع معانيها مع إلباسها الألفاظ التي يراها أنسب لتطبيق بديعه، " ونظراً للتداخل الكبير بين الشعر والخطابة في التراث العربي، فقد ظل المساران متداخلين وملتبسين"² من حيث الصنعة والزخرفة اللفظية، والموسيقى والإيقاع الذي تحتويه الفواصل والتراكيب.

فالصنعة اللفظية هي الأساس الذي يبنى عليه البديع، حيث ارتبطت نشأته: " بظاهرة الصنعة في الأدب، وقد بدأ مصطلح البديع شائعاً في عهده الأولى يطلق على كل جديد غريب في الشعر مثل أشعار بشار وغيره من المولدين، ثم جاء أبو تمام ومكّن هذا الفن، وأول من جمع بعض وجوه البديع ابن المعتز في كتابه > كتاب البديع <، وكتب بعده قدامة بن جعفر، وأبي هلال العسكري، والرماني والباقلاني، واستوت أسس العلم مع ابن رشيق القيرواني في العمدة ، لكن نضجها واكتمالها كان مع السكاكي في مفاتيح العلوم ، حيث استقامت في نظام بيّن الحدود واضح المعالم"³

3. استراتيجيات الخطاب:

قبل أن نتحدث عن استراتيجية الخطاب وجب علينا أولاً أن نبين أولاً مفهوم الاستراتيجية العام، ثم مفهوم الخطاب، لأنهما مفهومان منفصلان عن بعضهما، ثم نحاول التأليف بينهما في مفهوم واحد.

¹. حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص35.

². المرجع نفسه، ص35.

³. ينظر: الأزهر الزناد: دروس في البلاغة العربية، ص151.

3-1. مفهوم الاستراتيجية:

تمثل الاستراتيجيات: " طرق محددة لتناول مشكلة ما، أو القيام بمهمة من المهمات، أو هي مجموعة عمليات تهدف إلى بلوغ غايات معينة، أو هي تدابير مرسومة من أجل ضبط معلومات محددة، والتحكم بها"¹، وبناءً على هذا القول يتضح أن الاستراتيجيات بمثابة الخطط التي يتوخاها المرسل لتحقيق مقاصده، فهي " تتحدد باختيار الحلول الراجعة"²، أي انتقاء وسيلة من بين الوسائل التي يعتقد الفاعل أنها ناجحة.

كما إن الاستراتيجية: " عمل عقلي مبني على افتراضات مسبقة، وتتجسد من خلال أدوات ووسائل تناسب سياق استعمالها"³، إذ بالإضافة إلى العمل الذهني الذي يمر به المرسل، بوضعه لمجموعة احتمالات وافتراضات لفكرة أو قضية أو مشكلة معينة، فإن عليه في الأخير تحويلها من مرحلتها الذهنية إلى الواقعية، المجسدة عن طريق تضمين القول أو الفعل أو الكتابة لاستراتيجيات متنوعة تحقق غايات محددة، ذلك أن الاستراتيجية تكون في جميع ميادين الحياة بحكم أنها تتعلق بالفعل، وهي تصنف حسب معايير واضحة، من هذه المعايير: معيار اجتماعي وهو معيار العلاقات التخاطبية، ومعياري لغوي وهو معيار شكل لغة الخطاب، ومعياري ثالث هو معيار هدف الخطاب.

ومن هذا فإن المعني يخطط ذهنياً من أجل الوصول إلى النقطة التي يريد، آخذاً في حسابه كل العناصر السياقية التي تحف بفعله، حيث تتوفر لديه أكثر من طريقة يسلك إحداها للوصول إلى هدفه، وما عليه إلا أن يبدأ في اختيار الأحسن من الحسن، وهذا حسب مناسبتها للسياق، " وأي خلل أو عدم تناسب بين السياق وبين الخطاب، أي القصور في معرفة الاستراتيجيات يؤدي إلى حدوث زلات اللسان وآفاته"⁴ هذا إذا كان السياق لغوياً أو تلفظياً.

1. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص53.

2. ينظر: المرجع نفسه، ص55.

3. المرجع نفسه والصفحة نفسها.

4. ينظر: المرجع نفسه، ص2.

3.2. مفهوم الخطاب:

ورد مفهوم الخطاب في معجم لسان العرب على أنه مراجعة الكلام، يقول: " والخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبةً وخطاباً وهما يتخاطبان "¹، ويحدد (إيميل بينفينيست 1902. 1976 Emile Benveniste) الخطاب بمعناه الأكثر اتساعاً بأنه: " كل تلفظ يفترض متكلماً ومستمعاً، وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما "²، إذن فالخطاب هو مجموع المقولات التي تكوّن حديثاً ينطلق من متكلم يرغب في التأثير بأفكاره وكلامه على مستمع يتلقى هذا القول، وقد تتحقق الغاية من هذا الخطاب كما قد لا تتحقق، وهذا حسب حذق وذكاء المتكلم الذي يودعهم في خطابه بصورة خطط واستراتيجيات كلامية، حيث إن كل خطاب هو نتيجة لاستراتيجية معينة، ولتوليد يمر المتكلم بثلاث مراحل هي:

1. إدراك السياق الذي يجري فيه التواصل بكل أبعاده المؤثرة.
2. تحديد العلاقة بين السياق والعلامة المستعملة، ليتم اختيار الاستراتيجية الخطابية الملائمة.
3. التلفظ بالخطاب "³

فالمرحلة الأولى والمرحلة الثانية مرحلتين ذهنيّتين، حيث يقوم المتكلم في المرحلة الأولى بإدراك السياق الذي يجري فيه التواصل، أي معرفة الإطار أو المحيط الذي سيقع فيه الحديث، فالخطاب الموجه إلى عامة الناس غيره الموجه إلى الخاصة منهم والمتقنين، والخطاب الموجه إلى المراهقين غيره الموجه إلى الأطفال أو البالغين، فلكل شأنه وطريقته الخاصة، كما أن لكل مخاطب من هؤلاء استراتيجياته الخاصة التي تؤثر فيه، والتي يدركها فقط الأذكياء من المتكلمين، أما المرحلة الثانية وبعد أن يدرك المتكلم للسياق الذي يتحدث فيه، يقوم بإنتاج خطابه على أساس السياق الذي أدركه،

¹ ابن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، ص1194.

² عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص37.

³ المرجع نفسه، ص63.

حيث ينتج كلامه ليلائم المتلقي، والذي يعتبر العنصر الأساس في تحديد طبيعة الخطاب ومكوناته، وعلى هذا الأساس يختار المتكلم لاستراتيجيات يضمنها في كلامه كي يؤثر بها على المتلقي، أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة التلفظ بالخطاب، وهي آخر المراحل، وفيها يتجسد الخطاب عن طريق مجموعة ملفوظات تعبر عن الأفكار التي أراد المتكلم بها التأثير في السامع.

3.3 مفهوم الاستراتيجية في الخطاب:

يتميز مفهوم الاستراتيجية العام عن مفهوم الاستراتيجية في الخطاب، أن هذا الأخير يشتمل على بعد لغوي، لأن الخطاب ينتج عن طريق اللغة سواء مكتوبة أو شفاهية، فالاستراتيجيات في الخطاب تكون استراتيجيات لغوية، وهذا يعني أن الخطاب المنجز يكون خطاباً مخططاً له، فيه القصد ونية التأثير في الآخرين، وللقرطاجني حديث في هذا السياق حول بعض الملكات التي تحكم الخطاب، حيث نجده قد أسماها بالقوى، وقد قسمها إلى ثلاثة أقسام، وهي القوة الحافظة والقوة المائزة والقوة الصانعة.

- " فالقوة الحافظة هي تلك التي تعني بانتظام خيالات الفكر وترتيبها في أقدار معينة، وتميز بعضها من البعض الآخر، لتهب المرسل ما يناسب سياق خطابه.

- والقوة المائزة هي التي يميز بها الإنسان ما يلائم الموضع والنظم والأسلوب والغرض مما لا يلائم ذلك، وما يصح مما لا يصح.

- والقوى الصانعة هي التي تتولى العمل في ضم بعض أجزاء الألفاظ والمعاني والتركيبات النظمية والمذاهب الأسلوبية إلى بعض، والتدرج من بعضها إلى بعض، وبالجملة التي تتولى جميع ما تلتئم به كليات هذه الصناعة"¹

وتعمل هذه القوى على حد تعبير القرطاجني من أجل إنتاج خطاب، لا يتسم بصحة تراكيبه فحسب، بل وبكونه ذلك الخطاب المناسب للسياق الذي يضمن به المرسل التعبير عن قصده بالإضافة إلى تحقيق هدفه، حيث تمثل استراتيجية الخطاب: " المسلك المناسب الذي يتخذه المرسل للتلفظ بخطابه، من أجل تنفيذ إراداته، والتعبير

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص58.

عن مقاصده، التي تؤدي لتحقيق أهدافه من خلال استعمال العلامات اللغوية وغير اللغوية، وفقاً لما يقتضيه سياق التلفظ بعناصره المتنوعة، ويستحسنه المرسل¹ هذا ما يحيل إلى أن الاستراتيجية طريقة معينة في الكلام، وهي تتمظهر عن طريق الوسائل اللغوية التي يُصمِّنها الحديث في طياته، وكذا الوسائل غير اللغوية كالإشارة والرمز، وهي تضمن للكلام نجاحه من خلال قدرتها على التأثير في المستمع، وهذا يختلف من متكلم إلى آخر، ف: "الكلام قد يكون أكثر نجاحاً في بعض الأحيان، عنه في أحيان أخرى، وقد يتقنه بعض الناس أكثر من بعض"².

4. الخطاب الإقناعي:

نعني بالخطاب الإقناعي كل تلفظ كانت الغاية منه التأثير على المتلقي عن طريق إقناعه ببعض الأفكار، ففيه يتوجه المتكلم إلى المستمع بمجموعة من الكلمات التي تكون حديثاً، يخاطب من خلاله أفكار المستمع للسيطرة عليها وتوجيهها الوجهة التي يرضاها، ويتحقق هذا حسب ذكاء وبراعة المتكلم في إدراكه نقاط ضعف مستمعه، ومعرفته للأشياء التي تؤثر فيه، كل هذا من أجل تحقيق غاية الإقناع الذي سنفصل في مفهومه وآلياته فيما يلي:

4.1. مفهوم الإقناع:

يعرّف الإقناع بأنه: "أحد أشكال الفعل الإدراكي، وهو يتعلق بمقام التلفظ، ويتجلى في استدعاء المتلفظ لكل أنواع الصيغ والطرق التي تهدف إلى أن يكون التواصل فعالاً، ويقبل المتلفظ إليه التعاقد أو التقاهم التلفظي المقترح، وبالنسبة إلى علماء الحجاج، الإقناع هو التواصل لغاية تغيير سلوك أو موقف"³، ويعتبر الإقناع الهدف الأساس الذي يبتغيه المتكلم من خلال إلقاء خطابه، ذلك أن التأثير في الغير هو المطلب الأهم من كل الخطابات مهما تعددت أنواعها، وهو يضم: "إحداث تغيير في

¹. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص62.

². المرجع نفسه والصفحة نفسها.

³. حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص22.

الموقف الفكري أو العاطفي "1، كما أنه يمثل: " عملية خطابية يتوخى بها الخطيب تسخير المخاطب لفعل أو ترك، بتوجيهه إلى اعتقاد قول يعتبره كل منهما (أو يعتبره الخطيب) شرطاً كافياً ومقبولاً للفعل أو الترك "2

وقد يشمل الإقناع كل ميادين الحياة إلا أن ما يهمنا في هذا المقام هو المجال التلفظي أي الكلام سواء كان منطوقاً أو مكتوباً، حيث تستعمل استراتيجية الإقناع من أجل تحقيق أهداف المرسل النفعية، بالرغم من تفاوتها تبعاً لتفاوت مجالات الخطاب أو حقوله، فقد يستعملها التاجر لبيع بضاعته وقد يستعملها المرشح لرئاسة الدولة أو المؤسسة.

أي أن الخطاب يكون دائماً ذا غاية معينة، وموجه إلى مخاطب معين سواء كان متفقاً معه في الأفكار أم لا، ذلك أن القول أو الكتابة يقوم بإخراج الأفكار من الحيز الذهني إلى حيز الوجود الفعلي المعبر عنه بالأصوات أو بالكتابة، وهذا التحول من الذهني إلى الوجود الفعلي هو آلية من آليات الإقناع التي تتجسد عن طريق الخطاب، " فالخطيب الذي يخطب أو يكتب بهدف الإقناع . ليس أبداً وحيداً . وإنه يعبر دائماً عن ذاته مع أو ضد خطباء آخرين، أي أن هناك دائماً ارتباطاً بخطابات أخرى "3

وقد تم تصنيف أنواع استراتيجيات الإقناع بناء على معايير هي:

- " المعيار الاجتماعي، ويتعلق بالعلاقة بين طرفي الخطاب، وقد تفرع عليه استراتيجيتان هما: الاستراتيجية التضامنية والاستراتيجية التوجيهية.

- معيار شكل الخطاب اللغوي للدلالة على قصد المرسل، وتأسس عليه الاستراتيجية التلميحية.

- معيار هدف الخطاب، وتأسس عليه استراتيجية الإقناع "4

من هنا تأتي أهمية دراسة الإقناع بوصفه هدفاً واستراتيجية في الآن نفسه، يستعمل فيه المرسل آليات كثيرة وأدوات لغوية وغير لغوية، ولا بد من الوقوف على هذه الآليات

1. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص444.

2. المرجع نفسه، ص451.

3. المرجع نفسه، ص445.

4. المرجع نفسه، ص444.

وتلك الأدوات، لنرى مدى نجاعتها، وما تثيره عند المرسل إليه، والسبل التي يسلكها المرسل لبلوغ هدفه.

4. 2. آليات الإقناع:

تنقسم آليات الإقناع إلى قسمين، يمثل أحدهما العلامات غير اللغوية، مثل الأدلة المادية لحادثة ما، في حين يمثل القسم الآخر ممارسة الخطاب بما يناسب العمل الذهني، وذلك يتجسد باستعمال اللغة الطبيعية بوصفها العلامة الرئيسة، وهو ما سنركز عليه في هذا العنصر.

ينعكس سلوك المرسل إليه على المرسل في بناء خطابه الإقناعي، إذ يراعي المرسل أحوال المرسل إليه وظروفه، ويستحضر معرفته وقدراته، إذن ينتج المرسل خطابه انطلاقاً من سلوك المرسل إليه، وذلك كي يستطيع التأثير عليه وتغيير أفكاره وإقناعه بأفكار جديدة، ومن الآليات المهمة والتي لها دور عظيم في الإقناع نجد اللغة الطبيعية، وتحديدًا على آليته اللغوية الأبرز وهي آلية الحجاج، فالحجاج هو الآلية الأبرز التي يستعمل المرسل اللغة فيها، وتتجسد عبرها استراتيجية الإقناع، ويعرف طه عبد الرحمن الحجاج بأنه: " كل منطوق به، موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"¹، كما أن الغاية من كل حجاج هي: " إذعان العقول بالتصديق لما يطرحه المرسل أو العمل على زيادة الإذعان...، فأنجع حجة هي تلك التي تنجح في تقوية حدة الإذعان عند من يسمعها وبطريقة تدفعه إلى المبادرة سواء بالإقدام على العمل أو الإحجام عنه، أو هي على الأقل ما تحقق الرغبة عند المرسل إليه في أن يقوم بالعمل في اللحظة الملائمة"²

فمن الملاحظ أن هذا التعريف يولي الإقناع مكانته بأن جعل منه لب العملية الحجاجية، فخطب ابن الجوزي توصل رسالة للمرسل إليه بأنه حقاً للغة أن توصل المعنى رغم تغييب حرف من حروفها، وما على المرسل إليه وهو متلقى الخطب أن يقدم على هذه الفكرة فيقبلها، أو يحجم عنها ويرفضها، كما حاول في الآن نفسه

¹. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص456.

². المرجع نفسه، ص456. 457.

البرهنة على مجموعة أفكار ومضامين أودعها في الخطب، وبهذا فدور الحجاج يقف عند هدف تحقيق الإقناع، كون: " الحجاج بحث من أجل ترجيح خيار من بين خيارات قائمة وممكنة"¹، وهذا الحد هو ما يمنحه صلاحيته لاستعماله آلية في السياقات المتنوعة.

وهنا تكمن أهمية الحجاج فيما يولده من اقتناع لدى المرسل إليه الذي لا يتأتى له إلا باستعمال اللغة، مما يؤكد أن نظرية الحجاج في اللغة تنطلق: " من فكرة مفادها أننا نتكلم عامة بقصد التأثير وأن الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج، وأن المعنى ذو طبيعة حجاجية"²

إذن فالحجاج آلية تجسد الخطاب الإقناعي، فالمرسل يوجه خطابه نحو المرسل إليه، سواء كان سامعاً أو قارئاً، والمرسل إليه ليس غفلاً، فخصائصه معروفة لدى المرسل مسبقاً، إذ لن يحاجج إلا من سبق أن فقه موقفه وعرف خصائصه، بل واستحضرها في ذهنه قبل أن ينتج الخطاب، فابن الجوزي قد أرسل خطبه لمرسل إليه مخصوص، وتكمن خصوصيته في أن الخطاب موجه إليه بالذات.

وبهذا يتضح أن استراتيجية الإقناع بالحجاج هي: " الاستراتيجية الأصلح في خضم الصراعات والمناقشات وكثير من المجالات الأخرى، إذ إن نجاح البلاغة الحالي يرجع إلى الاهتمام بوسائل الإقناع، لذا أصبح مفهوم الإقناع مطلباً أساسياً في كل عملية فكرية"³

5- الخطبة:

نتطرق في هذا البحث إلى عنصر الخطبة بحكم أن المدونة عبارة عن مجموعة من الخطب أوردها ابن الجوزي كتابه الذي أسماه < عجيب الخطب >.

¹. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 459.

². المرجع نفسه، ص 457.

³. ينظر: المرجع نفسه، ص 459.

5.1 مفهوم الخطبة:

ورد في لسان العرب في مادة خطب أن الخطبة: " مصدر الخطيب، وخطب الخاطب على المنبر، واختطب يخطبُ خطابةً، واسم الكلام: الخطبة، وذهب أبو إسحاق إلى أن الخطبة عند العرب: الكلام المنثور المُسَجَّع ونحوه، التهذيب: والخطبة مثل الرسالة التي لها أول وآخر" ¹

ويعرّفها أرسطو حسب الترجمة العربية القديمة بقوله: " الريطورية قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة" ²، تعتبر الخطبة من خلال هذا القول أحد الأشكال التعبيرية التي أساسها إقناع المستمعين بمجموعة أفكار يراها المخاطب صائبة، ويشمل هذا الإقناع وتتعدد وسائله وآلياته باختلاف ميادين الحياة والمعرفة، فاستراتيجية الإقناع في الطب غيرها في الهندسة والحساب، وكذا سائر الصناعات والعلوم الأخرى، وقد يكون الإقناع - حسب أرسطو - بصناعة كما قد يكون بغير صناعة، فأما ما يكون بالصناعة فهو يشمل عنصر القصد أي قصد المتكلم إقناع المستمع بمجموعة وسائل متبعاً في ذلك مجموعة استراتيجيات وحيل، وأما التي هي بغير صناعة، فهي الاستراتيجيات الجاهزة كالشهود وهي تمثل في الثقافة العربية الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال والحكم، والتي تجري في الكلام بقصد تأكيد وتثبيت المعاني وتحقيق الإقناع.

كما تعتبر الخطبة: " فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته، فلا بد من مشافهة، وإلا كانت كتابة أو شعراً مدوناً، ولا بد من جمهور يستمع، وإلا كان الكلام حديثاً أو وصية، ولا بد من الإقناع، وذلك بأن يوضح الخطيب رأيه للسامعين، ويؤيده بالبراهين، ليعتقدوه كما قام هو باعتقاده، كما لا بد من الاستمالة، والمراد بها أن يهيج الخطيب نفوس سامعيه أو يهدئها، ويقبض على زمام عواطفهم يتصرف بها كيف يشاء، وإذا فأسس الخطابة: مشافهة وجمهور وإقناع واستمالة" ³

¹ ابن منظور: لسان العرب، ص1194. 1195.

² أرسطوطاليس: الخطابة، تح: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات الكويت، ودار القلم بيروت لبنان، 1979، ص9.

³ أحمد محمد الحوفى: فن الخطابة، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 2003، ص5.

كما أن الخطيب يختار لجمهوره أجود الألفاظ والتراكيب وأعذبها، من أجل أن تساعده للوصول إلى غايته، وهي إحداث أثر جميل في الأسماع وكذا النفوس، فالخطبة إذن هي: "القدرة على النظر في كل ما يوصل إلى الإقناع في أي مسألة من المسائل"¹، إذ يضع الخطيب، المتلقي، صوب عينيه ويعمل على إقناعه واستمالاته بشتى الوسائل والسبل.

ويتوفر الخطاب الذي يعرف بأنه كل تلفظ يفترض متكلماً ومستمعاً، لدى كل البشر كونه ذلك الفعل التلفظي الذي يسعى إليه المتكلم لتحقيق أغراض كلامية، وهو شبيه إلى حد ما بالخطبة والمجادلة إلا أنه أبسط منها لافتقاره إلى درجات عالية من الدقة والتي يجب توفرها في الخطبة، ذلك أنه عنصر تغلب عليه التلقائية والارتجال عكس الخطبة التي تحضر وتتقح وتصحح قبل إلقائها على الجمهور، إذن: " فكل الناس يلجؤون للخطابة والجدل بدرجات متفاوتة، وبعض الناس تمارس الخطابة والجدل فطرة وسليقة"²، يقول أرسطو في هذا النحو: "إن الريطورية* ترجع إلى الديالكتيكية**"، وكلاهما توجدان من أجل شيء واحد³ وهو الإقناع.

5.2. أركان الخطبة:

تتكون الخطبة من ثلاثة أركان لكل ركن دور وخصائص تختلف عن غيرها من الأركان، ومن أركانها: الابتداء أو المقدمة، الاختتام أو الخاتمة، ف" الخطبة مثل الرسالة التي لها أول وآخر"⁴، كما تحتوي على العرض، وهو أوسع أركانها وأهمها، لما يحتويه من عرض للأفكار والموضوعات وكذا الحجج والمجادلات، وفيما يلي عرض لهذه الأركان:

1. أحمد محمد الحوفى: فن الخطابة، ص5.

2. المرجع نفسه، ص7.

*: تعني صناعة الخطابة.

** : تعني صناعة الجدل.(الشرح من الكتاب نفسه)

3. أرسطوطاليس: الخطابة، ص3.

4. محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية (الخطابة في القرن

الأول نموذجاً)، إفريقيا الشرق 2، بيروت لبنان، 2002، ص18.

❖ الابتداء:

بداية الخطاب محطة مهمة وحساسة ولهذا يحتل تدبير الابتداء مكانة مهمة، فالمقدمة أول ما يطرق الأسماع من الخطبة، فإن كانت جيدة أصغى السامعون وتأهبوا لما بعدها، وتفتحت نفوسهم للخطيب: " وإذا كان الابتداء حسناً بديعاً ومليحاً رشيقاً كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: > كل كلام لم يبدأ فيه بحمد الله تعالى فهو أبتَر < "1، معنى هذا أن تبتدئ الخطبة بفاتحة الكتاب والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث لا يخلو أي كلام من مقدمة تمهيدية جامعة لكل الموضوع المطروح، وبالأخص الخطبة، حيث تلقى على جمهور يدرك محاسن الكلام و مساوئه، " وأما براعة الاستهلال فهو أن تبتدئ بفاتحة الكتاب الذي تكتبه بكلام مخترع يكون دالاً على كافة الكتاب "2، أي أن من شروطها أن تكون متصلة بالموضوع نفسه لتخدمه وتمهد له، وإن كان الابتداء شيئاً نفر المستمعون من الخطبة بأكملها.

كما أن للابتداء وظائف شعرية وتأثيرية، حيث: " يحتوي الاستهلال لحظتين: لحظة الاستهواء والاستمالة "3، وهي اللحظة التي يتأثر بها المستمعون لما تحمله من ألفاظ وتعابير تخاطب العاطفة والوجدان، ولحظة: " الإعلان عن التقسيم المتبنى والتخطيط المتبع "4، وفيها يلج المخاطب في صلب الموضوع المطروح بعرضه للموضوعات والأفكار والحجج والتي يبتغي من خلالها غاية محددة.

وتأثر المستمع بالخطبة وإقباله عليها مرتبط إلى حد كبير بالمقدمة أو بالاستهلال، لما له من دور كبير في إظهار جودة الخطبة أو رداءتها من أولى عتباتها، من أجل

1. أبي هلال العسكري: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ص342.

2. عبد الواحد حسن الشيخ: دراسات في البلاغة عند ضياء الدين بن الأثير، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1986، ص236.

3. محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص139.

4. المرجع نفسه والصفحة نفسها.

هذا قال بعض الكتاب: " أحسنوا معاشر الكتاب الابتدءات فإنهن دلائل البيان "1، و: " الناس موكلون بتفضيل جودة الابتدء "2 لدوره الفعال في إنجاح الخطبة أو العكس.

❖ العرض:

عرض الخطاب محطة ثانية بعد الابتدء، وهو حيز يعرض فيه الخطيب أفكاره وموضوعاته وحججه المتعلقة بنظرته للأمور، ومن العناصر التي تساعد على نجاح الخطبة أن تكون ألفاظ العرض على قدر معانيه، أي أن يعبر الخطيب عن أغراضه وأفكاره بأقل الكلمات، فلا يكثر من الألفاظ والأساليب إنما يقول ما قلّ ودلّ، وهذا ما يسمى بالإيجاز، وهو يحتل مكانة مركزية في كل عرض، كما يجب أن يكون العرض واضح الأفكار خالياً من كل لبس وغموض: " ينبغي أن يكون واضحاً ومختصراً خالياً من الاستطراد والتشخيص، يكفي بالإعداد لمرحلة البرهنة، فهو يضم ذكر الوقائع ووصفها زمنياً ومكانياً، كما يصف الذوات "3

وأهم ما يتضمنه المتن ناهيك عن عرض الأفكار، عنصر الاستدلال، والأدلة نوعان: " أدلة منطقية: وهي المبنية على مقدمات ثابتة يقينية كالقياس، وهذا الدليل المنطقي نشأ عن اقتناع ويقين عقلي "4، ويكون أساسها العقل حيث يعرض الخطيب على الجمهور أدلة لا نقاش فيها، ولا أحد يستطيع تفنيدها، لما لها من مصداقية على العقل، إضافة إلى: " أدلة خطابية: وهي المبنية على مقدمات ظنية أو المستندة إلى العرف الشائع أو إلى حكم مشهورة، ونشأ عن هذه الأدلة الخطابية اقتناع شعوري "5، وهنا يطغى الشعور على عاطفة الجماهير فتتحرك عواطفهم ويتأثرون بالأدلة التي طرحها الخطيب، لا لمصداقيتها على العقل بل لشيوعها بين أوساط العامة ولمعرفتهم بها، ولأجل هذا قبلها الجمهور واقتنع بها.

1. أبي هلال العسكري: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ص337.

2. أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص106.

3. محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص139.

4. أحمد محمد الحوفي: فن الخطابة، ص125.

5. المرجع نفسه، ص126.

❖ الاختتام:

الاختتام من: " اختتم وهو نقيض الافتتاح وهو في البلاغة أن يختم البليغ كلامه في أي مقصد كان بأحسن الخواتم لأنها آخر ما يبقى على الأسماع"¹، ولأجل هذا فإنها تخلف أثراً كبيراً في النفوس إذا ما كان لها حظ كبير من الجودة والحسن، فنهاية الخطاب محطة لها تأثير خاص على المخاطبين وتديرها يحتاج إلى كفايات خاصة، فهي آخر ما يبقى من آذان السامعين وأذهانهم من الخطبة، وبعدها يجني الخطيب الثمرة المرتجاة، ويخشع السامعون لخطبة الوعظ ويتقون، أو لا يتأثرون، وفي الخاتمة يتجلى نجاح الخطيب في لعبه بعواطف الجمهور واستمالاته، " ومن شروطها أن تكون قوية العبارة لتَهزّ المشاعر، وأن تكون قصيرة لأن قصرها يكسبها روعة"²، وهذان عنصران مهمان في الخاتمة، فقوة العبارة تتجسد عن طريق صلابة الألفاظ ومناسبتها للسياق أو المحيط الذي ولد فيه الموضوع المقترح، وكذلك ملاءمتها لما قبلها وما بعدها من الألفاظ، وكذلك ملاءمتها للمعاني، كل هذا يكسبها قوة ودافعاً لتكون ذا أثر في النفس، كما أن قصر الخاتمة يمنحها جمالاً وروعة، وهذا أن العبارة القليلة الألفاظ تخلف أثراً أسرع في النفس من العبارة الكثيرة الألفاظ، لحاجة النفس إلى الإيجاز والاختصار، إذن هما عنصران مهمان وشرطان أساسيان وجب توفرهما في الخاتمة كي تنال مكانتها لدى المستمع والمتلقي للخطبة، إذ: " للخاتمة مستويين مستوى الأشياء أي مستوى الإعادة والتلخيص، ومستوى العواطف"³.

5.3. أنواع الخطبة:

لدينا عدة تقسيمات للخطبة، فقد قسمها أرسطو تقسيماً خاصاً، فسمي بعدها بالتقسيم القديم لأرسطو، كما قسمت تقسيماً حديثاً، وقسمت كذلك حسب السجع.

¹. حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 81. 82.

². أحمد محمد الحوفى: فن الخطابة، ص 137.

³. محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 139.

✓ **تقسيمها حسب أرسطو:** قسم أرسطو الخطابة ثلاثة أقسام، لأن العناصر المكونة لكل خطبة ثلاثة: الخطيب، الموضوع، والسامع، والغاية في الخطابة تتعلق بعنصرها الأخير أي السامع.

✓ **تقسيمها حسب التقسيم الحديث (الزمن):** تقسم الخطابة إلى سياسية وقضائية وحربية وحفلية ودينية، وما تخصصنا في هذا المقام هي الخطابة الدينية وهي التي تعتمد على إثارة العاطفة لتحبب إلى النفس الخير، وتتفرها من الشر، وتوجهها إلى تقوى الله وحبه وخشيته، وقلوب السامعين متفتحة للتأثر بالخطب الدينية، لأنها تصلهم بالخالق سبحانه وتعالى، وتعلو لهم عن الأرض إلى السماء، وتبصرهم بما ينفعهم في الدنيا والآخرة، فالخطيب يتكلم من قبل الله، والموضوع ديني روحي، وثمره الخطبة سعادة الفرد والمجتمع، وتمجيد الله، "ومما يعرف أيضاً من الخطابة والكتابة أنهما مختصتان بأمر الدين والسلطان، وعليهما مدار الدار"¹.

✓ **تقسيمها حسب السجع:** يمكن تقسيم الخطابة حسب العنصر الصوتي الإيقاعي إلى ثلاثة مستويات:

"أ: خطب كثيفة الصنعة (مسجوعة)

ب: خطب متوسطة الصنعة (بين السجع والازدواج)

ج: خطب مرسلة (قليلة الصنعة)"²

فالخطب كثيفة الصنعة هي تلك التي يطغى على ألفاظها السجع والصنعة اللفظية، أما الخطب متوسطة الصنعة فهي التي تتراوح بين السجع والأسلوب المسترسل، بينما الخطب المرسلة فهي الخطب المنظومة باللغة العادية، والتي لا يحتاج فيها الناظم لاختيار الألفاظ ذات الزخرف اللفظي وكذا الفواصل المسجوعة، بل يطلب فيها المعنى طلباً متخلياً عن زينة الألفاظ والتراكيب.

¹. أبي هلال العسكري: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ص111.

². محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص115.

5.4. العناصر اللغوية للخطبة:

تتوفر الخطبة على عنصرين لغويين ساهما في إبراز جمالية ووظيفية الخطبة، هما اللفظ والتركييب، فقد برزت وظيفة كل منهما من خلال إظهار المعنى، بينما تظهر الجمالية من خلال سجع الألفاظ وتساوي الفواصل في تركيب الخطب، وفيما يلي تفصيل لماهية كل منهما:

• اللفظ:

يطلق اللفظ اصطلاحاً على الكلمة أو الكلمات التي يستعملها المتكلم وما ينبغي له أن يتوفر فيها من شروط حتى توصف بالبلاغة، وهي شروط تتراوح بين الشعرية والتداولية، " فلا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجبة لبلوغ غرض المخاطب بها، فألفاظ النص تخضع للاختيار والانتقاء، ولا يتم نظمها كيفما اتفق، ولا يصيب الإهمال لا شكلها الشعري ولا مفعولها الجمالي"¹، فالعناية تكون في كل من الشكل والمضمون، وإن أصاب العيب أحدهما أو كلاهما كان مدعاة إلى نفور القارئ من النص أو الخطاب، فال: " النص البليغ هو الذي يستعمل الإمكانيات الشعرية للألفاظ ويمنحها دوراً ما في الإقناع، فالأمر يتعلق بشعرية وظيفية ذلك أن العناية باللفظ لا تنفصل عن استراتيجية الإقناع"²، ونقصد بالعناية باللفظ: " أن يلجأ المتكلم إلى الألفاظ التي تتوفر فيها شروط الفصاحة والبيان، وأن يستعين بالصور والمحسنات البديعية، وأن يعرف كيف يستعمل الإمكانيات الكامنة في الألفاظ بالشكل الذي يمنحها وزناً وأثراً في الإقناع، آخذاً بعين الاعتبار المقام والمخاطب ونوعية الخطاب، فلا يكفي إذن أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقال، بل يجب أن يقوله كما ينبغي"³

¹. ينظر: حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص149.

². المرجع نفسه، ص153.

³. المرجع نفسه، ص151.

أما عن وظائف اللفظ فهو يحوي وظيفتين، دلالية وتداولية، وهما يتمثلان في: " إظهار ما كان خفياً ومستوراً، والقدرة على إظهار المقصود بأبلغ لفظ"¹، أي تحقيق الإفهام بأحسن صورة ممكنة، حيث: " لا يقتضي النص المبين أن يكون حاملاً للمعاني فقط، بل يستلزم أن تكون معانيه مزخرفة مزينة بألفاظ قادرة على استمالة الأسماع والأذهان والنفوس"²

• التركيب:

رأينا فيما سبق دور اللفظ وفضله في الكلام إلا أن المزية الأهم تكمن في التركيب، ف: " الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة، وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروك وتونسك في موضع، ثم تراها بعينها تنقل عليك وتوحشك في موضع آخر"³، فالفضل إذن في التركيب الذي يخص الألفاظ، كونه يعني التأليف بين اللفظة والأخرى، " والألفاظ لا تعيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب"⁴، فاللفظة لو وحدها لا تكون خطاباً ذو مفهوم وغاية إلا إذا التقت بلفظة أخرى تجاوزها وتوانسها، وليكونوا جملة ذو صفات بلاغية حسنة، حيث إن: " الفصاحة صفات توجد في التأليف"⁵، تأليف الألفاظ بعضها ببعض، وهو ما يسمى كذلك بالنظم نظم الألفاظ على خاصية وميزة معينة، " فمن مراتب الكلام العالية التي لا يلحقه فيها شيء من الكلام هو النظم الذي به زنة الألفاظ وتمازج حسناتها"⁶، وتظهر هذه الزنة وذاك الحسن من خلال الجمال الصوتي الذي يسميه ابن سنان المناسبة بين الألفاظ في الصيغ.

¹. ينظر: حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص165. 166.

². المرجع نفسه، ص173.

³. أبي بكر عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: سعد كريم الفقي، دار اليقين، ط1، 2001، ص55

⁴. حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص208.

⁵. المرجع نفسه، ص158.

⁶. أبي هلال العسكري: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ص112.

ومن مظاهر المناسبة بين الألفاظ في الصيغ : " السجع والازدواج، ويعدّ السجع بأنه تماثل الحروف في مقاطع الفصول "1، ما يكسب الكلام رونقاً وجمالاً يستثير الأسماع ويحدث المتعة في النفوس ، حيث يكتسي المعنى حلّة جميلة تتشكل عن طريق تشابه أو تماثل الحروف في أجزاء الكلام، إضافة إلى تشابه الفواصل في أجزاء القول، وهذا ناهيك عن إيصال المعنى للمتلقي بكل وضوح، حيث إن كل عناصر الجمال مهمة إلا أن المعنى يبقى هو الجوهر الأساس في الكلام، فالكلام بدون معنى كالروح دون الجسد، ف: " إذا كان المعنى وسطاً، ورصف الكلام جيداً، كان أحسن موقعاً، وأطيب مستمعاً، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها اقتحمته العين إذا كان فائقاً ثميناً، وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكن في أماكنها "2

كما أن الألفاظ تترتب في الكلام على حسب ترتيب المعنى في النفس، و: " الاختصاص في الترتيب يقع في الألفاظ مرتباً على المعاني المرتبة في النفس المنتظمة فيها على قضية العقل "3، حيث تتخطى الألفاظ الشفاهة وهي في كامل نظامها وتسلسلها، وهذا النظام والتسلسل هو المسؤول عن تحقيق غاية المتكلم من خلال كلامه والمتمثلة في تحقيق الإفهام والوضوح وبالتالي التأثير والاستمالة.

5.5. خصائص الخطبة:

ذكرنا فيما سبق أن الخطاب عبارة عن كل تلفظ يستلزم متكلماً ومستمعاً، وهو تصغير لمصطلح الخطبة التي تختلف عنه من حيث بعض العناصر، فقلنا أن مصطلح الخطاب يختص في معظم الأحوال بالكلام اليومي التي يمتاز بصفات عدّة، فالكلام أي كلام له ميزات معينة وأحسنه ما كان واضحاً وسلساً وممتعاً للأسماع، ف: " الكلام أيديك الله، يحسن بسلاسته، وسهولته، ونصاعته، وتخير لفظه، وإصابة معناه، وجودة مطالعه، ولين مقاطعه، واستواء تقاسيمه، وتعادل أطرافه، فتجد المنظوم مثل

1. حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص158

2. أبي هلال العسكري: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ص129.

3. حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص208.

المنثور في سهولة مطلعته، وجودة مقطعه، وحسن رصفه وتأليفه، وكمال صوغه وتركيبه " ¹

أما الخطبة فهي بالإضافة إلى توفر العناصر المذكورة كونها تنشأ بواسطة الكلام، فإن ناظم الخطبة يحتاج إلى عقل مميز لجيد اللغة من رديئها، ولحسن الألفاظ والصيغ من قبيحها ولجودة الأساليب من عدمها، " وأنه لابد من مقارعة الأبطال، ومن الخطب الطوال، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة، وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج، وجهارة المنطق، وتكميل الحروف، وإقامة الوزن، وأن حاجة المنطق إلى الطلاوة والحلاوة كحاجته إلى الجلالة والفخامة، وأن ذلك من أكبر ما تستمال به القلوب، وتتنثني إليه الأعناق، وتزين به المعاني " ²، وذلك لأجل أن تلقى لدى الجمهور صدى وتأثيراً حسنين.

كما إن: " رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وزينتها الإفصاح، وبهاؤها تخير اللفظ، والمحبة مقرونة بقله الاستكراه " ³، كلها خصائص وجب توفرها في الخطبة وفي الخطيب لتحقيق هدفها المتمثل في التأثير في متلقيها.

5.6. الأسلوب في الخطبة:

لأسلوب دور فعال في بناء الخطبة الجيدة، فهو أساسها الذي لا تحيا بدونه، يقول [فرانسوا رينيه دوشاتوبريان Francois Rene de Chateaubriand 1768 . 1848]: " لا تحيا الكتابة بغير الأسلوب، ومن الباطل معارضة هذه الحقيقة، فإن الكتاب الجامع لأشئات الحكمة يولد ميتاً إذا أعوزه الأسلوب " ⁴، فأسلوب الخطبة مستمد من طبيعة هذا الفن الذي يجمع بين الإقناع والاستمالة، فهو أسلوب متمتج فيه الأدلة

¹. أبي هلال العسكري: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ص 49.

². أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص 28.

³. المرجع نفسه، ص 52.

⁴. أحمد محمد الحوفى: فن الخطابة، ص 147.

التي تكفل الإقناع بالإثارة التي تحقق الاستمالة، فلا بد أن يكون منوعاً جامعاً تقرير الحقائق وإثارة العواطف، يتجه إلى الفكر وإلى الوجدان لينفذ منها إلى العزيمة. كما وتعود أهمية الأسلوب في نظر أرسطو إلى أن عامة الناس يتأثرون بمشاعرهم أكثر مما يتأثرون بعقولهم، فهم في حاجة إلى وسائل الأسلوب أكثر من حاجتهم إلى الحجة، فلا يكفي أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقال، بل يجب أن يقوله كما ينبغي¹، وتجميل الأسلوب يكون حسب المقام والجمهور الذي إليه الخطاب، وحسب نوع الخطاب مكتوباً كان أو شفوياً، وعموماً فإن الخطابة العربية "نشأت في محيط شعري، بل ربما جاز القول بأنها أحد الأفلاك المنفصلة عن الشعر المشدودة إليه بجاذبية أسلوبية قوية"²

5.7. التأثير والاستمالة في الخطبة:

يمثل الإقناع والتأثير والاستمالة من العناصر التي تمثل الغاية التي يبتغيها كل خطيب من وراء إلقاء خطبته، فهم بمثابة الثمار التي يجنيها الخطيب جراء مجهوداته التي بذلها في تنقيح لغته وتصحيحها، حتى تكتمل لديه بالصورة الجميلة والمعدلة التي يرضاها لها ولنفسه.

والتأثير والاستمالة من العناصر التي يلمسها الخطيب في جمهوره، وتظهر من خلال تعابير وجوههم إن كان الخطاب ملقى عليهم شفاهياً، أو بالأفعال التي يقومون بها والتي تعبر عن تغييرهم لوجهات نظرهم السابقة باستبدالها بوجهات نظر جديدة، ونجد أرسطو يوظف "مصطلح <الباتوس> Pathos، وهو يعني أن القدرة على الإقناع تقتضي معرفة ما يمكن أن يحرك الذات التي تتوجه إليها بالخطاب، فمسألة الإقناع ليست مسألة عقلية خالصة"³

¹. ينظر: محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 97.

². المرجع نفسه، ص 100.

³. حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 202-203.

ذلك أن الجمهور يستمال عن طريق اللغة التي تحوي خطط واستراتيجيات خطابية تخاطب عاطفة المتلقي لا عقله فقط، فالأمور العقلانية وحدها ما كانت يوماً لتؤثر في العواطف والقلوب، بيد أن وضع الخطيب في الخطبة: أشبه ما يكون بوضع الشاعر، فالاستمالة فيها مقدمة على الحجة في الغالب، إذ يسعى الخطيب لمشاركة الآخرين ما يجده أو يتظاهر به، أو إشعارهم بمشاركته إياهم وتعاطفه معهم فيما ألم به¹، فحين يتوجه الخطيب بخطابه إلى الجمهور يحصل التأثير لكن بدرجات متفاوتة وهذا قد يكون راجعاً ربما إلى طبيعة الخطبة، وربما إلى نوعية المستمعين التي تختلف وتتباين نظرتهم للأمور والأفكار.

إذن لا نلمس عند الجمهور نفسه، نفس درجة التأثير في الخطب الملقاة عليهم، وهذا راجع - إن ركزنا على الخطبة - إلى طبيعة اللغة التي تحويها الخطبة، حيث إن لها ميزات وخصائص متنوعة يوظف الخطيب الحذق أحسنها وأجدرها لتبليغ رسالته وأفكاره بطريقة ذكية، حيث: " لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتهما"²، إذ يتأثر الجمهور بخطبة معينة دون أخرى كون بعض الخطب تخاطب العواطف أكثر من مخاطبتها العقل، وهذا ما يسمى بالاستمالة، حيث " يستمال الجمهور بإثارة المشاعر أكثر مما يستمال بالمنطق والدليل"³

فمعظم من يقوم بأفعال السوء وأذية الآخرين بالكلام الجارح مدرك ومقتنع، أو هو على علم بأن الفعل الذي يقوم به يعتبر أذية للغير، وقد يخلف عند بعضهم عقد ومشاكل نفسية، إلا أنه يقوم بها رغم علمه بعواقبها، فهو في عقله مقتنع بأنها من أفعال المنكر، وهنا يظهر دور الاستمالة والتي تقوم بتحريك عواطف الأشخاص بطريقة ذكية مخاطبة عواطفهم وكبرياءهم ودافعة إياهم للتخلي عن ذلك الفعل فعل الأذية والكف عنه حتى وإن كان ذلك بصفة مؤقتة، والأنجح ترسيخ الموقف لديه

¹ محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 67.

² أبي بكر عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 218.

³ أحمد محمد الحوفى: فن الخطابة، ص 56.

ودعوته من خلال اللغة لطلب الاعتذار وتصحيح الموقف تجاههم، وبالتالي يزداد المعني اقتناعاً أن الفعل الذي كان يقوم به يعدّ من المنكرات التي وجب التوبة والكف عنها بصفة نهائية.

ف: "الأسلوب الخطابي في حاجة إلى إثارة الشعور، لأن الوضوح وحده لا يكفي، ذلك أن الوضوح يكفل الإقناع، أما قوة الأسلوب فتكفل الاستمالة، وتوجيه السامعين إلى الهدف الذي يقصده الخطيب، وهذه القوة هي التي تمزج مشاعر السامعين بمشاعر الخطيب، لذلك قال [دلامير]: " إن الذي يكتفي بالإقناع دون التحميس متكلم لا بليغ، وقال [رفالور]: إن الأهواء والعواطف هي الخطيب في الجماهير"¹، وهكذا تبدو مسؤولية الخطيب في إثارة القوى الكامنة في داخل الإنسان، لتنتقل من عقالتها إلى جانب العقل الواعي، وصولاً إلى ما يرجوه من تأثير.

فالتأثير إذن من العناصر المهمة التي إن توفرت في الجمهور ضمن الخطيب نجاح خطبته، وإن انعدمت قلنا عن الخطبة إنها قد فشلت في استمالة الجمهور وفي تغيير معتقداتهم ووجهات نظرهم، ويكمن سر هذا التأثير في عنصر الحيلة: ف: " مصدر التأثير الذي يكون للكلام في السامع إنما هو الحيلة، ويخلو مفهوم الحيلة لدى النقاد القدامى من كل دلالة سلبية، فهو عندهم مظهر من مظاهر الحنق والمهارة، وأما من أمارات جودة النظر، وما الاحتيال إلا وسيلة لتحصيل المتكلم على مرغوبه"².

6. الجمالية والوظيفية في الخطاب:

نعني بالجمالية في الخطاب مجموعة العناصر اللغوية التي قامت بإحداث الجمال الفني في مجموع الخطب، وقد ارتكزت في الأساس على مجموعة من الفنون البلاغية التي أسست لشعرية الخطبة والتي توزعت في كل أجزائها، ويعني البحث في الوظيفية التركيز على الجانب التداولي في الخطبة، وذلك من حيث توصيلها لمجموعة رسائل من أجل إحداث التأثير في المتلقي، أي أن نبحت في الدور الذي تحتله الخطبة

¹. أحمد محمد الحوفى: فن الخطابة، ص171.

². عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص62.

بعناصرها البلاغية في إحداث التأثير في مستمعيها ومتلقيها، وأولى عناصرها الافتتاح، ثم اللفظ والفقرة، وأخيراً الاختتام.

❖ جمالية ووظيفية الافتتاح والاختتام:

من أهم ملامح الجمالية تلك التي نصادفها في بداية الخطبة، وهي عبارات لا يستغني عنها الخطيب، أهمها البسمة ثم الصلاة على رسول الله عليه الصلاة والسلام، ونفس الأمر بالنسبة للاختتام، حيث يستعمل الخطيب نهايات قصيرة تكون معظمها ذات طابع ديني " فمن أوصاف الخطابة أن تفتتح الخطبة بالتحميد والتمجيد، ولذلك كانوا يسمون كل خطبة لا يذكر الله عز وجل في أولها: البتراء"¹، حيث كانوا يلحون على الاستهلال الديني في خطبهم. ومن مسمياته كذلك، الاستهلال والابتداء، " وهو أن تبتدئ بفاتحة الكتاب الذي تكتبه بكلام مخترع يكون دالاً على كافة الكتاب"²، ومن وظائف الافتتاح والاختتام أنهما عنصران ليس من الممكن الاستغناء عنهما في الخطبة، فمن دونهما تفقد الخطبة أهم جزأها لتصير خطاباً يومياً أو كلاماً تلقائياً.

❖ جمالية ووظيفية اللفظ:

للفظ وظيفتان: الأولى جمالية والثانية وظيفية، إذ تظهر الجمالية من خلال اختيار الكلمة الحسنة والعذبة، أما بالنسبة للوظيفية التداولية فنقصد بها تحقيق التواصل الذي يتمثل في الإفهام، إلا أن من سمات اللفظ الجميل توفره على قدر من الجمال الصوتي والموسيقي والذي يتجسد عن طريق السجع، بحيث يعتبر السجع من إحدى أنواع جماليات الكتابة والإبلاغ، وهو يخص اللفظ بالدرجة الأولى " وخير السجع ما توازنت فيه الألفاظ والتزم فيه رصف الكلمة التي يوقف عليها في الكلمة الأخرى التي تطابقها في السجع"³، هذا ما يحدث في الكلمات وفواصل الفقرات والعبارات جمالاً إيقاعياً،

¹. محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 140.

². عبد الواحد حسن الشيخ: دراسات في البلاغة عند ضياء الدين بن الأثير، ص 236.

³. محمد بركات حمدي أبو علي: بلاغتنا اليوم بين الجمالية والوظيفية، دار وائل للنشر، ط1، عمان

الأردن، 2004، ص 40.

فيزيد من قوة وصلابة اللغة في تمكنها من إيصال أفكار المرسل أو الخطيب، كما إن: " اللفظ الفصيح هو الذي يتوفر على قدر من الجمال الصوتي، ويتحدد في تناغم أصوات اللفظ المفرد وانسجامها، واعتدالها، بالشكل الذي يؤثر في السامع، فالأمر يقتضي استثمار الإمكانيات الشعرية والجمالية للألفاظ من دون التضحية بوظائفها التداولية"¹

وقد تتوفر لغة الشعر على هذه العناصر أكثر من لغة النثر إلا أنه وفي فترة زمنية مضت انتشرت الصناعة والزخرفة اللفظية، فصارت لغة النثر أقرب منها إلى لغة الشعر، وهذه الإمكانيات الشعرية هي التي تضيي الجمال والمتعة على الخطبة، وتضمن كذلك إقناع المتلقي، ف: " النص البليغ هو الذي يستعمل الإمكانيات الشعرية للألفاظ ويمنحها دوراً ما في الإقناع، فالأمر يتعلق بشعرية وظيفية، ذلك أن العناية باللفظ لا تنفصل عن استراتيجية الإقناع"²، وهنا يكمن الدور الذي يلعبه السجع في الخطبة.

❖ جمالية ووظيفية الفقرات:

نجد من أهم القضايا التي شغلت البلاغيين العرب قضية النظم، وتعني تركيب ونظم وتأليف الألفاظ بعضها ببعض، كالعقد المرصع بالجواهر، وذلك لتكوّن وحدة متماسكة تسمى بالفقرة أو التركيب أو الجملة، حيث يحدث أن هذه الفقرة تضم مجموعة كلمات لها سماتها الخاصة، وبالتالي تنطبق هذه السمات على مكوناتها الجديدة وهي الفقرة، وقد ثبت أن جزءاً من جمالية التبليغ في الخطبة تكمن في قصر الفقرات، حيث: " تدل على قوة التمكن وإحكام الصنعة"³، كما يكون الجمال الإيقاعي فيه أكثر بروزاً وجمالاً نظراً لقلّة الألفاظ، في حين كلما طالت العبارة وكثرت الكلمات خفي ذلك الجمال، كما إن طول الفقرات يخفي سحر الصنعة ولا يظهره إلا بطول القراءة،

¹. حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص157.

². المرجع نفسه، ص153.

³. محمد بركات حمدي أبو علي: بلاغتنا اليوم بين الجمالية والوظيفية، ص42.

والإشكالية التي تفرض نفسها في هذا العنصر هي كيف يكون الاشتغال بشعرية اللفظ وجماليته من دون أن يعوق ذلك وظيفته التداولية؟

7. السياق:

1.7. مفهوم السياق:

للسياق دور كبير في تحديد نوعية الخطاب وآلياته، وكذا قصد المرسل، فما السياق؟ وما هي عناصره؟ وكيف يؤثر على استراتيجية الخطاب؟

يمثل السياق: " مجموعة الظروف التي تحفّ حدوث فعل التلفظ بموقف الكلام"¹، بيد أنه قد يلتبس مصطلح السياق بمصطلح المقام، فقد شاع المقام عند العرب في الدراسات البلاغية، في حين استعمل المحدثون الغربيون لفظ السياق، فاللفظتين تختلفان نوعاً ما، بحيث " فهم البلاغيون المقام أو مقتضى الحال فهماً سكونياً قالبياً نمطياً مجرداً، ثم قالوا لكل مقام مقال، فهذه المقامات نماذج مجردة، وأطر عامة، وأحوال ساكنة"²، فالذي أقصده بالمقام ليس إطاراً ولا قالباً وإنما هو: " جملة الموقف الاجتماعي الذي يعتبر المتكلم جزءاً منه كما يعتبر السامع والكلام نفسه، وغير ذلك مما له اتصال بالتكلم"³، أي أنه يمثل مجموعة الظروف المتنوعة التي تحيط بالفرد، والتي تشمل ميادين الحياة المختلفة، حيث يكتسب الفرد لغته، ويتعرف على معتقداته، ويكون شخصيته وسلوكه مما يحيط به من ظروف، وتتحدد طبيعة ونوعية الخطاب أو الخطبة التي تلقى على الجمهور برجع المرسل إلى العناصر التي ذكرناها، ف: " ظروف الخطاب غير اللغوية تقوم بدور هام في تحديد خصائص الخطاب الداخلية، ذلك لأن الخطاب يشغل لتحقيق غاياته عناصر لغوية شعرية مثل اللفظ، الصوت، التركيب، والصورة، في علاقة بعناصر مقامية تداولية كالتكلم والمخاطب والمقام"⁴

1. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 41.

2. المرجع نفسه والصفحة نفسها.

3. المرجع نفسه والصفحة نفسها.

4. حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 31.

وكلما عاد المرسل إلى هذه الظروف عند إنشاء خطابه، ضمن لخطابه النجاح، ف: "مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال وعلى لا انطباقه"¹، لأنه وبهذه العودة يفهم المتلقي ويدرك طريقة تفكيره، وكذا نقاط ضعفه، والأمور التي تؤثر فيه، وإذا كان من العامة أو الخاصة، حيث: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً"²، ونجد بشر بن المعتمر البغدادي يقول: "كن في ثلاث منازل، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيماً عذباً وفخماً سهلاً، ويكون معنك ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت، والمعنى ليس يُشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال"³

فعلى المخاطب أن يخاطب الحكام باللغة الرسمية، فيختار أعذب الألفاظ وأفخم العبارات لتعكس مكانتهم المرموقة في المجتمع، ويخاطب الشعراء بلغة المحسنات والمجاز والانزياح، وذلك لتمكن هذه الأمور من نفوسهم وسيطرتها على ألسنتهم، ويخاطب المراهقين بلغة العاطفة والمشاعر لكونهم حساسون ومتقلبو المزاج، ويخاطب الأطفال باللغة البسيطة، فيختار أوضح الألفاظ وأكثرها تداولاً عندهم، وعند من هم أقرب سنا منهم، وذلك ليسهل عليهم فهمها، ويخاطب المسنين باللغة الساذجة وذلك بالحديث عن العادات القديمة التي كانت تسود مجتمعاتهم، وكذا بإيراد الأمثال والحكم القديمة في ثنايا الحديث، ويخاطب العساكر والمنخرطين في سلك الأمن، بلغة صارمة تتمثل في إعلامهم بالضوابط التي يجب عليهم التقيد بها، وكذا إعلامهم بمجموع الأوامر التي عليهم تطبيقها، "وإذا كان موضوع الكلام على الأفهام، فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس"⁴

¹. المرجع نفسه، ص322.

². أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص128.

³. المرجع نفسه، ص127.

⁴. أبي هلال العسكري: كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، ص29.

فكل طبقة من طبقات المجتمع تتكون من بنى محددة، كالبساطة والفخامة والسهولة والصرامة، وعلى المنشئ للخطاب أن ينظر لهذه البنى بعين الاعتبار، فيختار للغته بنى تتشابه مع بنى تلك الطبقات حين مخاطبته إياهم، وذلك كي يضمن للخطاب نجاحه بحسن تأثيره على متلقيه.

2.7. عناصر السياق:

يقتضي السياق عناصر مختلفة تنقسم في مجملها إلى عنصرين مهمين، عنصر ذاتي وعنصر موضوعي، تتطوي تحت العنصر الذاتي: " معتقدات المتكلم ومقاصده واهتماماته ورغباته "1، فكل متكلم له معتقدات يتبناها، كذلك فإن المتكلم حين يتكلم يقصد شيئاً، فهو لا يتكلم عبثاً، إنما يضع صوب عينيه مقصداً معيناً يكون سبباً في إنتاج خطابه، كما أن لكل متكلم اهتمامات تختلف عن اهتمامات باقي المتكلمين، إضافة إلى الرغبات التي تحدد نوع الخطاب والوجهة المراد الوصول إليها، كلها عناصر ذاتية تدخل في تحديد السياق.

أما العنصر الموضوعي فتتطوي تحته: " الوقائع الخارجية التي تم فيها القول، وكذا العنصر الذاتي "2، وتعني الوقائع الخارجية ظروف المتكلم الخارجية، أي الظروف الزمانية والمكانية، والتي تحيط بالمتكلم سواء أثناء تأديته للخطاب أو في فترة سابقة عنه (ذهنياً)، ثم العنصر الذاتي، والذي نعني به المعرفة المشتركة بين المتخاطبين، وكذا العوامل الحياتية اجتماعية وثقافية، هذه كذلك عوامل تدخل في تحديد السياق، ف: " أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة "3، حيث يحيل هذا الكلام إلى دور السياق في عملية الإقناع، فهو الذي يحدد نوع الخطاب وطبيعة اللغة التي يخاطب بها المتكلم مستمعه.

1. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 44. 45.

2. المرجع نفسه، ص 45.

3. المرجع نفسه، ص 448.

7. 2. 1. المرسل:

وهو الذات المحورية في إنتاج الخطاب، لأنه هو الذي يتلفظ به من أجل التعبير عن مقاصد معينة، ويجسد ذاته من خلال بناء خطابه، باعتماده استراتيجية خطابية تمتد من مرحلة تحديد السياق ذهنياً، والاستعداد له، بتوظيف كفاءته للنجاح في نقل أفكاره، فالمرسل هو الذي يوظف اللغة في مستوياتها المتميزة بتفعيلها في نسيج خطابه، ذلك التفعيل الذي ينوع طاقاتها الكامنة و: "الخطاب باعتباره مقول الكاتب أو أقاويله بتعبير الفلاسفة العرب القدماء هو بناء من الأفكار"¹

فمن أجل أن ينتج المرسل خطاباً، أو الخطيب خطبة لابد له من كفايات لغوية وأدبية وثقافية تتصل بعلوم اللغة والأدب والتاريخ والاجتماع والدين، وبكل ما يسهم في تقوية الإنتاج وتدعيمه، يقول الخفاجي عن مؤلف الكلام أنه: " لو عرف حقيقة كل علم، واطلع على كل صناعة، لأثر ذلك في تأليفه ومعانيه وألفاظه، لأنه يدفع إلى أشياء يصفها، فإذا خبر كل شيء وتحققه، كان وصفه له أسهل، ونعته أمكن"²

كما إن من مقومات الخطاب الإقناعي عنصر مخاطبة العقل، وإقناعه بمجموعة أفكار، ف: "الخطاب الإقناعي يقوم على مبادئ أساس، أولها أن الإقناع يعني التوجه إلى العقل، والعمل من أجل إفهام المخاطب، وثانيها أن العقل ليس شيئاً مطلقاً، بل هو محدد بمحددات لغوية وذهنية تتفاوت من مخاطب إلى آخر، ومن طبقة إلى أخرى، وهذا التفاوت هو الذي ينبغي للمتكلم أن يأخذه بعين الاعتبار"³

7. 2. 2. المرسل إليه:

المرسل إليه هو الطرف الآخر الذي يوجه إليه المرسل خطابه عمداً، فعند البلاغيين، بناء الخطاب وتداوله مرهون إلى حد كبير بمعرفة حاله، أو بافتراض ذلك الحال، والافتراض المسبق ركن ركين في النظام البلاغي العربي، إذ العناية في المقام الأول موجهة إلى المرسل إليه.

¹ عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص46.

² حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص46.

³ المرجع نفسه، ص300.

وقد انتقل هذا المخاطب إلى متخيل المتكلم ليكون من العناصر المؤسسة لخطابه، فالخطاب يقتضي أن يكون المتكلم قد كَوّن فكرة مفترضة، وصورة متخيلة، عن مخاطبه، قبل أن يوجه له الخطاب بصفة واقعية وفعلية، فالمرسل إليه حاضر في ذهن المرسل عند إنتاج الخطاب، سواء أكان حضوراً عينياً أو استحضاراً ذهنياً، وهذا الاستحضار للمرسل إليه، هو ما يسهم في حركية الخطاب بل يسهم في قدرة المرسل التتويعية، ويمنحه أفقاً لممارسة اختيار استراتيجية خطابه، أي أن المسألة التي ينبغي للمتكلم أن يعالجها مسبقاً قبل إنتاج الخطاب هي: من يكون المخاطب الذي يُتَوَجَّه إليه بالخطاب؟

وليس فقط من يكون مخاطبه، إنما ونوعيته كذلك، أي هويته السوسيوثقافية، حيث قسّم المتخاطبين إلى نوعين العامة أو العوام، والخاصة أو الخواص، وذلك لأن الخطاب يكون على قدر المستمعين، و: " المتكلم البليغ هو الذي يكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة "¹، ذلك أن طبقة المخاطبين في تغير، وتحكمها معايير مختلفة وظروف متنوعة، لذلك وجب على من يوجه الخطاب أن يحسّن خطابه قدر المستطاع، وأن يضع في الحسبان نوع متلقيه ودرجته الثقافية والأدبية، وأن: " يستحضر المتكلم من داخل خطابه خصائص وعناصر عديدة ومختلفة تخص مخاطبه، وهي عناصر متغيرة يسميها البلاغي حال المخاطب "²، ويمكن تصنيف حال المخاطب إلى:

• "مراعاة الحال السوسيوثقافية:

معناه أن يراعي المخاطب حالة مخاطبه اللغوية، فيخاطبه بالألفاظ المحببة إليه والتي يفهمها ويتداولها مع أقرانه من نفس الطبقة الاجتماعية، وهذا كي يستطيع إقناعه، لأن سر إقناع الآخر أن تفهمه لدرجة أنك تستطيع بتفكيرك وكتاباتك أن تصير مثله، وبالتالي تتعرف على النقاط التي تتغلب بها عليه، فيتأثر بكلامك ويقتنع بأقوالك،

¹. حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 292.

². المرجع نفسه، ص 295.

يقول الجاحظ في البيان والتبيين: " وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات "1، فلكل طبقة لغتها التي تحدد هويتها السوسيو لغوية.

• مراعاة الحال الذهني والثقافي:

معناه أن يراعي المخاطب حالة مخاطبه العقلية والثقافية، فيدرك الأمور التي باستطاعة مخاطبه فهمها، والأمور التي تستعصي على ذهنه، وذلك حسب الثقافة التي تسود محيطه والتي تشبع بها، بحيث إن: " مدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على مقدار منازلهم"2، لأنه لا يحصل الإقناع إذا لم يتوفر عنصر الإفهام لدى متلقي الخطاب، وذلك أن كل طبقة من الناس تخاطب بالخطاب الذي تفهمه، لأن مدار الأمر، كما قال الجاحظ، على البيان والتبيين، وعلى الإفهام والتفهم.

7.2.3. العناصر المشتركة:

نقصد بالعناصر المشتركة، المعرفة المشتركة والعلاقة التي تربط المرسل بالمرسل إليه، وغير ذلك من العناصر المؤثرة، فتغدو العلاقة بين طرفي الخطاب من أبرز العناصر السياقية التي تؤثر في تحديد استراتيجية الخطاب المناسبة واختيارها، وهناك حقيقة تقول إن أغلب الناس الذين ينتمون إلى المجتمع اللغوي ذاته يمتلكون معرفة العالم بشكل متشابه كما أنهم يشتركون في كثير من المعارف غير اللغوية، والتي لها دور في إنجاح عملية التواصل وتحقيق هدف المرسل، حيث تؤثر هذه المعرفة المشتركة على إنشاء الخطاب، وكذا على المتلقي في طريقة تلقيه وفهمه لهذا للخطاب، بحيث: " لا تختلف الخطابات في نوع الفعل اللغوي الإنجازي، أو في الوحدات المعجمية، ولكن من الأفضل أن يعزى هذا الاختلاف في المعنى إلى المعرفة المشتركة حول أهداف كل من طرفي الخطاب أو المحادثة"3.

1. حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 299.

2. المرجع نفسه والصفحة نفسها.

3. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 463.

كما تعد المعرفة المشتركة بمثابة الأرضية التي يعتمد عليها طرفا الخطاب في إنجاز التواصل، إذ ينطلق المرسل من عناصرها السياقية في إنتاج خطابه كما يعتمد عليها المرسل إليه في تأويله للخطاب، وذلك حتى يتمكن كلا طرفي التواصل من الإفهام والفهم، أو الإقناع والاقناع، ويمكن أن نقسم هذه المعرفة إلى: " معرفة عامة بالعالم: ومنها معرفة كيف يتصل الناس بعضهم ببعض، وكيف يفكرون، وكيف يستطيعون أن ينجزوا أفعالهم اللغوية داخل المجتمع مع إقامة الاعتبار لأطره العامة: الدينية، الثقافية، الاقتصادية، والاجتماعية"¹

وفيها يدرك المرسل طريقة تفكير المرسل إليه وكيف ينظر للأشياء المحيطة به، وكيف يتعامل مع الظروف المتنوعة التي تحف به، كل هذه المعارف مجتمعة هي التي توجه المرسل لإنتاج الخطاب، مدركاً أن المرسل إليه سيؤول خطابه تأويلاً صحيحاً، وسيفهم قصده دون عناء

وثاني أقسام المعرفة هي: " المعرفة بنظام اللغة في جميع مستوياتها، بما في ذلك دلالاتها، وعلاقتها بثقافتها"²، وتعني أن يكون المرسل على علم بالمستوى اللغوي الذي ينتمي إليه المرسل إليه، بحيث يخاطبه بالألفاظ التي يفهمها والتي تنتمي مدلولاتها للمحيط الثقافي الذي ينتمي إليه، أو أن يكون للمرسل والمرسل إليه مقدار متقارب من المعرفة اللغوية ذاتها.

8. تأثير السياق على استراتيجية الخطاب:

يؤثر السياق الذي يحيط بالمرسل إليه على الاستراتيجية التي يوظفها المرسل في الخطاب الذي يوجهه إليه، بحيث يتحدد نوع الخطاب واستراتيجيته استناداً إلى نوع السياق، فكلما تنوع السياق واختلف، تنوع الخطاب واكتسب طبيعة تتناسب مع السياق الجديد، كما أن الخطاب يتضمن مجموعة استراتيجيات، تتغير هي كذلك بتغير هذا السياق، بحيث تتبعه في كل صورته، فالاستراتيجية التي لا تعود إلى السياق هي استراتيجية غير ناجحة، كأن يخاطب المرسل الأطفال بلغة الحكام، ويوظف فوق ذلك

¹. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 49.

². المرجع نفسه والصفحة نفسها.

استراتيجيات لا تتناسب درجتهم العقلية والمعرفية، وهذا غير لائق ولا يناسب العملية الحجاجية، كما أنه لا يحقق الغاية الأساسية من الخطاب.

يمكننا من خلال هذا أن نقول إن استراتيجية الخطاب تكتسب خصوصيتها من خلال السياق الذي يجري فيه الخطاب، بحيث يعمد المرسل إلى أن ينتج خطابه وفقاً لاستراتيجية معينة، ذلك أن السياق هو الذي يوجه الحجاج صوب وجهة دون أخرى، إذ قد يتباين فعل الحجاج ونوعه في حجج الخطاب الواحد بالرغم من وحدته ظاهراً، وهذا عائد إلى ما تستدعيه العناصر السياقية بكل تنوعاتها واختلافاتها، ويتجسد هذا السياق بواسطة استراتيجيات تتعدد بتعدد الظروف المحيطة بها، وتنقسم إلى استراتيجيات لغوية وتخص الخطاب الملقى أو المكتوب، واستراتيجيات غير لغوية، وتخص ميادين الحياة العامة.

الفصل الأول: أجزاء القول في الخطب " الافتتاح،

العرض، والاختتام "

1. الافتتاح في الخطب.
2. المتن في الخطب.
3. الاختتام في الخطب.

نحط الرحال في هذا الفصل الذي وسمناه ب" أجزاء القول في خطب ابن الجوزي الإفتتاح، العرض، والإختتام " ، في مجموع الخطب الثلاثين فنسلط الضوء على أجزاء القول الثلاثة وهي الافتتاح والعرض والاختتام، فنحوض في افتتاح الكتاب وكذا افتتاحات الخطب الثلاثين، كما سنفصل في الافتتاح نفسه كونه قد حوى مقدمة وعرض وخاتمة، كما سنقوم بالبحث في صيغه الافتتاحية وكذا طبيعته ومعانيه.

ثم ننتقل إلى ثاني أجزاء القول وهو العرض، فنقوم بالتفصيل في موضوعات الخطب الثلاثين كونها قد تمركزت في هذا الجزء من القول، فنحدد الموضوع الرئيسي الذي دارت حوله مجموع الخطب من خلال قراءة الخطب واستخراج العامل المشترك بينها، كما سنقوم بتحديد الموضوعات الثانوية التي تصب كلها في الموضوع الرئيسي، فقد أودع ابن الجوزي خطبه مجموعة معانٍ ومضامين خدمت الموضوع العام، ثم سننتقل إلى ثالث أجزاء القول وهو الاختتام، فنفصل في بدايته ووسطه ونهايته.

1- افتتاح الخطب:

1-1- مفهوم الإفتتاح:

توافر لهذا المصطلح في التراث العربي صيغ مختلفة منها: الإفتتاح، الاستهلال، المبادئ، الفاتحة النصية، الإفتتاحية، المستهل، المطلع، والمقدمة، وقد ورد في قاموس السرديات تحت اسم الاستهلال Prologue وهو: " جزء يسبق وإن كان لا يشمل العرض exposition"¹، إلا أنه يمهّد له بواسطة مقدمة تشتمل على مجموعة من الألفاظ والتراكيب المختارة من قبل المؤلف بعناية شديدة، لأجل أن تنال إعجاب الجمهور والقراء كونها أول ما يقابل القارئ أو السامع من الكلام.

وقد ورد في كتاب الخطابة لأرسطوطاليس أن تلامذة ثيودورس قد سموا الاستهلال بالقص التمهيدي باعتبار موقعه، كونه يمهّد لمحتوى الكتاب عن طريق القص أو

¹. جيرالد برنس: قاموس السرديات، تر: السيّد إمام، ميريت للنشر والمعلومات، ط1، القاهرة، 2003،

النظم الذي يقع في الألفاظ والعبارات، كما أنه: " أهم ما يقرع الأذهان المتلقية "1، باعتبار موقعه في الكتاب، وكذا كونه يعبر عن مضمون كل العمل الأدبي، أي أنه يحقق وظيفة نفعية من خلال التعريف بالكتاب والإشارة إلى ما يحمله من أفكار.

كما ووجب أن يتوفر الاستهلال على مقومات إبداعية وجمالية، بحيث: " لا يخلو الإبداع في المبادئ من أن يكون راجعاً إلى ما يقع في الألفاظ من حسن مادة، واستواء نسج، ولطف انتقال، وتشاكل اقتران، وإيجاز عبارة، وما جرى مجرى ذلك مما يستحسن في الألفاظ، وإلى ما يرجع للمعاني من حسن محاكاة، وما جرى مجرى ذلك مما يستحسن في المعاني، أو إلى ما يرجع إلى النظم من إحكام بنية، وإبداع صيغة ووضع، وما جرى مجرى ذلك مما يحسن في النظم، أو إلى ما يرجع إلى الأسلوب من حسن منزع، ولطيف منحى ومذهب، وما جرى مجرى ذلك مما يستحسن في الأساليب "2، كلها عناصر مجتمعة تبني لمقدمة جيدة تتوفر على عناصر جمالية وتحقق وظيفتها المتمثلة في التمهيد للموضوع المتحدث عنه في أبهى صورة وأحسن معرضاً.

ويعتبر الاستهلال أو الافتتاح: " ركن ركين للبلاغة والكتابة، فإنه لا بد أن يكون مطلع الكتاب عليه جدّة ورشاقة تدلان على ما في الكتاب، ولذا فإنه لا يكون الكاتب كاتباً إلا إذا أجاد المطلع والمقطع، وأن يكون المطلع مبنياً على مقصد الكتاب "3، بحيث يظهر فيه فحوى الكتاب، والغاية التي أتى من أجلها هذا الكتاب بصورة ملخصة ومختصرة، وغالباً ما تبتدئ المقدمات: " بفاتحة الكتاب الذي تكتبه بكلام مخترع يكون دالاً على كافة الكتاب "4

1. محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1 لبنان، 2008، ص114.

2. ينظر: أبي الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، ص309.

3. عبد الواحد حسن الشيخ: دراسات في البلاغة عند ضياء الدين بن الأثير، ص236.

4. المرجع نفسه والصفحة نفسها.

وتتكون فاتحة الكتاب عادة بالحمدلة أي حمد الله على نعمه الجمّة، ثم الصلاة والسلام على أشرف المرسلين، بعدها يشرع الكاتب في التحدث عن محتوى الكتاب في بضع أسطر، منسوجة أحسن نسج، وفي هذا السياق يعرف ابن الأثير الاستهلال بقوله: " أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالاً على المعنى المقصود من ذلك الكلام"¹، أي أن يختزل الكتاب اختزالاً عن طريق التعبير عن معظم العناصر المهمة التي أتى به الكتاب، وإن اقتضى الأمر انتقاء الأهم من تلك العناصر المهمة، وذلك كي تعبر عن فحوى الكتاب والمقصد الذي جاء من أجله، ف: " ملاك الأمر في جميع ذلك أن يكون المفتتح مناسباً لمقصد المتكلم من جميع جهاته، فإن طريقة البلاغة فيها أن تفتتح بما يناسبها ويشبهها من القول من حيث ذكر "².

فمقدمة كتاب الأدب - على سبيل المثال - يجب أن تكون فيها من الألفاظ والعبارات والأساليب ما تحوي جمالية أدبية تشبه محتوى الكتاب وتتناسب مع طبيعته الأدبية، والأمر يختلف مع كتاب الطب والفيزياء والعلوم الرياضيات وغيرها، فلكل خصائص وصفات تميزه عن غيره من العلوم، وكل مقدمة تحمل خصائص الكتاب الذي تعرّف به، فالمقدمة هي المسؤولة الرئيسية عن توضيح طبيعة الكلام وأقسامه وأوصافه، وعلى الكاتب أن يراعي في الاستهلال الموضوع الذي يكتب فيه، بحكم أن لكل مقام مقال، كما ووجب أن يكون الاستهلال مناسباً للموضوع الذي يكتب فيه الكاتب فلكل سياقه وأطره.

كما يوضح الافتتاح وجه العلاقة بين الكلام ومتلقيه، فلا يستهل قصص الأطفال - على سبيل المثال - بمقدمة فوق مستواهم، ولا أن يستهل كتاب الفلسفة بمقدمة دون مستوى القارئ الذي يهتم بالفلسفة، أي يجب على الاستهلال أن يكون في مستوى القارئ، وعلى الكاتب أن يحسن اختيار مادته اللغوية التي تخص مقدمة كتابه، كونها

¹. عبد الواحد حسن الشيخ: دراسات في البلاغة عند ضياء الدين بن الأثير، ص236.

². أبي الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلاغة وسراج الأدباء، ص310.

تمثل: " الطليعة الدالة على ما بعدها المنزلة من القصيدة منزلة الوجه والغرة، تزيد النفس بحسنها ابتهاجاً ونشاطاً لتلقي ما بعدها "¹

كما ووجب أن يتوفر الاستهلال الجيد ناهيك عن حسن اختيار الألفاظ وجمال اللغة وحضور الأسلوب، على أدوات في اللغة نفسها، تخلق في القارئ انفعالا وتشويقاً يدعوه لأن يكمل القراءة ويسبر أغوارها، بحيث: " مما تحسن به المبادئ أن يصدر الكلام بما يكون فيه تنبيه وإيقاظ لنفس السامع أو أن يشرب ما يؤثر فيها انفعالا ويثير لها حالا من تعجيب أو تهويل أو تشويق "²

فالاستهلال إذن هو: " بدء الكلام، وينظره في الشعر: المطلع، وفي فن العزف على الناي الافتتاحية، فتلك كلها بدايات كأنها تفتح السبيل لما يتلو، والافتتاحية شبيهة بالاستهلال في النوع البرهاني، ذلك أن عازف الناي إذا عزف لحناً جميلاً وضعوه في افتتاح المعزوفة كأنه لحنها، وينبغي في الأقوال البرهانية أن يجرى التأليف هكذا: نبدأ بالتعريف عما نقصد إليه ثم نسترسل، وكل الخطباء يلتزمون هذه القاعدة "³

وقد قال بعض الكتاب: " أحسنوا معاشر الكتاب الابتدءات فإنهنّ دلائل البيان، وإذا كان الابتدء حسناً بديعاً ومليحاً رشيقاً كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [كلّ كلام لم يبدأ فيه بحمد الله تعالى فهو أبتّر] "⁴، وقال شبيب بن شيبه: " الناس موكلون بتفضيل جودة الابتدء "⁵

استهل ابن الجوزي كتابه " عجيب الخطب " بمقدمة في غاية الأهمية، كونها مهّدت لمجموع الخطب التي وردت في الكتاب، عن طريق ذكر السياق العام الذي حفّ بها، وكذا الغاية التي سعى لها ابن الجوزي من وراء نظمه لخطبه، وكذا كون كل خطبة من هذه الخطب حوت استهلال أو تقديم ورد في أولى عتباتها، إذن دراسة الاستهلال

1. أبي الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص309.

2. المرجع نفسه، ص310.

3. أرسطوطاليس: الخطابة، ص130.

4. ينظر: أبي هلال العسكري: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ص337. 342.

5. أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص106.

تتفرع إلى قسمين، قسم يدرس استهلال أو مقدمة الكتاب، وقسم آخر يدرس استهلال أو مقدمة كل خطبة على حده، وهما الوجهين الخاصين بالاستهلال، وسنعرج فيما يلي على الوجه الأول للاستهلال وهو استهلال الكتاب.

1.1.1. إفتتاح كتاب < عجيب الخطب >:

تركب إفتتاح أو استهلال كتاب < عجيب الخطب > عند ابن الجوزي من ثلاثة عناصر: مقدمة أو فاتحة، عرض، وخاتمة، فمقدمة لأنها تتقدم كل كلام، وفاتحة لأنها تفتحه، وفي لسان العرب: " الفتح نقيض الإغلاق، فتحه يفتحه فتحاً، وافتتحه وفتّحه فانفتح وتفتّح، وفاتحة الشيء: أوله، وإفتتاح الصلاة: التكبير الأولى، وفواتح القرآن: أوائل السور، الواحدة فاتحة، وأم الكتاب يقال لها فاتحة القرآن¹، وسميت بفاتحة الكتاب لأنها تفتحه، أي تأتي في أولى عتباته، شأن فاتحة القرآن الكريم، فهي السورة الأولى في الكتاب، وكأنها تفتح الباب لبقية السور.

وثاني العناصر التي تركب منها إفتتاح الكتاب عنصر العرض، وفيه يقدم الكاتب للموضوع متحدثاً وملخصاً أهم ما جاء فيه، أي يقوم بعرض مبسط لأهم النقاط التي تحدث وتطرق إليها الكتاب.

وثالث العناصر التي تركب منها إفتتاح الكتاب عنصر الخاتمة، وتحتوي عادة دعاء أو حكمة أو كلاماً مأثوراً، وسميت خاتمة لأنها تختم للموضوع أو هي كالختم الذي يأتي دائماً في الأخير، وقد اتخذ استهلال ابن الجوزي شكل وصفة المقال الأدبي ولكن أصغر من حيث الحجم، ولنا في هذه العناصر الثلاثة التي تركب منها الاستهلال حديث فيما يلي:

1.1.1. فاتحة استهلال كتاب < عجيب الخطب >:

مثلاً للكتاب فاتحة فإن للاستهلال كذلك عند ابن الجوزي فاتحة، وقد إفتتح ابن الجوزي استهلاله بالحمدلة، وهذه البداية شائعة لدى كل الكتاب، وهي تسمى بفاتحة

¹. ابن منظور: لسان العرب، ص3337. 3339.

الكتاب، لما لها من علاقة بفاتحة القرآن الكريم، بحيث تستعير فاتحة الكتاب من سورة الفاتحة تركيبها الأول والمتمثل في الجملة الإسمية < الحمد لله >، والذي يطلق عليها اسم الحمدلة، وهي تتوفر تقريباً في معظم بدايات الكتب، لما لها من شأن ديني عظيم.

فإذا ما عدنا إلى البدايات الأولى لتأليف الكتاب، وجدنا أن هذه المقدمات آخر ما ينظم من الكلام، وفيها يعمد الكاتب إلى حمد الله تعالى على المقام الذي منحه الله له، ثم يقوم بالتقديم للكتاب في كلام واضح وبسيط يعبر فيه عما جاء في الكتاب، إلا أن هذه المقدمات ومن شروط المنهجية أن تكون أول ما يدون، ذلك أن القارئ وقبل اطلاعه على الكتاب وإلى التفصيل في محتواه، في حاجة ماسة إلى شرب رشفة من هذا النبع الكبير، لا ليرتوي إنما ليزوق حلاوته وصفاوته، كي تزيده شوقاً وتقرباً إليه، فيتصفحه، ويمعن ناظره فيه، فتبهره ألفاظه، ويفهم معانيه، ويتعظ بمواعظه.

وكل الفضل في البدايات، لأنها أول ما يقرأ وأول ما يسمع، لذا وجب تحسينها وتجميلها وتمييقها، كي تنال إعجاب واستحسان القارئ أو المستمع، وأحسن أوجه هذا الجمال ما كان ذا طابع ديني تعبدية، عودة منا ومن الكاتب إلى أصولنا ومعتقداتنا وشريعتنا الدينية، وقد تجسد هذا الطابع الديني عند ابن الجوزي في الحمدلة، وفضلها كبير، بدليل أن الله تعالى ذكرها في أول سورة في القرآن الكريم قال تعالى: " الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " ¹

ومن المعاني التي حملتها في كتاب عجيب الخطب: أن يعترف ابن الجوزي من خلالها بنعمة الله تعالى وبفضله عليه وإحسانه إليه، كما يعترف بالعلم الذي رزقه إياه وكذا سهولة الوصول إليه، وإلى ما حققه من مرتبة علمية ومن إنجاز لكتاب حوى ثلاثين خطبة في الوعظ الإسلامي، كلها طيبات لحمد الله، وسواها ما ذكر في سورة الإسراء قال تعالى: " وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الدُّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا " ²، وقال تعالى أيضاً في سورة البقرة: " فَادْكُرُونِي

¹. سورة الفاتحة: الآية: 1.

². سورة الإسراء: الآية: 111.

أذْكُرْكُمْ واشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونُ¹، كما ورد في آخر آية في سورة النمل قال تعالى: " وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ"²، كل هذه الآيات وغيرها تحت على حمد الله بالقلب واللسان، فحمد الله واجب على كل إنسان.

ولإدراك ابن الجوزي لهذا الواجب وذاك الفضل ابتداءً بها استهلال كتابه <عجيب الخطب>، حيث نجده يقول: " الحمد لله أهل الحمد والثناء، وأشهد أن لا إله إلا الله رب الأرض والسماء، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله خاتم الأنبياء، صلى الله عليه وعلى آله صلوات دائمة البقاء، وعلى أصحابه السادة النجباء، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين الأتقياء، وشرف وكرم"³، فابن الجوزي يبدأ فاتحة استهلاله بحمد الله ثم يشهد أن لا إله إلا هو، كما يشهد أن محمداً عبده ورسوله، ثم يسلم عليه صلى الله عليه وسلم، وعلى أصحابه وأزواجه.

ففاتحة الاستهلال إذن عند ابن الجوزي قد تركبت من ثلاثة عناصر أساسية تعتبر كالطابع عند معظم الكتاب، تمثل العنصر الأول في الحمدلة، ثاني العناصر الشهادة أو التشهد، وثالث العناصر، وآخرها، تمثل في الصلاة على النبي وعلى أصحابه وأزواجه، وهي عناصر ثلاثة بنت لفاتحة الاستهلال عند ابن الجوزي، والتي تميزت بطابع ديني محظ، ذلك أن الخطب تنتمي إلى الوعظ الإسلامي فاخترت من التحميدات ما يكون مناسباً لمعاني الخطب.

1.1.2- عرض استهلال كتاب <عجيب الخطب>:

بعد أن قام ابن الجوزي باستهلال كتابه بالحمدلة والتشهد والصلاة على النبي وآله وصحبه، نجده يستعمل العبارة المعتادة عند جميع الكتاب < أما بعد >، لينتقل مباشرة إلى تقديم الكتاب في عرض موجز عبّر عن الفكرة الجوهرية التي دار حولها موضوع الكتاب، والتي كانت عبارة عن مفاوضة أجراها ابن الجوزي رفقة زميله الذي يظهر من

¹. سورة البقرة: الآية: 152.

². سورة النمل: الآية: 93.

³. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص99.

خلال الحديث أنه بليغ وخطيب من خطباء ذلك العصر، وله نفس المرتبة العلمية التي لابن الجوزي.

وقد تفاوضا على حروف العربية الثمانية والعشرين، فادعى رفيق ابن الجوزي أن الكلام لا يصح إلا باجتماع كل حروف العربية، ولا يستطيع أي متكلم أن يغيب حرفاً من الحروف أو بعضاً منها في كلامه، وإن حاول ذلك اختل الكلام وأصابته العلة، في حين أن ابن الجوزي قال غير ذلك، ومن الظاهر أن هذا الأخير (أي ابن الجوزي) قد تمسك بموقفه وأقنع رفيقه بصحة ما جاء به، إلى أن دفع بهذا الأخير (أي زميل ابن الجوزي) لإنشاء خطبة محذوف منها حرف الألف، من هنا انتهضت الرغبة للغلبة والانتصار عند ابن الجوزي وأنشأ ثلاثين خطبة محذوف من كل خطبة حرف من حروف الهجاء، وختمهم بخطبة ليس فيها نقط أي لا تحوي أي حرف من حروف العربية التي تكتب بالنقاط مثل: (ب، ت، ث، ج، خ، ذ، ز، ش، ظ، ض، غ، ف، ق، ن، ي).

مع العلم أن ابن الجوزي قد أضاف لحروف الهجاء حرف " لا " فصارت تسعة وعشرين حرفاً، وبإضافة النقطة تصبح ثلاثين، وقد أضاف في نظري ال " لا " لما لها من شأن ومكانة كبيرة في الكلام خاصة الديني منه، يقول: " فإني تفاوضت أنا وبعض الأصدقاء في حروف الهجاء، فادعى أنه لا يصح كلام إلا بمجموعها، ولا يستقيم لفظ تام إلا بوجود جملتها، وحدثني بخطبة معه منظومة، محذوف منها حرف الألف، فانتفضت القوة إلى الانتصار بإنشاء خطب حذف من كل خطبة منها حرفاً من حروف الهجاء، وختمتها بخطبة ليس فيها نقطة، فصارت ثلاثين خطبة، وقد وسمتها بكتاب < عجيب الخطب > ¹

ويحيل هذا الكلام إلى نوع من النشاط الأدبي الذي كان يمارسه العرب حيناً من الزمن، والذي شاع في كلتا ضروب الأدب سواء في الشعر أو في النثر، وهنا نتحدث عن المعارضات، وشببهاتها المناظرات وكذا ما يعرف بالنقائض والتي اشتهرت في

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص99.

الشعر، ويظهر من خلال هذا التقديم، أن ابن الجوزي قد عارض خطبة زميله التي نظمها بدون حرف الألف، بمجموعة خطب حذفت منها مجموعة من حروف العربية، وقد اشتقت المعارضات من الفعل عارض الذي ورد في معجم لسان العرب: " عارض الشيء بالشيء معارضةً: قابله، وعارضت كتابي بكتابه أي قابلته، وفلان يعارضني أي يباريني، وفي الحديث: إن جبريل عليه السلام كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة، وإنه عارضه العام مرتين، قال ابن الأثير: أي كان يدارسه جميع ما نزل من القرآن، من المعارضة المقابلة"¹

وتقتضي هذه المعارضات توفر عنصرين فاعلين جمعتهما علاقة استدلالية ارتقت بهما مقامات أخرى، حيث يرتقي المتكلم إلى مقام المدّعي، والمخاطب إلى مقام المعارض، فلا تتوقف وظيفة المتكلم في هذه الحالة على مجرد توجيه كلامه للغير لإفهامه معنى مخصوصاً، وإنما تتحول وظيفته إلى وظيفة تأثيرية، " لأن حقيقة الخطاب لا تتوقف عند حد التوجه والإفهام، وإنما يتجاوزهما إلى قصدين آخرين هما قصد الادّعاء وقصد الاعتراض"²

فقد مثل المدّعي زميل ابن الجوزي، والذي ادّعى أن اللغة غير قادرة على تحقيق التبليغ بتغيب إحدى حروفها، بينما مثل المعارض ابن الجوزي نفسه، والذي اعترض على الفكرة التي ادّعاها زميله أو خصمه باعتبار السياق الذي قد جمعهما، وقد دعاه موقفه من القضية إلى نظم ثلاثين خطبة في الوعظ الإسلامي، والذي احتاج في حاله عرضها على الغير على حجج واستراتيجيات ضمنها خطبه الثلاثين، وقد اعتبر خصم ابن الجوزي بمثابة النموذج الفني المائل أمام ابن الجوزي المعارض، بحيث اقتدى به ابن الجوزي، وحاكاه في جوهر الخطب الذي كان أساس نظمها بتغيبها لبعض حروف العربية.

¹ ابن منظور: لسان العرب، ص2885.

² مكلي شامة: الآليات الحجاجية في نقائص جرير والفرزدق من خلال نقيضتيهما " سم نافع " و " إن الذي سمك السماء "، مجلة الخطاب دورة أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات والبحوث العلمية في اللغة والأدب، العدد 4، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، 2009، ص404.

والادعاء شرط من شروط المناظرة، وهو قوامها والمبدأ الأساسي فيها، حيث لا يمكن للمدعي أن يدخل في مناظرة دون أن يكون له موضوع يجادل فيه، ويكون هذا الموضوع بمثابة دعوى يصدقها ويحاول بكل الطرق الاستدلالية إقناع خصمه التصديق بها أو الاعتراض على صدقها، ومنه فإن ابن الجوزي قد دخل في مناظرة مع زميله لادعائه صدق القضية المذكورة الخاصة باللغة العربية، وهو يحاول بكل طرق الاستدلال والمحاجة التي أودعها خطبه إقناع زميله التصديق والأخذ بها.

فموضوع المناظرة معروف سلفاً بالاتفاق بين الطرفين، وهو مناقضة أحدهما الآخر قوله، وبالتالي فإن للمحاجة وللإقناع نصيب وافر من الخطب، ذلك أن ابن الجوزي قد قام بنظم الخطب الثلاثين بغرض الوعظ الإسلامي المرتبط ارتباطاً وثيقاً بإقناع إحدى الخصوم بأن رأيه المناقض لرأي خصمه في الموضوع المبين هو رأي ذو صواب ومصداقية، وقد احتاج في التأثير على الخصم بإثبات رأيه ونفي الصدق عن رأي خصمه إلى بعض استراتيجيات الحجاج

وقد كانت بدايات المعارضات أو النقائض مع الشعر إلا أنها لا تقتصر عليه فحسب، بل تعدته إلى النثر كذلك، فقد يعارض الكتاب بعضهم البعض في مؤلفاتهم، كما قد يعارض الخطاب بعضهم البعض في خطبهم، ويتم ذلك حين يجد الشاعر أو الكاتب نموذجاً أدبياً ذات مستوى فني عالٍ، يستحق أن يجرده له الطرف الثاني عبقريته.

فقد عارض ابن الجوزي خطبة زميله بخطب تحاكيها في طريقة النسخ والنظم، فنسج على منوالها إثباتاً لمقدرته الفنية، وهادفاً من خلالها لا إلى إثبات القدرة على النظم على منوال النموذج السابق فقط، إنما مقنعاً زميله بقدرته على نظم الكلام مع تغييب حروف الهجاء، وهي الفكرة التي كان قد رفضها الخصم ولم يؤمن بمصداقيتها، إذن فالهدف الرئيس من إنشاء الخطب التي تشبه المناظرات في ماهيتها هو الإقناع، فقد: " كان خطاب المناظرة في التراث العربي، وما زال، من أهم أنواع الخطاب الذي ينتجه المرسل للإقناع، إذ برزت وتبرز فيه سمات الكفاءة التداولية والقدرة على

توظيفها طبقاً لما يتطلبه السياق، من أجل بلوغ هدف الخطاب الكلي الذي يصبو إليه، فالإقناع هو المطلب الأساس من الخطابات التي تدور بين هؤلاء الذين تختلف توجهاتهم، سواء أكان مجال المناظرات المذاهب الدينية أم اللغوية أم الفلسفية أم غير ذلك كله ¹

حاول ابن الجوزي من خلال خطبه خلق نماذج من الحجج المضادة للنماذج المؤسسة من قبل المدعي وحاول إكسابها فعالية أكثر، حيث يفقد من خلالها النموذج الأصلي . المتمثل في خطبة الخصم التي قام فيها بتغيير إحدى حروف العربية . قيمته وفعاليتها، فأنجح سلاح يمكن أن يرد به المعترض على ادعاءات المدعي هو السلاح الذي هوجم به، وينجح الأمر فعلاً إذا كان يمتلك المعترض ابن الجوزي كفاءة لغوية تضاهي كفاءة خصمه، إلى جانب امتلاكه معرفة تمكنه من الدفاع عن قضيته بنفس حجج المدعي .

إذن، يعتبر هذا التخاطب اللغوي الذي نشأ بين ابن الجوزي وزميله بادرة لتأسيس كتاب حوى ثلاثين خطبة في الوعظ الديني، وقد وجّهت هذه الخطب إلى متلقي خاص هو زميل ابن الجوزي، من هنا يمكننا القول إن هذه المحادثة قد مثّلت فعل تداولي واضح وصريح، والذي افترض بدوره متكلماً ومستمعاً، وعند الأول هدف التأثير في الثاني، فيمكننا اعتبار ابن الجوزي مرسلأً، وزميله مرسلأً إليه، وينطلق عمل المحاجة من المرسل، أي من ابن الجوزي نحو المرسل إليه، وقد تمثّلت الرسالة التي توفرت فيها المحاجة، في مجموعة خطب وجهها ابن الجوزي إلى المرسل إليه المذكور، بهدف التأثير فيه عن طريق إقناعه بمصداقية اللغة في تحقيقها رسالة التواصل رغم تغيير إحدى حروفها

إذن كان الدافع الأساس وراء إنشاء المرسل لخطابه أو نظمه لمجموعة خطبه، هو تقنيده لرأي المرسل إليه في أن الكلام العربي لا يستطيع الاستغناء في أي حال من الأحوال لأي حرف من حروف العربية الثمانية والعشرين، أو بالأحرى لا يستغني

¹ . عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص449.

المتكلم العربي عن بعض من حروف الهجاء أثناء تأدية رسالته التواصلية، كما كان الدافع كذلك إثبات صحة ومصداقية أن الكلام يتم ويصح بتغيير حروف الهجاء، ولا شرط في اجتماع كل حروف العربية كي يحصل الكلام ويكون ذو معنى.

أنشأ ابن الجوزي خطابه الذي هو عبارة عن مجموعة خطب وفق معايير خاصة، وقد وجهها لمرسل إليه وهو زميله الذي كان بمثابة الخصم في هذا السياق، وقد أنشأ خطابه على أساس الفكرة التي جاء بها، والتي كانت بمثابة الحافز للفعل وهو نظم الخطب، وبالتالي فقد تولدت حجة من حجة أخرى، كما نسجل أيضاً ارتقاءً في الذوات، حيث ترتقي من كونها ذوات تواصلية إلى ذوات حاجية مدعية ومعتزلة،

وباعتبار أن هذا الفعل التلفظي الذي جمع المرسل بالمرسل إليه يحفّ به سياق معين، فما هي حدود هذا السياق من أين يبدأ؟، ومن أين ينتهي؟، وكيف أثر هذا السياق على استراتيجية الخطب؟

نعتبر التلفظ الذي حصل بين المتكلم والمستمع، أو بين ابن الجوزي وزميله، والكلام الذي حصل بينهما، والخطبة التي نظمها زميل ابن الجوزي، كلها سياقاً، وتبدأ استراتيجيات الإقناع وممارسة الحجة من نقطة انطلاقة الخطب الثلاثين التي نظمها ابن الجوزي، فهي تمثل الأرض الخصبة التي أودع فيها ناظم الخطب تقنياته الإقناعية المتعددة التي وظفها بهدف إقناع الخصم وتغيير وجهة نظره نحو الموضوع المقترح.

وقد اشتركت كل الخطب في كونها تحمل نفس الاستراتيجية الإقناعية الرئيسية، والتي تمثلت في تغيير حرف من حروف الهجاء في كل خطبة، وقد حوت الخطب أيضاً استراتيجيات أخرى نسميها فرعية إن أمكننا ذلك، لكونها تمس موضوعات كل خطبة على حده، والتي ظهرت على مستوى مضامين الخطب وكذا على مستوى أدواتها اللغوية وما يندرج تحتها من ألفاظ وتراكيب وعبارات.

مهّد ابن الجوزي لمجموعة الخطب الثلاثين عن طريق عرض للإطار العام أو السياق الذي حفّ بمجموع الخطب، كما وظهر من خلال هذا العرض تقديم لمجموع الاستراتيجيات التي وظفها ابن الجوزي، كما وبين لنا فيه الغاية التي دفعته لنظم هذه

الخطب، والتي تمثلت في إقناع الزميل الذي اتخذ منزلة الخصم بالفكرة التي جاء بها، والتي تتعلق بمدى مقدرة المتكلمين على نظم الكلام مع استغنائهم عن بعض من حروف العربية.

أغفل أرسطوطاليس من بعض أنواع الخطب عنصر الاستهلال والخاتمة، واعتبرهما غير أساسيين، وذلك لعدم أهميتهما في البرهنة، ولا أهمية من إيرادهما لأنهما يحدثان عنصر الإطناب، بينما دعا للاهتمام بعنصر العرض لأنه يتضمن الدليل، يقول أرسطو: " بينما الخطيب بهذه الوسيلة كأنه يبرهن على ما لا يدخل في موضوع الاستهلال ولا الخاتمة، ولا غاية من وراء هذين إلا التخفيف على الذاكرة"¹، إلا أن دورهما . في نظري . أساسي، لحاجة متلقي الخطبة، وقبل الدخول في صلب موضوع معين، لكلام جميل يمنحه تشويقاً للولوج في القراءة، فيغذي به عقله، ويمتّع به ذهن، خاصة ما كان ذا طابع ديني، وهو في حاجة عند الانتهاء من قراءة الموضوع أو سماعه، لكلام يطرب به أسماعه. ويزيل به عبأ صرامة القول.

1.1.3- خاتمة استهلال كتاب < عجيب الخطب >:

بعد أن قام ابن الجوزي بتقديم موجز للكتاب، نجده ينهي هذا التقديم بالدعاء، لما اشتهر عند العرب إنهاء كلامهم بدعاء أو حكمة أو كلام مأثور، بحيث نجده يسأل الله حسن تأدية الواجب والإعانة عليه، كما يدعو لنفسه ولجميع المسلمين بالنجاة من غضب الله تعالى، يظهر هذا من خلال قوله: " ... وأنا أسأل الله تعالى أن يعينني على القيام بما علي وجب، وأن يعينني وجميع المسلمين في الآخرة من الطرد والغضب، وأن يجعلنا في دار كرامته من أهل المنازل والرتب، فهو أكرم من عم برحمته عبداً أحبه وطلب"²

¹. أرسطوطاليس: الخطابة، ص229.

². ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص99.

وقد قام ابن الجوزي بحياسة هذا الاختتام حياسة جميلة، في فواصل مسجوعة، ويظهر هذا من خلال ألفاظ: (وجب، غضب، رتب، طلب)، وكلها أسماء وأفعال ثلاثية تنتهي بحرف الباء الساكنة، كما تنتمي دلاليًا إلى الحقل الديني.

2.1- افتتاح الخطب:

تنقسم الخطب، أي خطب، إلى أجزاء ثلاثة، افتتاحاً واستهلالاً، عرض، وخاتمة، إلا أن ما يهمنا من هذه الأجزاء والتي سوف نقوم بدراستها في هذا الصدد هو الجزء الأول وهو الاستهلال، وهو أول ما نصادفه حين نشرع في قراءة الخطبة أو حين نتلقاها عن طريق السماع، أي هو بمثابة العتبة النصية الأولى في الخطبة، ومن أجل هذا رأينا أن يسبق البحث فيه بقية الأجزاء التي تليها أو التي تأتي بعدها.

ويشتمل البحث على ذكر الصيغ التي ورد بها الاستهلال، كما سوف نقوم بتحديد هذا الأخير في مجموع الخطب، وذلك في جدول توضيحي، بالإضافة إلى هذا سنخوض في قضية تغييب الحروف لما لها من أثر في تحديد طبيعة الاستهلال من حيث اختيار ابن الجوزي لألفاظ دون أخرى، وذلك تماشياً والحرف المغيب، وفيما يلي تفصيل لكل هذا.

1. 2. 1. صيغ الافتتاح:

كانت الصيغة الرئيسية التي استهل بها ابن الجوزي خطبه الثلاثين هي الحمدلة، بحيث نجده يبدأ استهلاله بعبارته الحمد لله، ثم ينتقل بعدها مباشرة إلى ذكر صفات الرحمن أو أحد من أسماء الله الحسنى، نجد على سبيل المثال قوله: " الحمد لله غافر الزلل، وسائر الخلل"¹، وهو يقوم بحمد الله تعالى لغفرانه ذنوب وزلات عباده، وستره لخطاياهم، فقد يذنب العبد ويظلم نفسه بارتكابه لبعض المعاصي خفية عن الخلق، إلا أن الله يستره ويتوب عليه إذا ما هو طلب العفو والغفران من رب العالمين.

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص100.

كما نجده في استهلال آخر يقول: " الحمد لله الجواد فلا يبخل، الحليم فلا يعجل¹، وقد برزت صفتان من صفات الرحمن هما الجواد والحليم، فقد وجود الله تعالى على عبده بنعمه التي لا تعد ولا تحصى، ويكرمه من فضله العظيم، ولا يعجل عليه، بحيث يمهل ساعات وأيام وسنوات إلى أن يشكره على النعم التي أنعمه إياها، ثم بالحمد يزيده منها وأضعاف من مثيلاتها، يقول تعالى: > وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ<²

وأخرى من صفات وأفعال الرحمن يقول ابن الجوزي: " الحمد لله جامع الأموات، وسامع الدعوات، رافع الطاعات، ودافع البليات³، إذ يحمد ابن الجوزي الله تعالى على جمعه عباده يوم الدين أحياء وأموات، لما لهذا اليوم العظيم من حكمة ربانية كبيرة، فهو الذي ينظم الخلق ويضع لهم منهاجاً يسرون عليه، فيراقبون أفعالهم التي تعرض يوم الحساب أمام الله تعالى، وحمد الله على هدايتنا لفعل الطاعات وترك المنكرات وجمعنا ومنحنا حياة أخرى أبدية من واجب كل عبد، كما يحمد ابن الجوزي الله تعالى على استجابة دعوات العبد وعلى دفع البلاء عنهم.

وقد وردت أربعة وعشرون خطبة تحت الصيغة الرئيسية المتمثلة في > الحمد لله <، بالإضافة إلى صيغ تفرعت عنها مثل > حمدت ربي< في قوله: " حمدت ربي على نعمته، حمد معترف بتقصيره في خدمته، وجل من طرده وصدّه وسطوته⁴، وقد وردت شبيحتها في المعنى والتركيب في خطبة أخرى نجدها في قوله: " حمدت نعمة ربي حمد معترف بتقصيره، خائف من نقمة بعثه ومصيره، حذر من رده وتعسيره⁵

يتصرف ابن الجوزي بحذاقة وبراعة في اختيار ألفاظ الاستهلال، وذلك من أجل ضمها الى حقله اللغوي وتضمينها في خطبه، معتمداً في ذلك كله على استراتيجية

1. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص110.

2. سورة إبراهيم: الآية: 7.

3. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص115.

4. المصدر نفسه، ص100.

5. المصدر نفسه، ص128.

خاصة وهي أن يغيب في كل خطبة من خطبه حرفاً من حروف العربية، ما انجر عنه إيراد ألفاظ دون أخرى، بحيث نجده يستبدل في بعض الخطب كلمة الحمد بكلمة الشكر، وذلك في الخطب التي غيب فيها الحروف التي تتكون منها كلمة الحمد مثل الحاء والميم والذال، فقد غيّب الحاء في قوله: " الشكر لله الذي خلق الأرض والسماء، وأرسى الجبال وأجرى الماء "1، وغيّب الميم في قوله: " الشكر لله الذي جاد بفضله على واجديه، وجاد ببذله على سائليه، وأسبل ستر لطفه على هاجريه "2، وغيّب الذال في قوله: " الشكر لمن شمل لطفه وعم، واتصل عطفه بخلقه ولم "3، ففي الاستهلالات الثلاثة تغييب لكلمة الحمد.

ونفس الشأن بالنسبة للفظ الجلالة، بحيث نجده يستغني في بعض الخطب عن لفظة " الله " ويستبدلها بلفظة " ربي "، وقد ورد هذا في الخطب التي غيب فيها الحروف التي تتكون منها لفظة الله مثل الألف واللام والهاء، فقد غيّب الألف في قوله: " حمدت ربي على نعمته، حمد معترف بتقصيره في خدمته، وجل من طرده وصدّه وسطوته "4، وغيّب اللام في قوله: " حمدت نعمة ربي حمد معترف بتقصيره، خائف من نقمة بعثه ومصيره، حذر من رده وتعسيره "5، وغيّب الهاء في قوله: " الحمد لمن أوجب الحمد على المرء استحقاقاً، وضمن للعبد حصول الرزق انعاماً وارفاقاً "6، ففي الاستهلالات الثلاثة تغييب لكلمة الله.

إنّ هما لفظتان تركّبت منهما الحمدلة؛ لفظة (الحمد) ولفظة (الله)، وقد اجتهد ابن الجوزي بالغ الاجتهاد في ثنايا استهلالاته في استبدال ألفاظ معينة بألفاظ بديلة لها، وذلك لكي تتلاءم والاستراتيجية التي اعتمدها ابن الجوزي، فقد سعى في الخطب إلى

1. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص106.

2. المصدر نفسه، ص128.

3. المصدر نفسه، ص108.

4. المصدر نفسه، ص100.

5. المصدر نفسه، ص128.

6. المصدر نفسه، ص130.

أن يثبت لزميله أن الكلام يحصل مع تغييب بعض حروف العربية، وإن دلّ هذا الأمر على شيء فإنما يدل على الرصيد اللغوي الكبير الذي يتمتع به ابن الجوزي، بحيث خلت استهلالات الخطب من أي عيب يذكر، سواء من حيث سلامة الاستراتيجية التي انتهجها أو من حيث المعاني التي أراد إيصالها للمتلقي.

1. 2. 1. طبيعة الإفتتاح:

نقوم في هذا العنصر بتبيان حدود الإفتتاح والاستهلال، أي بعزل هذا العنصر عن العنصر الذي يليه في الخطبة وهو العرض، أي علينا أن نطرح السؤال فنقول: أين ينتهي الاستهلال ليبدأ العرض، كما سنقوم بتسليط الضوء على طبيعة الألفاظ التي تركب منها الاستهلال، وذلك من حيث موافقتها أو عدم موافقتها للاستراتيجية التي اعتمدها ابن الجوزي، وتفصيل كل هذا فيما يلي:

1. 2. 1. حدود الإفتتاح:

تظهر حدود الإفتتاح الذي يخص كل خطبة على حده في الجدول التالي، كما ويظهر الحرف الذي قام ابن الجوزي بتغييبه في كل استهلال فيما يلي:

الحرف المغيب	الاستهلال	رقم الخطبة
الألف	حمدت ربي على نعمته، حمد معترف بتقصيره في خدمته، وجل من طرده وصدده وسطوته، مؤمن بتفرده في ربوبيته، مستدل بصنعه على معرفته.	الخطبة الأولى
الباء	الحمد لله غافر الزلل، وسائر الخلل، ومقدر الأجل، ورافع العمل	الخطبة الثانية

الفصل الأول: أجزاء القول في خطب ابن الجوزي " الإفتتاح، العرض، والإختتام "

التاء	الحمد لله الأول ولا زمان، الآخر ولا أكون، الباقي ولا انسان، القادر ولا أعوان	الخطبة الثالثة
الثاء	الحمد لله خالق النوم والشمس والقمر، ورازق الوحوش والطيور والبشر، ومبدع النفوس والأخلاق والفطر	الخطبة الرابعة
الجيم	الحمد لله رافع السماء بالقدرة القاهرة، ومزينها بالكواكب الثابتة والسائرة	الخطبة الخامسة
الحاء	الشكر لله الذي خلق الأرض والسماء، وأرسى الجبال وأجرى الماء	الخطبة السادسة
الخاء	الحمد لله الثابتة أدلة قدرته ووجوده، الشاملة ألطاف كرمه وجوده	الخطبة السابعة
الدال	الشكر لمن شمل لطفه وعم، واتصل عطفه بخلقه ولم	الخطبة الثامنة
الذال	الحمد لله الفاعل بغير مانع، القاضي بغير دافع	الخطبة التاسعة
الراء	الحمد لله الجواد فلا يبخل، الحليم فلا يعجل	الخطبة العاشرة
الزاي	الحمد لله الذي خلق الخلائق وأعمالهم، وأبدع صورهم وأفعالهم، ونوع صفاتهم وذواتهم وأشكالهم	الخطبة الحادية عشر
السين	الحمد لله الذي أغرق في بحار معرفته قلوب العارفين، وأحرق بنار محبته أكباد المحبين	الخطبة الثانية عشر

الفصل الأول: أجزاء القول في خطب ابن الجوزي " الإفتتاح، العرض، والإختتام "

الشين	الحمد لله مسكن روعات قلوب الخائفين بإيمانه، ومحيي موات نفوس الطالبين بإحسانه، وساتر أسرار المذنبين بعفوه وغفرانه	الخطبة الثالثة عشر
الصاد	الحمد لله جامع الأموات، وسامع الدعوات، رافع الطاعات، ودافع البليات	الخطبة الرابعة عشر
الضاد	الحمد لله الذي عم العباد بنعمته وارفاده، وخص العباد بهدايته وتعريفه وارشاده	الخطبة الخامسة عشر
الطاء	الحمد لله محيي من أحب من عباده لمناجاته، ومرتضي من شاء من خلقه لمعاملاته	الخطبة السادسة عشر
الضاء	الحمد لله عالم السرائر والأضمار، وغافر الجرائم والأوزار	الخطبة السابعة عشر
العين	الحمد لله الذي أحرق في طلب قربه أشباح القاصدين وأفناها، وأقلق في طلب حبه أرواح المشتاقين وأضناها	الخطبة الثامنة عشر
الغين	الحمد لله الذي خلق الانسان من نطفة أمشاجا، وجمع بقدرته عنصرا وطباعا ومزاجا	الخطبة التاسعة عشر
الفاء	الحمد لله الذي نصب على وحدانيته من صنعتة دليلاً، وجعل لخاصته الى طريق خدمته بعنايته سبيلاً	الخطبة العشرون
القاف	الحمد لله ساتر المعائب، وغافر الشوائب، وراحم التائب، وموفق الطالب	الخطبة الحادية والعشرون
الكاف	الحمد لله موقظ الغافل، ومبغض الرافل،	الخطبة الثانية

الفصل الأول: أجزاء القول في خطب ابن الجوزي " الإفتتاح، العرض، والإختتام "

	ومظهر الحق على الباطل	والعشرون
اللام	حمدت نعمة ربي حمد معترف بتقصيره، خائف من نقمة بعثه ومصيره، حذر من رده وتعسيره، طامع في عفوه ورحمته وتيسيره	الخطبة الثالثة والعشرون
الميم	الشكر لله الذي جاد بفضله على واجديه، وجاد ببذله على سائليه، وأسبل ستر لطفه على هاجريه	الخطبة الرابعة والعشرون
النون	الحمد لله الذي ذلت لعظمته رقاب الجبابرة وخضعت، وخزرت لعزته جباه الأكاسرة واتضعت	الخطبة الخامسة والعشرون
الهاء	الحمد لمن أوجب الحمد على المرء استحقاقاً، وضمن للعبد حصول الرزق انعاماً وارفاقاً	الخطبة السادسة والعشرون
الواو	الحمد لله خالق الأنام، مصرف الأحكام، رافع الأسقام، دافع الآلام	الخطبة السابعة والعشرون
لا	الحمد لله الذي من آمن به أمن، العطوف الذي أنعم على عباده بالفضل له وأذن	الخطبة الثامنة والعشرون
الياء	الحمد لله الأول ولا موجود حاضر، الآخر ولا خراب ولا عامر، الفرد المنزه عن احاطة الأوهام والخواطر	الخطبة التاسعة والعشرون
غيبت فيها النقط	الحمد لله الواحد الأحد، وكل أحد سواه مطلع الأعداد، العادل الصمد، ولا والد ولا ولد	الخطبة الثلاثون

1. 2. 2. معاني الإفتتاح:

يعتبر استهلال الخطبة الأولى بمثابة الاستهلال بالنسبة لجميع الخطب التي تليها، وذلك لما يحمله من خصوصية وتقرّد، فقد حصل أن وجدنا ابن الجوزي في الخطبة الأولى يفتح الباب لبقية الخطب، وذلك عن طريق تبيان وجهة حاله تجاه خالقه، إذ نجده يتكلم عن ذاته فيخصّ نفسه ببعض الصفات، ومما برز منها في الخطبة الأولى صفات (معتزف، مؤمن، مستدل)، بحيث يحمّد الله على النعمة التي أنعمه إياها وهو معتزف بتقصيره اتجاه خالقه من ناحية تأدية واجب العبادة، وخائف في الوقت نفسه من غضب الله عليه وطرده من رحمته، وهو مؤمن بأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وقد تعرف على الله من خلال صنعته في الأرض والسماء، أي من خلال خلقه وملكوته.

وكل هذا الكلام يختص بالمتكلم نفسه، أي ناظم القول، وهو ابن الجوزي، فالكلام عن نفسه تجاه الله تعالى قد شمل كل الاستهلال، والذي ينتهي بمجرد أن يغير ناظم القول وجهة الكلام لينتقل من الحديث عن نفسه إلى الحديث عن الإله وعن صفاته، وقد تمركز هذا في عنصر العرض نجد ذلك في قوله: (رب حكم فعدل...) إلى آخر القول.

ونجد ابن الجوزي في بقية كل الخطب - عدا الخطبة الثالثة والعشرون - يشرع مباشرة بعد الحمدلة، بذكر صفات الله تعالى وقدرته في الأرض والسماء، وهذا مبين في الجدول الذي وضعناه مسبقاً، وكأن ابن الجوزي يقوم بتوحيد كل الخطب في خطبة واحدة تكون جامعة من ناحية المعنى للعديد من صفات الله تعالى، بحيث تقوم الخطب من خلال هذا بتمثيل معنى رئيسي وحيد وحقل دلالي مشترك وكل متكامل ومنسجم، تجسّد عن طريق معاني التوحيد، والتذكير بصفاته تعالى وإظهار ملكوته وقدرته في الأرض والسماء.

وكما أسلفنا الذكر، فقد اشتركت الخطبة الأولى مع الخطبة الثالثة والعشرون في المعنى، بحيث يمهدّ فيها ابن الجوزي للحديث عن الإله وعن فضله وملكه، بكلام

اختص به لنفسه، فبيّن وجهة حاله تجاه خالقه، من خوف وتعبد وطاعة وتذلل، كما وتشترك الخطبتان من ناحية أخرى في صيغة الإفتتاح وهي (حمدت ربي على نعمته، حمدت نعمة ربي).

ونشك في أن: تشابه صيغة الإفتتاح له علاقة وطيدة بالتشابه الحاصل بين الخطبتين، فقد قام ابن الجوزي بتغيير حرف " الألف " من الخطبة الأولى، وتغيير حرف " اللام " من الخطبة الثالثة والعشرون ، وهما حرفان قدغُيِّبَا في الصيغتين وفي كل الخطبتين، وتجدر بنا الإشارة إلى أن حرفي الألف واللام لهما أهمية بالغة في العربية كونهما يمثلان أداة للتعريف، فالألف منفصلة عن اللام تمثل حرفاً أساساً في صيغة فاعل، والتي تعتبر المكون الرئيسي للصفات التي قام ابن الجوزي بإيرادها في الخطب، إذ مما ساد فيها من ذكر لصفات الخالق نجد: ساتر، غافر، راحم، مانع، شاكِر، ذاكر، ومثيلاتها كثيرات، إلا أنها انعدمت في الخطبة الأولى كون صاحبها قد غيب فيها حرف الألف، وهو ما أثر في تكوين الخطبة من حيث انتقاء الألفاظ المناسبة للاستراتيجية المعتمدة في الخطب.

كما أن لحرف اللام أيضاً، دور في تكوين ألفاظ لا تستغني عنها أي خطبة دينية كانت، نجد من هذه الألفاظ على سبيل المثال لفظة: الله، الإله، الرسول، المرسل، الرسالة، وهي مجموعة ألفاظ كان لها الحضور الكبير في بقية الخطب، إلا أن ابن الجوزي قد تصرّف بحذاقة في ذلك، بحيث حافظ على الاستراتيجية فغيّب اللام، واختار من الألفاظ شبيهاتها من حيث المعنى، نجد منها لفظة " ربي " مكان لفظة الله والإله، وألفاظ " نبيه، وبشيره، ونذيره " مكان لفظة الرسول الكريم.

يتكلم ابن الجوزي في الخطبة الثالثة والعشرون عن نفسه فيخصها ببعض الصفات منها: (معتزف، خائف، حذر، طامع)، فهو يحمّد الله على النعمة التي أنعمه إياها، وهو معترف بتقصيره تجاه خالقه من ناحية العبادة وخائف من يوم البعث والمصير الذي يؤول إليه، كما وخائف من تعسير الله تعالى حسابه وطامع في أن يعفو ويصفح عنه، وهو افتتاح شبيههفي بدايته افتتاح الخطبة الأولى، كما أن ابن الجوزي وعندما

ينهي الحديث عن نفسه يقول: (رب قَدَّرَ فَقَدَّرَ ...) وهنا يبدأ العرض الذي سنفصل فيه الحديث في العنصر المخصص له.

إذن يمكننا القول، إن معاني الاستهلال في الخطب قد انحصرت حول مجموعة صفات لله عز وجل قام ناظم الخطب بذكرها والتفصيل فيها، كما حوت ذكراً لقدرة الله تعالى في الأرض والسماء وذكراً للنعم التي أنعم بها الله تعالى عبده، وعلى ما وجب على العبد القيام به ليوفي شكر ربه، وقد حصل في بعض الخطب أن مهّد لهذه الصفات بكلام خصّ به نفسه ذاكرة حاله تجاه خالقه ومبيناً موقفه من الواجبات الدينية.

1. 2. 3- طبيعة ألفاظ الإفتتاح:

نشير بالتحديد في هذا العنصر إلى طبيعة ألفاظ استهلال الخطبة الأولى والخطبة الثالثة والعشرون، ذلك أن استهلاكي الخطبتين قد أثارا انتباهنا للتشابه الحاصل بينهما، إذ يظهر بوضوح التشابه الحاصل على مستوى الألفاظ والمعاني بين استهلال الخطبتين المذكورتين، فنجد ابن الجوزي في كلتا الخطبتين يحمّد الله تعالى على النعم التي أنعمه إياها حمد معترف بتقصيره من ناحية الخالق من حيث العبادات، وخائف في الوقت نفسه من يوم الحساب ومن غضب الله الذي لا اله إلا هو، وطامع في العفو والصفح من رب العباد، وقد وظف لهذه المعاني مصطلحات وألفاظ تحمل نفس الدلالة، فنجد في استهلال الخطبة الأولى يقول: " حمدت ربي على نعمته، حمد معترف بتقصيره في خدمته، وجل من طرده وصدّه وسطوته، مؤمن بتقرّده في ربوبيته، مستدل بصنّعه على معرفته "¹، بينما نجد في استهلال الخطبة الثالثة والعشرون يقول: " حمدت نعمة ربي حمد معترف بتقصيره، خائف من نقمة بعثه ومصيره، حذر من رده وتعسيره، طامع في عفوهِ ورحمته وتيسيره "².

ومن الملاحظ أن ابن الجوزي قد استعمل في الخطبتين بعض الألفاظ الحاملة للمعنى نفسه، فقد وظف في استهلال الخطبة الأولى التي غيّب فيها الألف لفظة "

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص100.

². المصدر نفسه، ص128.

وجل " والذي لا يعتبر حرف الألف من ضمن حروفها، في حين وظّف في استهلال الخطبة الثالثة والعشرون التي غيّب فيها اللام لفظة " خائف " الحاملة لنفس معنى سابقتها، والذي لا يعتبر اللام من ضمن حروفها، وهنا تظهر مهارة ناظم الخطبة في تلاعبه بالألفاظ وتوظيفها فيما يخدم الاستراتيجية المتّبعة.

يمكننا القول عن ألفاظ استهلال الخطبتين أنها ألفاظ سهلة وبسيطة، وتحوي مهارة في انتقائها وإيرادها في ثنايا القول، إذ لم تُردّ بطريقة عشوائية، بل قام ابن الجوزي باختيارها بعناية شديدة، وذلك لكي تناسب الاستراتيجية التي اختارها في نظم الخطب وهيتغيب حرف من حروف العربية في كل خطبة، كما أنها تناسب المعاني الدينية السامية والموضوعات الراقية التي قام ابن الجوزي بإيرادها خطبه، ف: " المتكلم البليغ هو الذي يفكر في الألفاظ الملائمة اللاتقة التي تسمح لا بإبلاغ المعاني والمضامين فقط، بل وتسمح بالتأثير في السامع بخصائصها الذاتية أيضاً"¹.

تجنب ناظم الخطبة كل الألفاظ التي تحتوي على الحروف التي قام بتغيبها، في حين أورد ألفاظ أخرى تتماشى والمعنى المراد وكذا الاستراتيجية المذكورة، وإن دلّ على شيء فإنما يدل على امتلاك ابن الجوزي لثقافة عالية خصوصاً ما يتعلق بالمجال الديني، فرصيده المعرفي واللغوي هو الذي أهله للتعبير عن معانيه بأعذب الألفاظ دون المساس بالاستراتيجية التي اختارها، فقد قام: " باستيعاب الثقافة العربية في أصولها وتحولاتها، وما طرأ عليها في صيرورتها من تأثرات جديدة، كما قام بالتفاعل مع العصر وفق رؤية خاصة وموقف محدد والتعبير عن ذلك الاستيعاب وهذا التفاعل من خلال التصنيف والتأليف، كلها جعلت ابن الجوزي يقدم لنا صورة مثلى لتمثيل جوانب مهمة تصلح لمختلف العصور"²

كما ونلاحظ من خلال الاستهلالين، حضور الآلية البلاغية المتمثلة في سجع والذي يظهر على مستوى الألفاظ، ومنها تلك التي نلمحها في بعض الألفاظ التي

¹. حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، ص167.

². سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتجليات، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2006، ص148.

اتصلت بالضمير المتصل الهاء والذي يعود على الله تعالى، من هذه الألفاظ والتي برزت في استهلال الخطبة الأولى: (نعمته، خدمته، سطوته، ربوبيته، صنعته، ومعرفته) ، (طرده وصدّه)، كما أن من الألفاظ المسجوعة التي اتصلت بنفس الضمير والتي برزت في استهلال الخطبة الثالثة والعشرون نجد: (تقصيره، مصيره، تعسيره، وتيسيره)، وكل هذه الألفاظ قد قامت بإضفاء نغم موسيقي جميل على مستوى الاستهلالين اللذين اعتبرا البوابة الرئيسية للخطبة.

1. 2. 2. 4. طبيعة تراكيب الافتتاح:

نشير في هذا العنصر إلى طبيعة تراكيب استهلال الخطبة الأولى، وذلك من خلال الكشف عن الناحية الجمالية التي تمتاز بها جملة وعباراته، والتي امتازت معظمها بالسجع والمقابلة، والتي سنقوم بذكر أمثلة منها وشرحها دون التفصيل فيها التفصيل الدقيق.

يظهر من خلال استهلال الخطبة الأولى، أن ابن الجوزي قد اختار من التراكيب المسجوعة ما يضيف رنةً ونغمةً وموسيقى على الاستهلال، بحيث نجده ينظم كلامه وفق تراكيب تبني للمعنى الذي أراد ابن الجوزي توصيله للمتلقى، وتكون تلك التراكيب ذات فواصل طغى عليها السجع، منها قوله: " حمدت ربي على نعمته، حمد معترف بتقصيره في خدمته، وجل من طرده وصدّه وسطوته، مؤمن بتقرّده في ربوبيته، مستدل بصنعه على معرفته " ¹

ويظهر من خلال القول توافق التراكيب التي كونت هذا الاستهلال، وهذا ما يعرف بالمقابلة، فتركيب: " على نعمته " الذي تكون من حرف الجر " على " والاسم المجرور " نعمة " والضمير المتصل " الهاء " الذي يعود على الله تعالى يوافق تركيب: " على معرفته "، بحيث يتطابقان من الناحية التركيبية، كما يوافق تركيب: " في خدمته " تركيب: " في ربوبيته ".

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص100.

ضف لهذا، توافق أدوات الربط بين الألفاظ واتصالها بعضها ببعض في الاستهلال، نجد منها تركيب: " مؤمن بتفرده " الذي تكون من الصفة " مؤمن " وحرف الجر " الباء " والاسم المجرور " تفرّد " والضمير المتصل " الهاء " الذي يعود على الله تعالى، يوافق تركيب: " مستدل بصنعتة " والذي يتطابق معه من الناحية التركيبية.

ومما أضفى طابع الجمالية على الاستهلال تكون كل فواصل الاستهلال من أربع كلمات، تكون آخرها مسجوعة، فتركيب " مؤمن بتفرده في ربوبيته " يشاكل تركيب " مستدل بصنعتة على معرفته " من حيث عدد الكلمات، فيحس القارئ عند القراءة أن الكلام مربوط بعضه ببعض ويسوق بعضه بعضاً، مكوناً كلاً لا يتجزأ.

هذا التوافق في التراكيب يمنح الاستهلال نوعاً من التشاكل الصوتي الذي يخلق إيقاعاً موسيقياً جميلاً، بحيث يتجاوز السجع اللغة العادية البسيطة لغة التخاطب والتواصل، إلى اللغة الشعرية التي تقوم بتوصيل المعنى في قالب مزخرف ومشكل بكل أنواع الزخرف اللفظي.

يظهر الانسجام والاتصال المحكم والربط الجميل بين تراكيب الاستهلال، بحيث بنت هذه التراكيب الوجه الجمالي والفني للاستهلال بصفة خاصة وللخطبة بصفة عامة، بحيث برزت معالم النغم الموسيقي من اللفظ وصولاً إلى التركيب، وقد كان ابن الجوزي بارعاً في افتتاحه، إذ يظهر التنافس والعزيمة من أجل الإجابة في كل لفظة وعبارة في الاستهلال، ناهيك عما تحويه من معاني بديعة.

وقد كان المبتغى من هذا التنافس، أن يثبت ابن الجوزي صحة ومصادقية أن الكلام يتم ويصح بتغييب حروف الهجاء، ولا شرط في اجتماع كل حروف العربية كي يحصل الكلام ويكون ذو معنى، كما سعى في ثنايا الاستهلالات والخطب بصفة عامة، إلى تنفيذ رأي زميله في أن الكلام العربي لا يستطيع الاستغناء في أي حال من الأحوال عن أي حرف من حروف العربية الثمانية والعشرين، أو بالأحرى لا يستغني المتكلم العربي عن بعض من حروف الهجاء أثناء تأدية رسالته التواصلية، وهنا تتضح

لنا معالم استراتيجية حجاجية برزت من أولى عتبات الخطب وقد سخر لها ابن الجوزي أحسن الألفاظ والتراكيب وأعذبها على أسماع المتلقين كي تتال رضاهم.

2- عرض الخطب:

بعد أن طفنا بعنصر الافتتاح في كل من الكتاب والخطب، آن الأوان إلى أن ننتقل إلى ثاني أجزاء الخطبة وهو العرض، إذ يعتبر هذا الأخير أهم أجزائها لاعتبارات عديدة، أهمها، أنه أكبر الأجزاء من حيث الحجم، وذلك لاحتوائه على الموضوعات أو المعاني التي تطرقت لها الخطبة، كما وتحتوي في خطبنا بوجه الخصوص على المحاجة أو على عنصر الحجاج الذي وظفه ابن الجوزي بغرض إقناع متلقي الخطبة بأفكاره التي برزت في عنصر العرض، وقد لزم لابن الجوزي لتحقيق هذا الإقناع اعتماد استراتيجية تغييب الحروف التي سنفصل فيها في هذا الجزء من البحث، إلا أننا سنقوم أولاً بإظهار حدود العرض من أين يبدأ وأين ينتهي، كما سنتطرق إلى موضوعات أو معاني الخطب كون المعاني أجدر بأن نسبق إلى البحث فيها.

2-1- حدود العرض:

نجتهد في هذا العنصر في رسم حدود ثاني أجزاء الخطبة وهو العرض، أي من أين يبدأ وأين ينتهي، وذلك من خلال جدول نوضح في خانة منه رقم الخطبة وتقابلها خانة خاصة نبين فيها حدود العرض، وقد كان هذا الجدول كالتالي:

رقم الخطبة	حدود العرض
الخطبة الأولى	رب حكم فعدل في حكومته ... فمن تبع غير قولي فقد هوى
الخطبة الثانية	الكريم الحليم الماجد ... هذا أفضل المسالك وأصح المعاهد
الخطبة الثالثة	الأول ولا زمان ... " خلق الإنسان علمه البيان "

الفصل الأول: أجزاء القول في خطب ابن الجوزي " الإفتتاح، العرض، والإختتام "

خالق النجوم والشمس والقمر ... " اقتربت الساعة وانشق القمر "	الخطبة الرابعة
رافع السماء بالقدرة القاهرة ... " إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة "	الخطبة الخامسة
خلق الأرض والسماء ... إن هذه عقيدة أهل السنة الأخيار	الخطبة السادسة
الثابتة أدلة قدرته ووجوده ... هذا مذهب أهل الحق فتيقظ له ودع المبتدع برقوقه	الخطبة السابعة
غافر الزلل ... هذا الحق فإذ شئت تمسك به والزم	الخطبة الثامنة
الفاعل بغير مانع ... تتجافى جوبهم عن المضاجع	الخطبة التاسعة
الجواد فلا يبخل ... هذا اعتقاد أهل الحق ومن ادعى سواه فقد أعدل	الخطبة العاشرة
خلق الخلائق وأعمالهم ... " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم "	الخطبة الحادية عشر
أغرق في بحار معرفته قلوب العارفين ... هذه عقيدة أهل الحق وإياك ومذاهب المبتدعين	الخطبة الثانية عشر
مسكن روعات قلوب الخائفين بإيمانه ... وتوخ بإيمانك السنة فقد أفلح من كانت عنوان إيمانه	الخطبة الثالثة عشر
جامع الأموات ... رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق	الخطبة الرابعة عشر
عم العباد بنعمته وارفاده ... يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده	الخطبة الخامسة عشر

الفصل الأول: أجزاء القول في خطب ابن الجوزي " الإفتتاح، العرض، والإختتام "

الخطبة السادسة عشر	محيي من أحب من عباده لمناجاته...وخذ بهذا الاعتقاد، فقد أفلح من جعله سببا لنجاته
الخطبة السابعة عشر	عالم السرائر والأضمار... " يغشي الليل النهار "
الخطبة الثامنة عشر	أحرق في طلب قربه أشباح القاصدين وأفناها...وفارق بإيمانك فرق الضلالة فإن الشيطان أُرداها
الخطبة التاسعة عشر	خلق الانسان من نطفة أمشاجا ... " وخلقناكم أزواجا "
الخطبة العشرون	نصب على وحدانيته من صنعته دليلاً ... " أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا "
الخطبة الحادية والعشرون	ساتر المعائب ... هذا مذهب أهل السنة فإياك ومذهب الأجنب
الخطبة الثانية والعشرون	موقف الغافل ... هذه طريق النجاة فلا تمل عنها وسر في الأوائل
الخطبة الثالثة والعشرون	رب قدير قدر فقدر وأحسن ... واستعد بحفظ اعتقاده جواب منكره ونكيره
الخطبة الرابعة والعشرون	جاد بفضله على واجديه ... هذه عقيدة أهل الحق فاجعلها جوابك حتى تلاقيه
الخطبة الخامسة والعشرون	ذلت لعظمته رقاب الجبابرة وخضعت ... هذا مذهب أهل الحق إياك وفرق الضلالة وما ابتدعت
الخطبة السادسة والعشرون	أوجب الحمد على المرء استحقاقاً ... فقد ارتكب زورا واختلاقا
الخطبة السابعة والعشرون	خالق الأنام ... هذه عقيدة طريق المحققين فمن أراد السلامة فهذا الإسلام

الخطبة الثامنة والعشرون	من آمن به أمن ... هذا اعتقاد أهل الحق والمؤمن كيس فطن
الخطبة التاسعة والعشرون	الأول ولا موجود حاضر ... هذا مذهب أهل الحق وما الجاحد كالمثبت ولا الراقد كالساهر
الخطبة الثلاثون	الواحد الأحد وكل أحد سواه مطلع الأعداد ... ومسلك السلامة سعادة الورد

2-2. موضوعات الخطب:

سنعرج في هذا العنصر على الموضوعات التي دارت حولها الخطب، وهي تنقسم إلى موضوع عام اعتبر الرابط الذي يجمع كل الخطب، وموضوعات ثانوية من حيث كونها تخدم الموضوع العام وتكمله، وسنظهر كل نوع من الموضوعين العام والثانوي من خلال قراءة محتويات الخطب وتقسيم معانيها، بحيث حصل أن احتوت الخطبة الواحدة على أكثر من موضوع، هذا ما دعانا إلى جمع مجموعة تضم أهم المعاني وتصنيفها، مع ذكر الخطب التي ورد فيها كل معنى، كما سنظهر تحت كل موضوع الغاية التي سعى لها ابن الجوزي من خلال إيراده أو تطرقه لموضوعه.

2-2-1. الموضوع العام: التعرف على الله

تظهر كل الخطب مجتمعة موضوع عام ووحيد، هو التعرف على الله، بحيث سعى ابن الجوزي إلى تعريف وتذكير المتلقي بماهية الله تعالى من أجل حسن عبادته والتقرب إليه، وقد برز ذلك من خلال عرضه لمجموعة موضوعات سميها في هذا الجزء من البحث بالموضوعات الثانوية كونها كانت المسؤولة عن إظهار الموضوع العام للخطب.

2- 2- 2- الموضوعات الثانوية:

أهم الموضوعات التي برزت في ثنايا الخطب والتي خدمت الموضوع العام نجد، موضوع ذكر صفات الله تعالى، موضوع إظهار قدرة الله تعالى في خلق وتسيير الظواهر الطبيعية، موضوع إظهار قدرة الله تعالى في خلق البشر، موضوع إثبات وجود الله تعالى وقدمه ووجدانيته وأبديته، وقد اكتسب التفصيل فيها الوجه التالي:

2- 2- 1- موضوع ذكر صفات الله تعالى:

برز هذا الموضوع بكثرة في خطب الكتاب، بحيث نجد ابن الجوزي في عديد الخطب يطنب في ذكر صفات الله تعالى ويفصل في أسمائه الحسنى، فعلى سبيل المثال نجده في الخطبة الثانية يشرع بعد الحمدلة، بتعداد صفات الله تعالى ووجدانيته وقدرته، ومن بين هذه الصفات قوله: "... غافر الزلل، وسائر الخلل، ومقدر الأجل، ورافع العمل، الكريم الحليم الماجد، خالق الخلائق، ومرسي الشواهد، الكريم الرازق، الفاتق الراتق الصمد، القيوم الواحد الفرد من غير عدد، القديم وجوده أول كل أحد، الحي لا إلى انتهاء وأمد، المتعالي عن المساعدة والنصرة والمدد، المنزه في وجدانيته عن وجود الزوجية والوالد والولد..."¹

وعادة ما يتبع صفاته بكلام يوضح من خلاله تلك الصفة ويخصّها، فكلمة " الزلل " في قوله " غافر الزلل " تحيل إلى الوقوع في الخطايا والسيئات والذنوب التي يغفرها الله تعالى ويتوب على عبده إذا ما العبد طلب العفو والغفران، والذنوب نوعان ذنوب كبيرة وهي الكبائر التي تدخل صاحبها جهنم، وذنوب صغيرة يغفرها الله تعالى بالاستغفار والتوبة، فالله عز وجل يغفر الزلل أو الخطايا الصغيرة في حين للكبيرة شأن آخر، أي أن ابن الجوزي حين قوله غافر الزلل يوضح نوع الزلل والمقصود به الخطأ.

ويقول في هذا الشأن: " ذلك أن من هفا هفوة لم يقصدها ولم يعزم عليها قبل الفعل ولا عزم على العود بعد الفعل، ثم انتبه لما فعل فاستغفر الله كان فعله وإن دخله عمداً

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص101.

في مقام الخطأ، مثل أن يعرض له مستحسن فيغلبه الطبع فيطلق النظر ويتشاغل في حال نظره بالتذاذ الطبع عن تلمح معنى النهي، فيكون كالعائب أو كالسكران، فإذا انتبه لنفسه ندم على فعله فقام الندم بغسل تلك الأوساخ التي كانت كأنها غلطة لم تقصد، فهذا معنى قوله تعالى: > إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ < النساء: 123، فأما المداوم على تلك النظرة المردد لها فكأنه في مقام متعمد للنهي مبارز بالخلاف، فالعفو يبعد عنه بمقدار إصراره¹

كما نجد في قوله " خالق الخلائق " يدخل في دائرة كلامه عامة الخلق أي خلق الله تعالى لكل الخلائق على وجه الأرض من متحرك وجماد وحيوان ونبات وبشر، وكذا خلق السماء والنجوم والكواكب والشمس والقمر والمطر والرياح والحرارة والبرودة وكل ما ينزل من السماء إلى الأرض، فكل ما تبصره العين وما لا تبصره، وكل ما تسمعه الأذن وما هو فوق طاقة سمعها، وغيرها من الحواس من خلق وإيجاد الله تعالى خالق الخلائق كلهم أجمعين.

كما يشرع في الخطبة الثالثة في التفصيل في بعض أسماء الله الحسنى التي تعتبر بدورها صفات، من هذه الأسماء: الأول، الآخر، الحي، الحاكم، العادل، المحيط، يقول: " ... الأول ولا زمان، الآخر ولا أكوان، الباقي ولا إنسان، الحي لا بطبائع وحدثان، القديم الأزلي لا إلى حد وأوان، الحاكم بما يشاء لا عن ظلم وعدوان، العادل في قضائه لا بجور وطغيان، المحيط علمه بكل شيء وجل عن السهو والنسيان، البصير بجريان الدم في عروق الجثمان، السميع لهفيف الورق على الأغصان، الموصوف بالكمال المنزه عن الزيادة والنقصان²

فقد احتوى التفصيل الذي لحق بأسماء الله الحسنى على عبارات توضيحية لهذه الأسماء، فاسم الله المتمثل في " الحاكم " أتبعه ابن الجوزي بعبارة " بما يشاء لا عن ظلم وعدوان " وهي توضح أن الله تعالى قد تنزه عن ظلم عباده وعن الاعتداء عليهم

¹ ابن الجوزي: صيد الخاطر، تح: محمد عبد الرحمن عوض، وأحمد إبراهيم زهوة، دار الكتاب العربي،

بيروت لبنان، 2005، ص130.

² ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص102.

وهو الذي يحكم بينهم بالحق، وإذا نزلنا إلى الحاكم من البشر وجدناه يعتمد في حكمه على شرائع نصّ عليها كتاب الله تعالى وعلى قوانين اعتمدها البشر كمرجع لكل حكم مهما تنوعت صفاته، فهو إذن لا يحكم بين الناس من تلقاء نفسه، زيادة على هذا، فهو قد يخطئ في حكمه سواء سهواً أو متعمداً ذلك انحيازاً منه لمصلحة ما، وهي صفات في البشر، كونهم غير معصومين من الخطأ، وذو أوزار وذنوب، إلا أن الله تعالى فوق كل هذه الأمور، فهو الذي يحكم بين عباده لا عن ظلم وعدوان.

كما نجده في الخطبة الرابعة يصف الله تعالى ويتبع وصفه بتوضيح يقول فيه: "... الحى بحياة منزهة عن عوارض الآفات والخطر، العالم فسيان في علمه ما بطن وما ظهر، المرید لإيمان من آمن وكفران من كفر، القاضي بما شاء فكل جار في خلقه بقضاء وقدر، السميع لهدير الحمام على متون الشجر، البصير بحركات الذر في سواد الليل إذا اعتكر..."¹، ذلك أن أسماء الله الحسنى تحتاج معظمها إلى التفسير لا لعدم فهمها، إنما كي تزيد المتمعن فيها فهماً، وبالتالي تعرفاً أكثر على الله وعلى قدرته في الأرض والسماء وفي خلق مخلوقاته، وبالتالي تقربه أكثر من الله تعالى وتمنحه زيادة في الإيمان والطاعة والعبادات شكراً لله على كل النعم ظاهرة وباطنة.

فاسم الله جل جلاله والمتمثل في " البصير " يحيل إلى حاسة البصر أو الرؤية، ومن معانيها أن الله تعالى مطلع على أفعال عباده وعلى سرائر نفوسهم، أي ما ظهر منهم وما بطن، إلا أن من معاني اللفظة في الخطبة ما يظهر إعجاز الله تعالى وقدرته العظيمة كونه يرى حركات الذر في سواد الليل المتعكر، وتحيل لفظة الذر إلى أصغر وحدة أو جزيئة في تركيب الأشياء وهي لا ترى بالعين المجردة، فما بالك برؤيتها في سواد الليل المتعكر، إذن وحده الله تعالى القادر على كل ذلك، فهو البصير بما تبصره عين البشر وبما لا تبصره

كما نجد ابن الجوزي في خطبة أخرى، ينتقل بعد سرد قصة آدم لذكر صفات الخالق، وأولها غفّار الذنوب كونه في سياق الحديث عن زلة آدم عليه السلام مع

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص103.

شجرة الجنة وغفران الله له ذنبه، يقول: " ... ومن للذنوب والجرائم إلا الغفار، الأول ولا سابق، الآخر ولا مطابق، الفاعل ولا شاقق، الخالق ولا سواه خالق، الصمد القيوم العزيز القهار، المرید لما في الوجود من ايمان وكفر وشقاء وسعود، المعبود وباطل سواه كل معبود، الموجود وكل موجود غيره مفقود، المرئي في القيامة بهذه النواظر والأبصار"¹.

فقد وجدنا ابن الجوزي في سياق الخطبة يذكر غفران الله تعالى لزلة آدم والمتمثلة في أكله من الشجرة التي نهاه الله تعالى عن الأكل منها، وقد وردت قصة آدم عليه السلام مع شجرة الجنة في القرآن الكريم في أكثر من موضع، منها ما نجده في سورة الأعراف حيث قال الله تعالى في كتابه العزيز: > وَ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَرَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وَّرِي عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (22) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (24) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (25) <²، كما تتجسد صفة الغفار من خلال قول الله تعالى: > فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ <³

كما أورد ابن الجوزي في الخطبة العاشرة بعض صفات الله تعالى والتي يرفقها دائما بتفصيل بسيط، نجد منها قوله: " ... الجواد فلا يبخل، الحليم فلا يعجل، القديم الذي ليس له بداية، والأول الباقي الذي لا يغني ملكه ولا يتحول، موضح الدلائل على

¹ ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص106.

² سورة الأعراف: الآية: 19. 25.

³ سورة البقرة: الآية: 37.

وحدانيته، ومن يشك فليتأمل، وموعد عباده بالعطايا السنوية ومن أحب فليعمل، ومستدعي خواص خلقه فمن طلبه لم يكسل، المؤلف عطاؤه، المخوف عذابه "1 إلى غيرها من الأوصاف.

فالجود صفة لله، تمثلت في عدم بخله عز وجل بالعطايا والنعمة، والجلم صفة لله تمثلت في تأنيه عز وجل وعدم التسرع أو الاستعجال في القرارات تجاه خلقه > إِنَّ اللَّهَ يُمِهُلُ وَلَا يُهْمِلُ <، والقديم صفة لله تمثلت في صحة وجوده، ودليل ذلك في قدم خلقه ومخلوقاته، والباقي صفة لله تمثلت في عدم زواله عز وجل فهو: > الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ <2.

وقد تعددت وتنوعت صفات الله تعالى في خطب الكتاب، نذكر منها على السريع: " ... القديم الحليم الخالق، وقاسم الآجال، وعالم الأحوال، وقابل الأعمال، ومبدع الأشكال، الكريم الرحيم الرازق...الواحد لا من عدد وحساب، الباقي لا إلى أمد وذهاب، الفاعل لا بعلل وأغراض وأسباب، المنزه عن الأشكال والأمثال والأضراب، المتعالي عن النظير والمشارك والمشاقق، الناظر...، السميع...، العالم...، القادر...، المرید...، المخوف ... "3

كذلك قوله: "... القادر القاهر الذي لا يرام، القديم في الأزل قبل تتابع الأيام، الباقي على تعاقب الدهر بغير انعدام، الحي بحياة منزهة عن حدث الأجسام المتعالي عن الكلال المنزه عن المنام، الممجد في بقاءه عن الفناء المعظم في إيراده عن الانقسام، السميع لاختلاف نغم هديل الحمام، البصير بحركة الذر تحت ادلهمام الظلام، الخبير التقدير البصير العلي العلام، المتكلم بكلام قديم أعجز بفصاحته كل كلام، المزيد فمن سلم إلى إرادته نال مراتب الكرام "4

1. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص110. 111.

2. سورة البقرة: آية الكرسي.

3. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص115. 116. 117.

4. المصدر نفسه، ص131.

يمكننا القول إن صفات الله تعالى قد احتلت جزءاً لا بأس به في الخطب، فصفاته عز وجل ثابتة وجب على العبد التعرف عليها والإيمان بها، يقول ابن الجوزي في صيد الخاطر: "... وصفاته صدق والإيمان بها في القلوب واقع"¹، كما يقول: "... ومن جدد إثبات الصفات فقد عطل"²، بحيث سعى إلى تعريف المتلقي بماهية الله تعالى كي يزداد العابد في عبادته تقرباً وشكراً ويكف العاصي عن معصيته خوفاً وخشية منه عز وجل.

2-2-2-2- موضوع خلق الكون وتسيير الظواهر الطبيعية:

نجد ابن الجوزي في عديد الخطب يقوم بالحديث عن قدرة الله تعالى من خلال إظهار ملكوته في الأرض والسماء، بحيث نجده يذكر في إحدى الخطب قدرته في رفعه السماء وبسطه للأرض وخلقه للنجوم والشهب يقول: "... رافع السماء بغير أعمدة ولا أركان، وساطح الأرض على الماء مهادا للحيوان، وخالق النجوم في الفلك السريع الجريان، مرسل الشهب لرجم كل شيطان، ومقدر سير الخنس وجاعل { الشمس والقمر بحسبان }"³، وفي نفس المعنى يقول: "... رافع الأفلاك الدائرة عبرة للمتفكرين، ومزينها بالنجوم الزاهرة للعاملين، ومقدر طلوعها وغروبها حكمة للمعتبرين، كل ذلك من عجائب عالم العلوم وفي الأرض آية للموقنين"⁴

كما نجده في موضع آخر من الكتاب يضيف لما ذكره سابقاً قدرة الله تعالى في خلق الكواكب والأفلاك وكذا خلق الشمس والقمر يقول: "... رافع السماء بالقدرة القاهرة، ومزينها بالكواكب الثابتة والسائرة، ومسيرها بتقدير السير إلى الأفلاك الدائرة، وخالق الشمس والقمر بالوحدانية الباهرة، مسبغ نعمه على خلقه باطنة وظاهرة"⁵، كما يقول كذلك: " رافع السماء بغير علائق سبعاً طباقاً، ودحا الأرض وجعل الجبال أوتاداً

¹. ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص110.

². المصدر نفسه، ص111.

³. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص102.

⁴. المصدر نفسه، ص113.

⁵. المصدر نفسه، ص104.

وأطواقاً، قدّر سير النجوم بالقدر المعلوم غرباً وإشراقاً، وأسرى الشمس والكواكب الخنس اتصالاً وكمالاً ومحاقاً¹

وقد انتقل ابن الجوزي بعد أن تحدث عن زينة السماء من كواكب ونجوم وأفلاك وشهب، إلى الحديث عن زينة الأرض وبالتحديد ظاهرة الرياح التي تؤدي في النهاية إلى نزول المطر، يقول في موضع من إحدى الخطب: "... يرسل الرياح العاصفة الثائرة، بشرى بين يدي رحمته إلى الأرض العامرة، حتى إذا أرخت السحب عزاليها قاطره، أضحكت ببكائها الأرض الميتة الدائرة، وأضحت لمطوي أسرار السحاب ناشره، وعادت كمائم النبات لودائع النور زاهره، وحركت متون الغصون بالثمار فغادرتها بعد الذبول خضرة ناضرة، ومالت إليها ورق الحمام المستكنة والطائرة، وحنّت إليها القلوب فعطفت نحوها الأبصار ناظرة"²، وهنا يفصل في حديثه حول ظاهرة الريح التي تؤدي إلى المطر، والتي تؤدي بدورها إلى إزهار النبات وإثمار الشجر، وهو يسوق كلامه في أسلوب جميل وبسيط.

كما نجده يتحدث في موضع آخر من الخطب عن قدرة الله تعالى في ظاهرة الليل والنهار، يقول: "... مزين السماء بزينة الكواكب، ومجريها بالتقدير بين طالع وغارب، ومطلعها من أقطار المطالع كالكواكب، ومظهر أنوارها بادلهمام الغياهب، ومقدرها بالطلوع بالساعات والدرج والدقائق، فكأن السماء على الثرى قبة عسجدية مغطاة بحلة لازوردية، وكأن النجوم تماثيل أشكال ياقوتية، أحكمت في تمثيلها بقدرة ربانية، القبة لم تدنسها أيدي الحدث ولا نالتها المطارق، ترتفع بالظلام ستورها، ويظهر بالغسق بعد الشفق نورها، ويغيب نبراسها فتضحك لأفوله ثغورها، وتضن أن قد أمّنت من الزوال وسلّمت من العوائق، حتى إذا بهرت العيون بضياؤها الباهر، وخطرت في طلب حقائق كيائها الخواطر، وخفقت بسرعة سيرها خفوق النواظر، وأزهرت في مراكزها إزهار النبات الناضر، وانتظمت كواكب المجرة بينهما انتظام المخانق، عطفت عليها غائرة

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص130. 131.

². المصدر نفسه، ص105.

عساكر النهار، وثار عليها الفجر طالباً للثأر، وغار منها القمر فطلع بعد أن غار، فأخذت جيوشها في الهزيمة والفرار...¹

ويكمل ابن الجوزي في شرح الظاهرة الربانية متفنناً فيها بشتى فنون البيان والمجاز والاستعارة إلى أن يقول: " وكل هذه الخلق والآثار دلالة على وحدانية القديم الجبار، وبرهان يعتبر به ذوو الفطن والأفكار، وطريق نظر واستدلال يعرف به أهل الاعتبار"² كما يتطرق في إحدى أخريات خطبه إلى الحديث عن فصل الشتاء، فيفصل في المراحل التي يمر بها طقس هذا الفصل في أسلوب جميل وعبارات مسجوعة، يقول: "... رافع الشمس بقدرته في أوج الفلك الدوار، ومقدر سيرها بالدقائق والدرج في الطلوع والغروب والاستتار، وجاعلها آية مبصرة في النهار، حتى إذا حفت بها النجوم ابتلاها بالغيوم فأخذت في السرار، وترنمت حداة الرعود فأزهر الغصن بعد الذبول والخمول والانكسار، وهطلت دموع السحاب بالانتحاب فجرى بوابل الأمطار، ولعبت به الرياح فانبسط وساح في فساح القفار، وأومض برقه من خلاله ودقه يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، عارضه الشمال وقد استكمل في جيش كرار، فبرز من كمينه الربيع فثار كطالب ثأر، فثار عليه التقشيع فأخذ منه بثأر..."³، ويكمل ابن الجوزي شرح الظاهرة الربانية المتمثلة في فصلي الشتاء والربيع إلى أن يقول: " كل ذلك دلالة على قدرة الواحد القهار وبرهان على نقل الأنام من هذه الدار إلى تلك الدار، ودليل يعتمد عليه أهل البصائر والاعتبار أنه هو الخالق لهذه المخلوقات والموجد لهذه الآثار"⁴

كما نجده يقول في ظاهرة الريح والمطر: "... وتزلزلت لهيبته صم الصخور وتصدّعت، حث السحاب السائرة بالرياح فتألفت واجتمعت، وأجراها بتقدير السوق في فسح العلو فارتفعت، وزجرها بالرعود القاصفة فزمرت وأبرقت ولمعت، أرسلها إلى الأرض الموات فأغرقت حياضها وأترعت، وفرّقتها من بعد ما لفقها فتفرقت في الأقطار

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص115. 116.

². المصدر نفسه، ص117.

³. المصدر نفسه، ص120.

⁴. المصدر نفسه، ص121.

وتشعشعت، وابتسمت ثغور الأرض فأبدت ودائع زهرها وأطلعت... إله ارتاعت
لسطوته أرواح البرية وجزعت¹

2- 2- 2- 3- موضوع خلق الله تعالى للبشر:

برز هذا الموضوع في ثنايا الخطب، بحيث يظهر فيه ابن الجوزي قدرة الله تعالى في خلق الأجنة في الأرحام، وفي تسيير البشر في حياتهم ومماتهم، وفي كل ما يتعلق بهم من أحوال، ومن الخطب التي تطرقت لهذه المعاني الخطبة الحادية عشر، بحيث تدور معانيها حول قدرة الله تعالى في خلق البشر من حيث جمال صورهم واستواء أشكالهم وحسن طبائعهم، يقول بعد الحمدلة: "... خلق الخلائق وأعمالهم، وأبدع صورهم وأفعالهم، ونوع صفاتهم وذواتهم وأشكالهم، وقدر حياتهم ومماتهم وآجالهم، وعلم أسرارهم وإضمارهم وأحوالهم، وسمع دعاءهم ونداءهم وسؤالهم، ونظر حركاتهم وسكناتهم وانتقالهم..."²، وقد خصّ من هؤلاء البشر طائفة المؤمنين بالعبادة والهداية، يقول: " اختص منهم طائفة لمعاملته وهذب خلائقهم، ووسمهم بوسم معرفته وقطع من سواه أشغالهم، وكشف لهم بلطف العناية ستور الهداية وجلالهم،... إن قريبهم من بابه أعذب بمناجاته وصالهم، وإن أقبل عليهم فأعرضوا قطع بالطرد أوصالهم،... علم ضعفهم في قصده فخفف أثقاليهم، وأحاط بصدق افتقارهم إليه فجعل عليهم اتكالهم فيما خصّهم ونالهم، وقال في محكم كتابه: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)³."

كما يتجلى الموضوع الذي بين يدينا في الخطبة الثالثة عشر، ففيها تظهر قدرة الله تعالى في مراحل خلق الإنسان منذ كان جنينا إلى حين لقاء ربه عند السؤال، يقول: " تفرّد بفطرة صورة الجنين في ظلمة أحشائه، وأبدع في تسوية بنانه واعتنى بتلفيق أجزائه، وتسهيل كلامه وبيانه، وحركه برياح الطلق حين أن أوان إتيانه، وأخرجه إلى دار التكليف لإظهار عرف عرفانه، ونقله في درج الحياة يقطع ساعاته وأزمانه،

¹ ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص 129. 130.

² المصدر نفسه، ص 111. 112.

³ المصدر نفسه، ص 112.

وأوضح له سبل معرفته بإقامة دلائله وبرهانه، وجعل غاية بقاءه إلى فنائه وتمزق جثمانه، وأزعجه بالرحيل وجزّعه كأس الانتقال عن أوطانه، وانتزع عواري دنياه فلم يحظ منها بغير أكفانه، وأفرده بعد أنسه بإخوانه في لمّ لحده وديدانه، وخلا بمنكر وسؤاله ونكير وافتتانه، وساكن ما قدّم في منزل يوانس من في مكانه، ثم أعاده بعد أن أباده لعرض صحيفته وديوانه ¹

كما نجده يقول في الخطبة التاسعة عشر متحدثاً عن الإله جلّ جلاله في خلقه للإنسان: "... الذي خلق الإنسان من نطفة أمشاجاً، وجمع بقدرته عنصراً وطباعاً ومزاجاً، وجعل بحكمته وعلمه لمسلك دمه عروقاً وأوداجاً، وقدّر أخلاق حركته في ظلمة بشيمته هدواً وانزعاجاً ²

ولا يتوقف الحديث عند ابن الجوزي في إظهار قدرة الله تعالى في خلق البشر، بل يتعداه إلى إظهار قدرته تعالى في خلق أبو البشرية وهو سيدنا آدم عليه السلام، بحيث يقوم ناظم الخطب في الخطبة السادسة وبعد الافتتاح مباشرة، بسرد قصة آدم عليه السلام، يقول: " وكرّم آدم وعلمه الأسماء، وتوجّه بتاج الجلال والافتخار، عجن طينته وصنعه، ولقّق أجزاءه وجمعه، وارتضاه للأمانة وأودعه، وخصّه بمخاطبته وأسمعه، وخلق له من صلصال كالفخار، أظهره من الوجود إلى العدم، وأسجد له ملائكته وأخدم، وأطلعه على علم الأسماء وأفهم، ورفع قدره بالتشرفّ وعلم، واصطفاه على سواه بما عزّفه من الأسرار، رتع في رياض مؤانسته، فامتدت إليه يد عدوه لمنافسته، فعصى فوضع تاج رياسته، وخالف الجبار، وأخرج من دار القرار، بسط لسان الاعتذار بما جنى، ومدّ يد الافتقار لنيل المنى، ونصب سرير الندم ببادية العنا، وكتب في قصة الاستغفار " رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا "، ووقف على قدم الانكسار بباب الانتظار، فنظر مولاه ذلّه بين يديه، وصدق قصده وافتقار إليه، فوقع له بما أقرّ به عينيه، ثم اجتباه ربه فتاب عليه ³

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص114.

². المصدر نفسه، ص123. 124.

³. المصدر نفسه، ص106.

2- 2- 2- 4- موضوع التفصيل في وجود الله تعالى وقدمه ووحدانيته وأبديته:

يعتبر هذا الموضوع موضوع حاجي كون ابن الجوزي يحاول فيه إثبات وجود الله تعالى، ففيه تظهر أفعال الله جلّ وعلى في كل مخلوقاته وفي الأرض، والتي لا يشاركه فيها أحد من العالمين، من هذه الأفعال ما يظهر في الخطبة الأولى، يقول: "...ربّ حكم فعدل في حكومته، وقسم فعمّ بكرمه وموهبته، وتفضّل فشمّل مستحق لطفه برحمته، وتفرّد بقدمه وبِعِزّه وعظّمته، وتوحّدون خلقه بتفرّد قدرته وسلطنته، صوّر ودبّر وقدّر فكل شيء بمشيئته، ورزق ووهب وفطر وخلق وكل شيء من صنعته، ليس له شريك في مملكته، وليس معه مدبر في قضيته... ثبت بدليل حدث خلقه قدم ربوبيته، وتقدس في وصف نفسه عن تشبيهه وكيفيته"¹

كما يشرع ابن الجوزي في خطبة أخرى وبعد الحمدلة بالحديث عن الإله من خلال إثبات وجوده، يقول: "...الأول ولا زمان، الآخر ولا أكوان، الباقي ولا إنسان، القادر ولا أعوان...المعروف قدمه بكل جنان"²

كما نجد في الخطبة الرابعة قوله: "...التقديم في الأزل ودليل ذلك واضح لإيجاد بريته ظاهر لمن نظر، الباقي على الأبد وبرهان ذلك بإعدام خلقه باهر لمن اعتبر، الموجود قبل كل موجود وجد وظهر، الدائم بعد كل مفقود عدم وغير"³

ويقول كذلك: "... الحمد لله الثابتة أدلة قدرته ووجوده، الشاملة أطاف كرمه وجوده، الواضحة آيات شهوده، الظاهرة عقوبات جوده، الواجب على البرية حفظ عهوده، الناطق بمعجزاته تقدم وجوده، نطق بتوحيده الجماد بصلده والحجر بجلموده، والبحر بحيتانه والبر بأسوده، والفلك بدورانه والسحاب بركوده، والليل بظلامه والصبح بعموده، وإن من شيء إلا يسبح بحمده في حركته وسكونه وقيامه وقعوده"⁴

¹. ابن الجوزي: عجب الخطاب، ص100.

². المصدر نفسه، ص102.

³. المصدر نفسه، ص103.

⁴. المصدر نفسه، ص107.

وقد أثبت ابن الجوزي قدم الله تعالى من خلال خلق الأرض والسماء والفلك، ذلك أن خلق الأرض والسماء كان سابقاً عن خلق الإنسان، فقد سخر الله تعالى للبشر كل وسائل الحياة من أرض وماء ونبات وحيوان، كلها لخدمة البشرية التي جعلها الله تعالى معمرة للأرض وخدمة لها وساكنة فيها، يقول تعالى في محكم كتابه: > وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ <¹، كما يقول في نفس السورة: > وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ لِّإِنِّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ <²

وكلها آيات على قدم الله تعالى وخلقه للبشر وللحياة التي سبقت حياة البشر من أفلاك وسماوات وأراضي، يقول: "... خالق الصامت والناطق والجامد والمائع، والرازق للمؤمن والكافر والعاصي والطائع، القديم الثابت قدمه بالدلائل القواطع"³، يقول كذلك: "... خالق النهار بأنواره، والليل بسواده، والغيث بأمطاره، والسحاب بإرعاده، والبحر بحركته والبر بجماده، والفلك بسيرانه والثرى بمهاده، لا شريك معه في صنعته وخلقه وإعداده، ولا ثاني يشفعه في وحدانيته وانفراده، القديم قبل الكون وأباده، الباقي بعد الدهر ونفاده"⁴

وقد وجدنا ابن الجوزي يثبت ويؤكد قدرة الله تعالى ووحدانيته في خلق كل موجوداته يقول في الخطبة السادسة عشر: "... وأبان برهان إلهيته في موجوداته، وأوضح دليل قدمه بإحداث مبتدعاته، شهدت العقول بتوحيده وتنزه ذاته، وأمر المنقول برفع تشبيهه وإثبات صفاته، القديم في الأزل قبل الزمان وساعاته، الباقي على الأبد بعد إفناء الكون ومحدثاته، الحي فلا فناء يعرض لبقائه ولا زوال يدخل على حياته"⁵

1. النحل: الآية: 5. 6. 7.

2. النحل: الآية: 12.

3. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص110.

4. المصدر نفسه، ص118.

5. المصدر نفسه، ص119.

كما يقول في خطبة أخرى: "... جلاله أزلي لا جلال يساويه، وبقاؤه أبدي لا فناء يعتريه، وانفراده ثابت لا نفيه، وسلطانه ظاهر لا نخفيه، الأول قبل الكون وساكنيه، الآخر على الأبد بعد الدهر وأهليه، الحي فلا فناء يدخل على حياته فينفيه"¹، ويقول كذلك: "... القديم في الأزل قبل تتابع الأيام، الباقي على تعاقب الدهر بغير انعدام، الحي بحياة منزهة عن حدث الأجسام، المتعالي عن الكلال المنزه عن المنام، الممجد في بقائه عن الفناء المعظم في إيراده عن الانقسام"²

2-3. خواتم العرض:

قد بيّنا سابقا في الجدول الذي عنوانه بحدود العرض بدايات ونهايات ثاني عنصر من عناصر الخطبة وهو العرض، فتحدثنا فيما سبق عن بدايات العرض، وأن أواننا الآن إلى أن نتحدث في النهايات التي تخص العرض، بحيث إن مما نلاحظه في نهاية كل عرض للخطب أن ابن الجوزي عادة ما ينهيها بخواتم حجاجية تظهر إعجاز الله تعالى في الأمور أو الموضوعات المذكورة، وقد تمثلت هذه الخواتم إما في آيات قرآنية، وفي عديد الحالات في نصيحة دينية، أو على شكل علاقة بين السبب والنتيجة، ثم نجده بعد هذا كله يلج مباشرة في اختتام الخطبة النهائي، ولزيادة في التفصيل نورد أولى أشكال الخواتم مع بعض الأمثلة الخاصة بها، وذلك فيما يلي:

2.3.1. الخواتم التي على شكل آيات قرآنية:

من خواتم العرض التي وردت على شكل آيات قرآنية قول ابن الجوزي: "... وخصّ محمدا بسماع كلامه حين قال في نص القرآن: > الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ <، أحمدته..."³، وقد اقتبس الآية من القرآن الكريم، وبالتحديد من سورة الرحمن، الآية: من 1 إلى 4، والتي أشار فيها الله تعالى إلى رحمته بخاتم النبيين محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وذلك بتحفيظه للقرآن وتعليمه الفهم والبيان،

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص 128. 129.

². المصدر نفسه، ص 131.

³. المصدر نفسه، ص 103.

وقد اقتبس ابن الجوزي هذه الآية مستغلاً إياها كوسيلة حجاجية، مقنعاً من خلالها المتلقي بصحة الفرضية أو الفكرة التي قام بذكرها في العرض، والمتمثلة في أن الله تعالى قد خصّ محمداً صلى الله عليه وسلّم بسماع كلامه وهو القرآن الكريم، وذلك حين يقول: [وخص محمداً بسماع كلامه].

كما نجده يورد في خاتمة عرض خطبة أخرى قوله: " ... دليل على ذلك قوله تعالى: < إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ >، أحمد...¹، وقد اقتبس الآية الكريمة من سورة هود، الآية: 103، والتي بيّن فيها الله تعالى أن في مخلوقاته وموجوداته آية ودليل على عظمته تعالى وسلطانه، كما أنها آية لمن خاف عذاب الآخرة، وقد اقتبس ابن الجوزي هذه الآية موظفاً إياها كوسيلة حجاجية، ومقنعاً بواسطتها متلقي الخطبة بقدرة الله العظيمة التي لا تضاهيها قدرة، والتي تتجلى مظاهرها في تسيير الله تعالى للكون بالدقائق والثواني والساعات.

كما يبين أن الله تعالى لا يشاركه في ملكوته هذا إله غيره، فهو وحده لا شريك له الخالق والمصور والمدبر، وقد أورد ابن الجوزي قبل الآية الكريمة قوله: " كل ذلك دليل على إحياء العظام الناخرة، وآية على إعادة الأنام من أرض الفناء إلى الأرض الساهرة، دليل على ذلك قوله تعالى² ثم ذكر الآية من سورة هود، فهو يستدل بكل مظاهر الطبيعة المذكورة في العرض، على قدرة الله تعالى في إحياء الموتى ليوم البعث لمحاسبتهم على أفعالهم في الدنيا، وقد استعان بالإضافة إلى أقواله الحجاجية بالآية القرآنية مثبتاً ومقنعاً المتلقي بصدق ما جاء به.

وقد أورد ابن الجوزي في خاتمة عرض آخر، في خطبة أخرى قوله: " ... والمستأنس بمناجاته غير مقاطع، والمتجافي وسادته فيه موصوف بقوله: < تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ >، أحمد...³، وقد اقتبس الآية الكريمة من سورة السجدة، الآية: 16، والتي بيّن فيها الله تعالى ملازمة أولياء الله لموضعهم حين صلاتهم

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص105.

². المصدر نفسه، ص105.

³. المصدر نفسه، ص110.

ودعائهم وذكرهم وتضرعهم، وقد اقتبس ابن الجوزي هذه الآية مستغلاً إياها كوسيلة حجاجية، مقنعاً من خلالها المتلقي بصحة الفرضية أو الفكرة التي قام بذكرها في العرض، والمتمثلة في أن الله تعالى قد نظر لعبده الصالح الذي لا يذهب تعبته وفعله الحسن هباءً منثوراً، بل يجازى من عند الله تعالى عليه، ودليل ذلك ذكر الله له ووصفه عز وجل لحاله في كتابه الحكيم، وكله ناتج عن محبته ووداده.

كما يقول في آخر عرض إحدى الخطب: " ... كل ذلك دلالة على قدرة الواحد القهار، وبرهان على نقل الأنام من هذه الدار إلى تلك الدار، ودليل يعتمد عليه أهل البصائر والاعتبار أنه هو الخالق لهذه المخلوقات والموجد لهذه الآثار، > وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ <، أحمدته...¹، وفي القول اقتباس من القرآن الكريم، وبالتحديد من سورة الرعد، الآية: 3، وفيها يبين الله تعالى أفعاله في الأرض من حيث مده للأرض التي بعث منها الأنهار الطاهرة مياهها، والتي تسقي الأشجار التي تثمر أغصانها كل ما لذ وطاب من الثمار، وقد وظف ابن الجوزي هذه الآية بغرض تعريف المتلقي بخالق الكون وموجد الآثار والمخلوقات، وكذا من أجل إثبات وتعزيز أقواله التي جاء بها، والتي ذكرت قبل الآية ببرهنة، والمتعلقة بقدرة الواحد القهار في خلقه للمخلوقات وإيجاده للآثار، وكذا نقله للأنام من أرض الدنيا لأرض البعث والآخرة.

ويقول في آخر عرض إحدى الخطب: " ... ومن أعرض عن سلامته حضي بندامته يوم تكون الجبال كثيباً مهيباً > أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا <، أحمدته...²، وفي القول اقتباس من القرآن الكريم، وبالتحديد من سورة الفرقان، الآية: 24، وفيها يبين الله تعالى المكانة التي وهبها الله لعباده الأتقياء، وهي الجنة التي تمثل خير مستقر لهم، وقد استعان ابن الجوزي بهذه الآية لأغراض حجاجية، تمثلت في إثبات المآل والنتيجة والأجر الذي يناله عباد الله إذا ما هم أحسنوا له، بالتقرب منه بالعبادة والطاعة والعمل الصالح، والذي أظهره في عرض الخطبة، كما وأظهرت أقواله

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص121.

². المصدر نفسه، ص125.

المكانة التي يؤول إليها المعرضون عن الله والبعيدون عنه، وهي الخسارة والندامة يوم الآخرة.

2. 3. 2. الخواتم التي على شكل علاقة بين السبب والنتيجة:

من خواتم العرض التي وردت على شكل علاقة بين السبب والنتيجة، قول ابن الجوزي: " ... من عدل عن خدمته أصبح بصارم عقوبته قتيلاً، ومن أعدل بصدق طاعته نال عند رجعته ظلاً ظليلاً، ومن استروح اليوم بمعصيته حمل يوم محاسبته حملاً ثقيلاً، ومن أعرض عن سلامته حضي بندامته يوم تكون الجبال كثيباً مهيباً...أحمده...¹، وفي القول إشارة من ابن الجوزي إلى بعض النتائج التي يصير إليها بعض الأشخاص لأدائهم بعض الأفعال التي اعتبرت أسباباً أدت لتلك النتائج، ومعظمها تحوي ذكراً للمآل الذي يؤول إليه كل من المتبع أو المخالف لقول الله تعالى، فبعد العبد عن عبادة الله تؤدي به إلى القتل، وطاعته تعالى تؤدي إلى نيل الظل الظليل في الجنة، وقضاء وقت الفراغ في المعصية يؤدي إلى حمل الذنوب الثقيلة على كاهل صاحبها، وإعراض العبد عن دين الإسلام يؤدي به إلى الشعور بالندامة يوم العرض.

وتشتمل كل هذه الأمثلة في تركيبها على علاقة بين سبب معلوم يؤدي إلى نتيجة معلومة، وقد جاء بها ابن الجوزي في آخر العرض لغرض محدد، بحيث قد فصل في صدر العرض في ملكوت الله تعالى، فتحدث عن خلقه للمخلوقات وللإنسان، كما تحدث عن خلقه للكون ففصل في مكوناته، وتحدث عن الطبيعة ففصل الكلام وأطنب في وصف جمالها وإتقانها وروعة فصولها، وقد ختم تفصيله هذا بالحديث عن العباد، وإظهار النتيجة التي ينالونها إذا ما هم تمعنوا في ذلك الملكوت وعرفوا فضل موجدته، وشكروه عليه.

كما إن من خواتم العرض التي وردت على شكل علاقة بين السبب والنتيجة، قول ابن الجوزي: " ... من أثبت الاستواء والنزول فالنص في ذلك أكبر شهوده، ومن رد

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص125.

المنقول بالمعقول رضي عن صحيح الاعتقاد بمفسوده، ومن تلقى وارد الأثر بالتصديق تمسك من الإيمان بعموده، هذا مذهب أهل الحق فتيقظ له ودع المبتدع برقوده، أحمدته...¹، إذ تظهر في القول مجموعة أسباب تؤدي إلى مجموعة نتائج، منها أن إثبات العبد لاستواء الله تعالى على العرش وصحة نزوله إلى سماء الدنيا تؤدي به إلى الفوز بمرضاة الله تعالى، وذلك أن نص القرآن الكريم يشهد له يوم القيامة بإيمانه بالله وبصفاته، كما إن من حكّم عقله في مسائل الدين دون الاعتماد الأعمى على ما نقل عن كل الأولين دون معرفة الصالح من الفاسد، نال صحيح الاعتقاد وابتعد عن الفاسد منه، ومن صدّق الأثر الصالح وأتبعه، تمسك بعمود الدين، وكل هذه الأسباب والنتائج دعوة من ابن الجوزي إلى التمسك بالدين الصحيح وعدم اتباع أهواء النفس الأمارة بالسوء.

ومن خواتم العرض كذلك التي وردت على شكل علاقة بين السبب والنتيجة، قول ابن الجوزي: "... هذه عقيدة كل مسلم موحد في عقيدته، فمن تبع غير قولي فقد هوى وضل في بدعته، شهدت لربي بتوحيده...²، وفي القول ذكر لسبب وحيد أدى إلى نتيجة وحيدة، ويتجلى ذلك في قوله [فمن تبع غير قولي فقد هوى وضل في بدعته]، إذ يقوم ابن الجوزي في صدر العرض بالتعريف بالله تعالى وبصفاته وأسمائه وأفعاله، والتي تتضمن دعوة المتلقي للإيمان بها والتمعن فيها، وشكر الله تعالى عليها، وهو يخاطب المتلقين في المثال الذي أوردناه تواءً، ويدعوهم لضرورة اتباع الأقوال التي جاء بها في صدر العرض، في حين أن من لم يتبعها فقد هوى وضل، أي اتبع النفس الأمارة بالسوء والتي تجره للضلالة والغياب.

كما إن من خواتم العرض التي تحمل نفس العلاقة المذكورة قول ابن الجوزي: "... هذا اعتقاد أهل الحق، ومن ادعى سواه فقد أعدل، أحمدته...³، إذ يتمثل السبب في عدم اتباع الحق، والذي يؤدي إلى النتيجة المتمثلة في الشرك بالله، ولقد أورد ابن

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص 108.

². المصدر نفسه، ص 100.

³. المصدر نفسه، ص 111.

الجوزي هذه الخاتمة لا ليبين المآل الذي يؤول إليه المخالفين لمنهج الحق، بقدر ما يدعو فيه لاتباع هذا المنهج وعدم الزيغ عنه، ففي القول دعوة ضمنية للتمعن في منهج الله، والذي فصل فيه في عنصر العرض، ومن معطياته الإيمان بالله تعالى والتصديق بصفاته والتفصيل في بعض منها، وكذا الإيمان بكلامه الذي أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، واتباع قواعد منهجه ودينه الإسلام، كما ويبين من خلال القول النتيجة المترتبة عن السبب المذكور، والتي تمثل الشرك بالله، ويتضمن والعياذ بالله الشرك بوجوده وبصفاته وبقرآنه وبأنبيائه، وهو ما لا يسامحه الله تعالى كونه من كبائر الذنوب.

وفي نفس السياق يقول ابن الجوزي في خاتمة عرض آخر من خطبة أخرى: "... سمعه وبصره صفتان فمن أنكرهما فبفساد دينه وتزويره، وكتابه ونبيه حجتان ومن ردهما فرده طريق تكفيره، هذا اعتقاد من حرس من إفرار شيطانه تغيره"¹، وفي القول ذكر لسببين أديا إلى نتيجتين، تمثل السبب الأول في إنكار صفتي الله تعالى والمتمثلتين في السمع والبصر، والذي يؤدي إلى النتيجة المتمثلة في فساد الدين، كما تمثل السبب الثاني في عدم قبول القرآن الكريم والرسول الذي أنزل عليه وهو محمد صلى الله عليه وسلم، والذي يؤدي إلى الكفر بالله وبما أنزل من الرسل والكتب.

وفي القول رسالة من ابن الجوزي موجهة إلى متلقي الخطبة، يدعو فيها إلى الإيمان بصفتي الله تعالى والمتمثلتين في السمع والبصر، وإدراك العبد مراقبة الله تعالى له في كل أفعاله وأقواله، في السر والجهر، وفي الخفاء والعلن، وأن الله تعالى يمهل عبده ويمنحه فرصة التوبة والاستغفار وذلك من أجل مسامحته على أفعال السوء التي قام بها، واستبدال سيئاته بالحسنات، كما يدعو ابن الجوزي المتلقي من خلال العلاقة الثانية إلى الإيمان بالرسول الكريم وبكتابه الكريم، واتباعه والاقتران به في أفعاله وأقواله، وقد جسّد الرسول صلى الله عليه وسلم خلق القرآن الكريم: قال تعالى: " وَإِنَّكَ

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص128.

لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ¹، ويندرج تحت خلق القرآن كل آداب الإسلام وشرائعه، وعلى المتلقي التمعن في هذا القرآن، والافتداء بأخلاق نبيه صلى الله عليه وسلم.

2. 3. 3. الخواتم التي على شكل نصيحة:

ومن خواتم العرض التي وردت على شكل منح نصيحة للمتلقي قول ابن الجوزي: "... هذه عقيدة أهل الحق وإياك ومذاهب المبتدعين، أحمده...²، وقد فصل ابن الجوزي في العرض في العقيدة الصحيحة للمسلم، والتي تتضمن الإيمان بالله تعالى وبصفاته وأفعاله في الأرض وعلى العباد، وكذا التصديق بكلامه وأنبيائه، وأشار في آخر العرض إلى أنها تمثل أسساً للمنهج الحق ولطريق الخير، ثم وجّه دعوته للمتلقي مخاطباً إياه عن طريق أسلوب النهي المعبر عنه بأداة [إياك]، وتتضمن هذه النصيحة الدعوة إلى الابتعاد عن مذاهب المبتدعين، وعدم اتباعهم، وفي المقابل التمسك بالمذهب الحق وهو الإسلام دين السلام.

كما إن من الخواتم التي وردت على شكل نصيحة قول ابن الجوزي داعياً المتلقين إلى التمسك بكتاب الله وبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، يقول: "... ونؤمن بما قاله نبيه وتلاه في قرآنه، دع المعطل بحرمانه، والمجسم بخذلانه، وتوخ بإيمانك السنة فقد أفلح من كانت عنوان إيمانه، أحمده...³، وقد تطرق ابن الجوزي في القول الذي سبق النصيحة إلى أصول الدين التي تحدث عن تمسكه بها بواسطة الضمير المستتر [نحن]، والذي يظهر من خلال الأفعال: نثبثُ، نطلعُ، نؤمنُ، ثم نجده يغير مسار القول من خلال توجيه نصيحة للمخاطب، وتظهر من خلال ضمير الأمر، وفي الأفعال: دعُ، توخَّ، والتي يدعو فيها المتلقي إلى الابتعاد عن رفقاء السوء واتباع السنة لأنها تؤدي بصاحبها إلى الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، ونجده يقول في نفس

¹. سورة القلم: الآية: 4.

². ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص113

³. المصدر نفسه، ص115.

السياق وفي خاتمة عرض خطبة أخرى: " ... دع المشبه بغفلاته، والمعطل بمحالاته،
وخذ بهذا الاعتقاد فقد أفلح من جعله سبباً لنجاته، أحمدته...¹"

وقد ضمّن ابن الجوزي النصيحة كذلك في قوله: " هذه سبيل أهل النجاة فاحتفظ بها
فقد خاب من ينساها، وفارق بإيمانك فرق الضلالة فإن الشيطان أرداها، أحمدته...²،
وتشتمل هذه النصيحة على الدعوة إلى الاحتفاظ بسبيل أهل النجاة ومفارقة فرق
الضلالة، ويقول في خطبة أخرى، وفي نفس السياق: " ... من ظن أن التوحيد في
التعطيل لم يظفر في الإيمان بطائل، ومن طلب سبيل النجاة سلم علم المنقول إلى
الناقل، ومن أحب إصلاح العقيدة لم يصغ بسمعه إلى قول متحامل، هذه طريق النجاة
فلا تمل عنها وسر في الأوائل، أحمدته...³"

كما إن من الخواتم التي وردت على شكل نصيحة ضمنية قول ابن الجوزي متحدثاً
عن الإله: "...المألوف عطفه وبره، الواجب توحيده وشكره، رب السماوات والأرض وما
بينهما ورب المشارق، أحمدته...⁴ وهو يدعو ضمناً إلى توحيد الله وشكره على النعم
التي أنعم بها العباد في قوله [الواجب توحيده وشكره].

3. الاختتام في الخطب:

بعد أن طفنا بعنصر العرض في الخطب، آن الأوان الى أن ننتقل إلى آخر أجزاء
الخطبة وهو الاختتام، إذ يعتبر هذا الأخير آخر أجزائها، وقد سمي اختتام لأن به يختم
الكلام أي ينتهي، وفيه خلاصة كل الخطبة

3. 1. حدود الاختتام:

نظهر في الجدول الآتي حدود الاختتام، من أين يبدأ؟ وأين ينتهي؟ وهي موضحة
كالتالي:

¹. ابن الجوزي: عجب الخطب، ص119.

². المصدر نفسه، ص123.

³. المصدر نفسه، ص127.

⁴. المصدر نفسه، ص117.

الفصل الأول: أجزاء القول في خطب ابن الجوزي " الإفتتاح، العرض، والإختتام "

حدود الاختتام	رقم الخطبة
شهدت لربي بتوحيده.....وسلمّ وشرفّ وكرمّ	الخطبة الأولى
أحمده حمد من وجل من التقصير.....وشرفّ وكرمّ	الخطبة الثانية
أحمده على ما أولانا من الإحسان.....أصحاب العصر والزمان	الخطبة الثالثة
أحمده حمد عبد أنعم عليه فشكر.....وشرفّ وكرمّ	الخطبة الرابعة
أحمده على نعمه السابغة الغامرة.....إلى الآخرة	الخطبة الخامسة
أشكره على ما أنعم به وجاد.....وسلمّ وشرفّ	الخطبة السادسة
أحمده حمد مجتهد في حفظ عهوده.....وشرفّ وكرمّ	الخطبة السابعة
أشكره على ما أنعم به وألهم.....يا عم	الخطبة الثامنة
أحمده على الإنعام المتتابع.....السحاب الهامع	الخطبة التاسعة
أحمده على ما أنعم منه وخوّل.....الزمان الأطول	الخطبة العاشرة
أحمده ما وضح لعباده وأبدى لهم.....إقبالهم	الخطبة الحادية عشر
أحمده إذ جعلني برحمته من الموحدين.....وشرفّ وكرمّ وعظّم	الخطبة الثانية عشر
أحمده على ما أنعم من تعريفه وتبينانه.....والنجم بسيرانه	الخطبة الثالثة عشر
أحمده على نعمه وفضله.....وسلمّ وشرفّ وكرمّ	الخطبة الرابعة عشر
أحمده على عطفه ولطفه وإسعاده.....والرّكن بورّاده	الخطبة الخامسة عشر
أحمده على ما أنعم من فضله وكفائاته.....بدعواته	الخطبة السادسة عشر
أحمده حمداً أمل به الفوز بدار القرار.....ورميت الجمار	الخطبة السابعة عشر

الفصل الأول: أجزاء القول في خطب ابن الجوزي " الإفتتاح، العرض، والإختتام "

أحمده حمداً أوّمل به من مراتب الزيادة أقصاها.....وسلّم وشرفّ وكرمّ	الخطبة الثامنة عشر
أحمده إذ وصل إلي بنور الإيمان ابتهاجاً.....وشرفّ وكرمّ	الخطبة التاسعة عشر
أحمده على نعمه بكرة وأصيلاً.....وشرفّ وكرمّ	الخطبة العشرون
أحمده على ما منح من الصبر على المصائب.....وشرفّ وكرمّ	الخطبة الحادية والعشرون
أحمده على إنعامه وفضله الشامل.....غمام هائل	الخطبة الثانية والعشرون
أحمده في عسير أمره ويسيره.....بإكرامه وتوقيره	الخطبة الثالثة والعشرون
أشكره على عطائه الذي لا أحصيه.....في بنيه	الخطبة الرابعة والعشرون
أحمده على أياديها التي عمّت واتّسعت.....وتمتّعت	الخطبة الخامسة والعشرون
أحمد ربي إذ رفق بي عطفاً وإشفاقاً.....وادفاقاً	الخطبة السادسة والعشرون
أحمده على ما أعمني به من الإنعام.....الأيام	الخطبة السابعة والعشرون
أحمده حمد معتمد على فضله مرتكن.....وهتن	الخطبة الثامنة والعشرون
أحمده لعموم إنعامه السابغ الغامر.....وشرفّ وعظّم وكرمّ	الخطبة التاسعة والعشرون
أحمده وأوحده حمداً أعده للأهوال الحداد.....وسلّم وكرمّ وصل على محمدٍ المكرم.	الخطبة الثلاثون

يتكوّن الاختتام عند ابن الجوزي من ثلاثة أجزاء هي البداية والوسط والنهاية، فكل جزء من الأجزاء الثلاثة لا تقل أهمية عن الأخرى، ذلك أن لكل منها خصائص ومكونات وغايات خاصة، وفيما يلي تفصيل لكل هذا.

3. 2- بداية الاختتام:

مما نلاحظه من فاتحة اختتام الخطبة الأولى أنه مخالف لكل افتتاحات الخطب الثلاثين، ذلك أن صيغة " أحمده " هي الصيغة الرئيسية فقد ظهرت في ست وعشرون خطبة بينما وظّف ابن الجوزي صيغة " أشكره " ثلاث مرات فقط ، وذلك في الخطبة السادسة التي من غير حاء والخطبة الثامنة التي من غير دال، والخطبة الرابعة والعشرون التي من غير ميم، وهم ثلاثة حروف توفروا في صيغة الحمد ما دعا إلى استبدالها بصيغة الشكر، أما إذا عدنا إلى فاتحة اختتام الخطبة الأولى التي من غير ألف فإننا نجده يبتدئ بقوله: " شهدت لربي " وهي عبارة لا تحوي الحرف الأول للعربية.

3. 3- وسط الاختتام:

يتكوّن عموم الاختتام عند ابن الجوزي من:

- حمد الله وشكره على جلّ النعم:
- التوكل على الله
- شهادة أن لا إله إلا الله
- شهادة أن محمداً رسول الله
- الصلاة على رسول الله وعلى صحابته وعلى من ينتسب إليهم
- نكر ما تيسر من الدعاء

وهو لا يسوق كلامه كيفما شاء، إنما يتّبع فيه الاستراتيجية التي ذكرناها سابقاً وهي استراتيجية تغييب حرف من الحروف في كل خطبة، وتشمل هذه الاستراتيجية كل أجزاء الخطبة من بدايتها إلى نهايتها، بحيث نجد ابن الجوزي يوظف كل مكونات الاختتام التي ذكرناها تواءمًا، إلا أن التعبير عنها يختلف من خطبة إلى أخرى، إذ نجد ابن الجوزي يختار من الألفاظ ما يتناسب مع الحرف المغيب.

من المكونات التي حوتها تقريباً كل اختتامات الخطب أننا نجده ابن الجوزي يبدأ خاتمه أو اختتامه بحمد الله، ذلك أن حمد الله واجب في كل حديث سواء في بدايته أو

في نهايته، ثم نجده يتوكل على الله ويصلي على رسول الله وعلى صحابته ومن ينتسب إليهم من أقرباء، ثم يدعو بما شاء من الدعاء، هي مكونات توفرت تقريباً في كل اختتام.

ويكمن الاختلاف كما قلنا في انتقاء الألفاظ التي تناسب الاستراتيجية المتبعة، فإذا ما عدنا إلى إحدى الخطب التي غيّب فيها ابن الجوزي حرف الباء وجدناه يقول عند اختتامها: " أحمده حمد من وجل من التقصير، وأشكره على الكثير واليسير، وأتوكل عليه في التسهيل والتعسير، وأؤمن أن إليه المرجع والمصير، وأسأله أن يحشرنى على أوضح المناهج وأنهج المقاصد، وأشهد أن لا إله إلا الله لا شريك معه ولا ثاني في وحدانيته يشفعه، وأشهد أن محمداً رسوله إلى الأمة، صلى الله عليه وعلى آله وخليفته في صلاته، وضجيعه في مماته ومؤنسه في مخافته، وعلى وزيره ومشيره عمر الذي أحيا عدله الإسلام وعمر، واشتهر عدله في نصرة الدين وظهر، وعلى ذي النورين عثمان جامع القرآن، وعلى صهره ذي الأخلاق الزكية والوعود الصادقة الوفية، وعلى عمّه جد الخلفاء الأخيار، خلد الله دولة خلافتهم ما أفل نجم نازل، وظهر هلال صاعد، وشرف وكرم¹، وقد تكررت الصلاة على رسول الله وعلى صحابته في كل الخطب مصحوبة بأفعالهم وخصالهم ومآثرهم، وهي تساق بأساليب جميلة وألفاظ عذبة ومختارة بعناية شديدة، لتحقيق الغايات التي سعى ابن الجوزي إليها.

فإذا عدنا إلى الخطبة التي غيّب فيها ابن الجوزي حرف الدال وجدناه يقول في اختتامها: " أشكره على ما أنعم به وألهم، وأستغفره مما هو به أعلم، وأستعينه على صعوبة اليوم الأعظم، وأسأله إعانتني على هول مآتم، وأؤمن أن نبيه أبا القاسم خاتم الأنبياء، أفضل أهل الأرض والسماء، وشفيع الرسل ورئيس الأصفياء، صلى الله عليه ما أخبر مخبر فصيح ونم، وعلى أول الخلفاء المخصوص بالرحمة والرأفة، أبي بكر أبي قحافة²

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص101. 102.

². المصدر نفسه، ص109.

فالمتمعن في لغة الخطبة يدرك أن ابن الجوزي قد كنى الرسول عليه الصلاة والسلام بأبي القاسم، وذلك لاحتواء لفظة " محمد " على حرف الدال الذي قام بتغييره في كل الخطبة، كما أنه حذف من اسم " أبي بكر الصديق " لفظة " الصديق " لاحتوائه كذلك على حرف الدال.

ونفس الأمر قد حصل مع خطب أخرى، بحيث إذا ما عدنا إلى الخطبة التي من غير لام وجدناه يقول في اختتامها: " أحمدته في عسير أمره ويسيره، وأشهد أنه رب رغب في نعيمه وحذر من سعيره، وأشهد بنبوة عبده ونبيه وبشيره ونذيره، شرفه بمقام قربه ودنوّ رفعتة وتوقيره، وأتبعه بصديقه ومؤنسه وضجيعه ووزيره، وفاروقه ومعزّه ومشيره، وزوج ابنتيه ومجهز جيش عسرتة وحافر بئرّه، وبأخيه وابن عمّه ومن خصّ بمؤاخاته يوم غديره، وبعمه وصنوّ أبيه حين أمر بإكرامه وتوقيره"¹

فالمتمعن في لغة الخطبة يدرك أن ابن الجوزي قد تجنب كل الكلمات التي تحوي حرف اللام منها حرف الجر { على } الذي استبدله ب حرف الجر { في } يقول: " أحمدته في عسير أمره ويسيره " بدل أن يقول: " أحمدته على عسير أمره ويسيره " ، كذلك تجنب لفظة { الله } التي استبدلها بلفظة { رب } يقول: " وأشهد أنه رب رغب في نعيمه وحذر من سعيره " بدل أن يقول: " وأشهد أنه لا إله إلا هو " أو " وأشهد أن الله قد رغب في نعيمه.. "، كما أنه تجنب لفظة { رسول } واستبدلها بلفظة { نبي } يقول: " وأشهد بنبوة عبده ونبيه وبشيره ونذيره " بدل أن يقول: " وأشهد أن محمداً رسول الله بشير الأمة ونذيرها "

3.4- نهاية الاختتام:

عادة ما تنتهي اختتامات خطب الكتاب بكلمات يمكن أن نسميها لازمة، كونها لزمّت وتوفرت تقريباً في معظم الخطب، من هذه الكلمات: " وشرف "، " وكرم "، " وسلّم "، " وعظّم "، وهو يغيرها من خطبة إلى أخرى لتتناسب الاستراتيجية التي امتاز بها الكتاب، كما أنه في أحيان أخرى يستغني عنها نهائياً لأغراض أخرى، منها أنها لا

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص128.

تناسب المعاني التي طرحها في الخطبة، أو أنها لا تتناسب مع الاستراتيجية التي اتبعتها.

مجموع الخطب التي توفرت فيها هذه اللازمة في نهاية اختتامها هي ثلاثة عشر خطبة، فقد ظهرت في الخطبة الرابعة عشر على منوال " وسلّم وشرف وكرم "، وهي عبارة تابعة لقول ابن الجوزي في ثنايا الاختتام: " أحمده على نعمه وفضله، وأستعينه على أفضيته وعدله، وأؤمن بتفرده في حكمه وفعله، وأعتقد أن ليس في الوجود كمثلته، وأشهد أن لا إله إلا الله إله أقرّ بربوبيته كل ساكت وناطق، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله ونجم الكفر قد حان أفوله، وربيع الإيمان قد درست طولله، فسلام الله عليه وتحيته، وعلى آله وخليفته، وعلى فاروق الإسلام وحسام الانتقام، وسراج أهل الجنة الكرام، وكافل الأرامل والأيتام، وعلى ذي النورين الشهيد، ذي الرأي السديد والفعل الحميد، وعلى الأخ المقارب والشهاب الثاقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وعلى عمّه العباس ذي الخلق الرضي والفضل الأبوي والحسب الزكي، الذي أرخت بدعوته السحب عزاليها بالقطر المتدافق، وسلّم وشرف وكرم"¹

أي أن الله تعالى قد صلى على الرسول عليه الصلاة والسلام وعلى آله وخليفته وعلى الفاروق وذي النورين وعلى علي بن أبي طالب والعباس، وسلّم عليهم وحيّاهم بتحية الإسلام، كما أنه تعالى شرفهم وفضلهم على بقية البشر وبالأخص نبيه الكريم محمد عليه الصلاة والسلام والذي فضّله بالرسالة وبهداية البشر لطريق الصواب، وكرّمهم بحسن الخلق وعلى رأسهم الرسول الكريم الذي هو على خلق عظيم، يقول تعالى: " وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ"²، من هنا جاءت عبارة " وسلّم وشرف وكرم "، أي أنها مرتبطة إلى حد كبير بالمعاني التي ضمّنت في الاختتام.

ونفس الأمر قد حصل في الخطبة التي جاء فيها قول ابن الجوزي: " أحمده على نعمه بكرة وأصيلا، وأشهد أن لا إله إلا هو شهادة أطلب بها من الحق مقاما جليلا،

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص 117. 118.

². سورة القلم: الآية: 4.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله اختصه بشيرا ونذيرا وحبیباً وخليلاً، صلى الله عليه وعلى أبي بكر الصديق الذي جرد على عنق التكذيب بتصديقه حساما صقيلا، وعلى عمر بن الخطاب الذي كمل الله به الإسلام تكميلاً، وعلى عثمان ذي النورين الذي قام بالقرآن ليلاً طويلاً، وعلى علي بن أبي طالب الذي أباد المشركين قبيلاً قبيلاً، وعلى عمه وصنو أبيه العباس الذي جمع من مناقبه حسباً جميلاً، وشرف وكرم¹، فكل من تجب لهم الصلاة من صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام ابتداءً بأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وانتهاءً بالعباس، قد شرفوا وكرموا من الله تعالى وعلا شأنهم بين العرب المسلمين فصاروا قدوة لمن بعدهم.

كما نجد ابن الجوزي في بعض الخطب يضيف لازمة " وعظم "، فمن الاختتمات التي أتت على صورة " وشرف وكرم وعظم " قول ابن الجوزي: "... أحمدته إذ جعلني برحمته من الموحدين، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة ادّخرها لنشر الدواوين ووضع الموازين، وأشهد أن محمداً عبده ونبيه أفضل الأولين والآخرين، بعثه إلى الخلق كافة للتحذير والإنذار والتبيين، وأمره بإظهار شرفه فقال < وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ >، صلى الله عليه وعلى آله وصاحبه أبي بكر الصديق أفضل الأنصار والمهاجرين، ومن أخبر النبي بفضله على الخلق بعد النبيين، وعلى ابن الخطاب صاحب دار الخيزران ومكمل الأربعين، وعلى عثمان بن عفان العالم العابد الصبور الأمين، جامع الكتاب، وخليفة المحراب، ومجهز جيش المؤمنين، وعلى علي بن أبي طالب حجة المتقين، وحاطم الأوثان وقاتل المشركين، وعلى عمه وصنو أبيه وجد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، صلاة دائمة واصلة إلى يوم الدين، وشرف وكرم وعظم²

يذكر ابن الجوزي في هذا الاختتام صلاة الله تعالى على الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وتشريفه له بالرسالة المحمدية وبهداية البشر لطريق الخير والصلاح، كما يذكر تكريم الله تعالى للنبي بالأخلاق الحسنة وصفاء قلبه من كل سوء، كما أنه تعالى عظمه فجعل خلقه وشأنه عظيم بين المؤمنين وبين البشر من أول

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص125.

². المصدر نفسه، ص113. 114.

الخلق إلى يوم الدين، ولم تقتصر الصلاة والتسليم والتشريف والتكريم والتعظيم على رسول الله فقط، بل تتعداه في هذا الإختتام إلى آله وصاحبه أبي بكر الصديق، وعلى عمر بن الخطاب، وعلى عثمان بن عفان، وعلى علي بن أبي طالب، وعلى عم الرسول الكريم، كلهم صحابة الرسول ورفقاؤه في دعوة الناس إلى دين الله، ومحاربة المشركين الذين يزرعون الفتنة في نفوس المسلمين، ويحاولون إفسادهم بمعتقداتهم الخاطئة.

عدد الخطب التي لم يوظف فيها ابن الجوزي هذه اللوازم هي سبعة عشر خطبة من مجموع الخطب الثلاثين، إذ أنهى فيها الناظم الخطبة مستغنياً عن كل صور الصيغ التي ذكرناها توأماً، يقول في إحدى اختتامات هذه الخطب: "... أحمده على عطفه ولطفه وإسعاده، وأشهد أن لا إله إلا هو باعث الخلائق لمعاده، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أكرم أنبياءه ورسله وعباده، صلى الله عليه وعلى أبي بكر الصديق أول من هاجر معه من بلاده، وعلى فاروقه عمر بن الخطاب معز الإسلام بعدله وفتوحه وأجناده، وعلى زوج ابنتيه عثمان بن عفان مضني الأوقات بأذكاره وأوراده، وعلى أخيه علي بن أبي طالب هازم جيوش الملحدين بنزله وطراده، وعلى عمّه وصنو أبيه العباس الذي جعل الله من ورائه الخلافة لأولاده صلاة دائمة ما استتار البيت بزوّاره، والركن بورّاده"¹

كما يقول في آخر: "... أحمده على إنعامه ولطفه الشامل، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة أعتها ليوم الخطب النازل، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله من أشرف المناسب والقبائل، صلى الله عليه وعلى صاحبه الصديق المرافق الموافق الباذل، وعلى الفاروق العادل، وعلى عثمان المقتول ظلماً ولم يقاتل، وعلى علي بن أبي طالب ذي المراتب والمناقب والفضائل، وعلى عمّه وصنو أبيه العباس أبي الخلفاء الراشدين الأفاضل، صلاة دائمة ما استبق حمام حافل، واندفق غمام هائل"²

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص 118. 119.

². المصدر نفسه، ص 127.

ذكر ابن الجوزي في الاختتامين المذكور نصهما أنه كرم النبي محمد عليه الصلاة والسلام بين الأنبياء، فجعله رسول البشرية وخاتم الأنبياء، كما أنه ذكر أن الله تعالى قد شرف نسبه صلى الله عليه وسلم، فاختره من أشرف المناسبات والقبائل ليكون قدوة بأخلاقه وبمعاملاته، ولقد ذكر ابن الجوزي تكريم الله تعالى للنبي وتشريفه له ضمن معاني الاختتام دون أن يخصهما بلازمة في آخر الخطبة مثلما فعل مسبقاً، يقول: "... وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أكرم أنبيائه ورسله وعباده"، وقال: "... وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله من أشرف المناسبات والقبائل"، كل هذا يضيف على مجموع الخطب خاصية التنوع التي تبعد عن القارئ الملل وتحبذه في القراءة، كما تجعله يكتشف القوالب المتنوعة التي صيغت بها معاني الخطب.

يمكننا القول عن هذه اللوازم التي وظفها ابن الجوزي في أواخر بعض الخطب أنها أضفت جمالية فائقة على الخطب، فهي تمثل بصمة خاصة بابن الجوزي لم نشهدها عند غيره، كما أن من وظيفتها أنها تكمل المعاني التي أتى بها ابن الجوزي في الاختتامات، كالسلام على الرسول الكريم وعلى صحبه بتشريفهم وتكريمهم وتعظيمهم، وفي الوقت نفسه، وجدناها تعبر عن نهاية الخطبة بطريقة بلاغية جميلة، وما زادها جمالاً أنها تكون دائماً مصحوبة بحرف العطف " الواو " الذي يمنحها هو كذلك نغماً موسيقياً عذباً.

كما إن مما سعى ابن الجوزي إلى تحقيقه في ثنايا الخطب، وبالتحديد في ثنايا الاختتامات أن يضع بصمته الخاصة على نهاياتها دون أن يخل بالاستراتيجية التي اتبعتها منذ البداية، فالنهايات الجميلة التي تحدثنا عنها تواءم بها ناظم الخطب كيفما شاء، إنما شاهدناه يذكرها في خطبة ويتناساها في أخرى، ويضمّن إحداها في خطبة والأخرى في خطبة أخرى، كما وجدناه في خطب أخرى يستغني عن كل اللوازم.

أكثر اللوازم انتشاراً في الخطب هي التي تأتي على صورة " وشرف وكرم"، فهي التي يكثر ابن الجوزي من توظيفها، فقد برزت في إحدى عشر خطبة من مجموع الخطب الثلاثة عشر التي تحتوي على لوازم، فتارة ترد على الصورة التي ذكرناها،

وتارة يضيف لها ابن الجوزي اللازمة التي تأتي على صورة " وعظّم "، " وسلّم "، إلا أننا عادة ما نجده يغيرها في الخطب التي غيّب فيها الحروف المكوّنة لهذه اللوازم، فإما أنه يتخلى عنها نهائياً أو أن يستبدلها بلازمة أخرى توافق مقتضى حاله، والمطلّع على الجدول الذي وضعناه سابقاً يدرك كل الصور التي أتت عليها اللوازم.

. هفوات الكتاب:

هناك خطب ذكر فيها ابن الجوزي أنه غيّب حرف معين إلا أنه ذكره سهواً، وهو إن حدث فإنه يحدث مرة في كل خطبة، أي أن الهفوة لا تتكرر في ثنايا الخطبة، وهو ما يشير إلى أن الخطأ ربما قد حصل في مرحلة طبع الكتاب النهائية، ذلك أن من طبع الكتاب من المخطوط قد وضع في الخطبة الأولى إشارة في كلمة " هوى " في قوله: " فمن تبع غير قولي فقد هوى وضلّ في بدعته " ¹ إلا أن كلمة هوى التي تحتوي على الألف المقصورة قد وردت في الخطبة التي غيّب فيها ابن الجوزي حرف الألف، وهي إحدى سقطات الكتاب، يقول المحقق في نفس الصفحة: " كلمة هوى سقطت في ب "، إلا أن المحقق في الخطبة العشرون والتي غيب فيها ابن الجوزي الفاء لم يشر إلى الهفوة التي حصلت، فقد استعمل لازمة " وشرف " التي تحتوي على حرف الفاء، يقول في آخر الاختتام: " ... وعلى علي بن أبي طالب الذي أباد المشركين قبيلاً قبيلاً، وعلى عمّه وصنو أبيه العباس الذي جمع من مناقبه حسباً جميلاً، وشرف وكرم " ²، كما لم يشر المحقق إلى الهفوة التي حصلت في الخطبة السابعة والعشرون، فقد ورد حرف الواو في آخر اختتام الخطبة التي غيّب فيها ابن الجوزي حرف الواو يقول: " ... صلاة دائمة ما طلع نجم في ظلام، على ممر الساعات وتعاقب الأيام " ³

ما نلاحظه من مواقع الهفوات غير المشار إليها أنها حصلت في أواخر الاختتامات، وبالتحديد في آخر تركيب في الخطبة، أشياء تدعونا للقول بأن ناظم الخطبة قد لحقه التعب والإرهاق من كثرة التمحيص في انتقاء الألفاظ الملائمة للمعاني

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص100.

². المصدر نفسه، ص125.

³. المصدر نفسه، ص132.

المختارة، فتعمد التعبير سليقة عن غرضه، أو أنه سها ولم يتعمد ذلك، كما يمكننا تأويل الأمر على أن ابن الجوزي قد تخلى في آخر بعض الخطب عن الاستراتيجية التي انتهجها في الخطبة، واعتبر آخر العبارات التي حوت الحروف المغيبة غير معنية بالاستراتيجية المذكورة، كما أن من المرجح القول بأن الهفوات قد وقعت في آخر مراحل طباعة الكتاب.

قمنا في هذا الفصل بالبحث في مجموع الخطب الثلاثين من حيث أجزاء القول فيها، ففصلنا الحديث في الإفتتاح والعرض والإختتام، فقمنا في عنصر الإفتتاح بإظهار مفهومه وكذا وظيفته النفعية والجمالية على مستوى الخطب، بعدها قمنا باستخراج إفتتاح كتاب " عجيب الخطب " أو استهلاله، والذي يظهر من خلاله الهدف أو الغرض من الخطب، ففصلنا في فاتحته وعرضه وخاتمته، ثم قمنا بعدها بالتفصيل في إفتتاح الخطب.

فقلنا في فاتحة استهلال الكتاب . لا الخطب . أنها ابتدأت بالحمدلة، وهي الشائعة لدى معظم الكتاب، وقد تركبت من ثلاثة عناصر أساسية تعتبر طابعاً عند معظم الكتاب، وهي الحمدلة والشهادة والصلاة على النبي وأصحابه وأزواجه، وقد تميزت بطابع ديني محظ، لانتماء الخطب إلى الوعظ الإسلامي، فاختار ابن الجوزي من التحميدات ما يكون مناسباً لمعاني الخطب.

ثم حصل عند ابن الجوزي أننا وجدناه ينتقل بعد استعمال صيغة " أما بعد " إلى الخوض في عرض استهلال الكتاب، وفيه يقوم بالتعبير عن الفكرة الجوهرية التي دار حولها موضوع الكتاب، والتي كانت عبارة عن مفاوضة أجراها ابن الجوزي رفقة زميله، وقد تفاوضا على حروف العربية الثمانية والعشرين، والتي ادعى رفيق ابن الجوزي أن الكلام لا يصح إلا باجتماع مجملها، وقد كان هذا التفاوض مدعى لابن الجوزي لنظم مجموعته خطبه الذي حذف من كل خطبة منها حرفاً من حروف الهجاء، وقد ختم استهلال كتابه بدعاء تمثل في طلب الإعانة من الله عز وجل على تأدية الواجب وسؤاله الجنة والعياذ به من النار.

ثم انتقلنا إلى افتتاح الخطب . لا الكتاب . فاستخرجنا صيغه المتنوعة ودرسنا طبيعته من خلال إظهار حدوده التي تفصله عن العرض، وذلك برسم جدول توضيحي تفصل من خلاله الاستهلال عن بقية أجزاء القول الأخرى، مع إظهار الحرف المغيب في العنصر نفسه وهو الاستهلال، كما قمنا بإظهار معاني الإفتتاح وما اشتمل عليه من مضامين قام ابن الجوزي بإيداعها في فاتحة خطبه ممهداً من خلالها للمتلقي ومستقبلاً إياه للاطلاع على بقية الأجزاء الأخرى، وقمنا في آخر هذا العنصر بدراسة طبيعة ألفاظ الإفتتاح وكذا تراكيبه البانية له.

وقمنا في عنصر العرض بتبيان أهميته في الخطبة لكونه أكبر أجزائها، فهو بمثابة الوعاء الذي حوى كل ما هو جمالي ووظيفي في الخطبة، فبدأنا أول الأمر بظهور حدوده الفاصلة بينه وبين ما يليه من أجزاء للخطبة، وذلك من خلال جدول توضيحي مفصل، ثم قمنا بعدها بالتفصيل في مضامينه أو في الموضوعات التي دارت حولها كل الخطب، والتي تنقسم إلى موضوع عام اعتبر الرابط الذي يجمع كل الخطب والذي وسمناه بموضوع التعرف على الله، وكذا موضوعات ثانوية من حيث كونها تخدم الموضوع العام وتكمله، وقد انحصرت معظم الموضوعات حول: موضوع ذكر صفات الله تعالى، موضوع خلق الكون وتسيير الظواهر الطبيعية، موضوع خلق الله تعالى للبشر، موضوع التفصيل في وجود الله تعالى وقدمه ووحدانيته وأبديته.

كما قمنا بعد الانتهاء من ذكر الموضوعات، بالتفصيل في خواتم العرض، فحددنا الخواتم التي على شكل آيات قرآنية، وكذا تلك التي على شكل علاقة بين السبب والنتيجة، وكذا تلك التي على شكل نصيحة.

ثم انتقلنا بعد الفراغ من كل ذلك، إلى آخر العناصر المكونة للخطبة وهو الإختتام، فبيننا حدوده الفاصلة بينه وبين العرض من خلال جدول توضيحي، كما فصلنا في العناصر المكونة لهذا الإختتام وهي ثلاثة عناصر ممثلة في البداية والوسط والنهاية، أدرجنا في " البداية " الصيغ الختامية التي اشتملت عليها الخواتم بينما أدرجنا في " الوسط " مجموعة المعاني التي حوتها الخواتم من حمد لله، وتوكل عليه، وشهادة به،

وبنبيه محمد صلى الله عليه وسلّم، والصلاة عليه، وعلى آله وصحابه الكرام، وذكر ما تيسر من الدعاء.

وأدرجنا في " النهاية " ذكراً لأهم ميزة امتازت بها تلك الخواتم، والتي تمثلت في بعض العبارات التي قام ابن الجوزي بتكرار إيرادها في معظم الخطب، وقد قمنا بتسميتها باللازمة للزومها لمعظم خواتم الخطب، ومنها عبارات: " وشرف "، و " سلّم "، و " كرم "، و " عظم "، ويختلف ذكرها وترتيب ذكرها من خطبة إلى أخرى مراعاة من ابن الجوزي للحروف المغيبة في الخطب، وقد أضفت هذه اللوازم جمالية لا مثيل لها وتميزاً وتفرّداً للخطبة منقطع النظير.

الفصل الثاني: فنون البلاغة في كتاب "عجيب الخطب"

لابن الجوزي

1- الصور البيانية في الخطب.

2- المحسنات البديعية في الخطب.

تتقسم الفنون البلاغية إلى صور بيانية كان أساسها المعنى ومحسنات بديعية كان أساسها اللفظ، إذ سنفصل في الصور البيانية من خلال استخراج مجموعة عناصر فنية كالتشبيه والاستعارة والكناية، ثم ننتقل إلى المحسنات البديعية فنفصل في مجموع العناصر الفنية التي اندرجت في إطارها، كالتفصيل في الطباق والمقابلة والسجع والجناس، وكذا إظهار بلاغة كل من العناصر المذكورة، وفي الأخير سنورد خاتمة نتحدث عن أهم النتائج التي توصل إليها الفصل وحققها.

1- الفنون البلاغية في الخطب:

تنوّعت الفنون البلاغية وتعددت في خطب الكتاب، وانقسمت إلى صور بيانية ومحسنات بديعية، إذ منها ما يهتم المعاني ومنها ما يهتم الألفاظ، إلا أن كلاهما يضيفان الجمال على النص من حيث معانيها وألفاظها بتأثيرهما في المتلقي عن طريق الانفعال بصورها والإحساس بها، كما تؤثر في المتلقي من خلال فعل المحاجة، وسنوضح في تفصيلنا فيها، الكيفية التي قامت فيها بعملية توضيح المعاني التي بدورها تحقق الفهم لدى المتلقي والاقتران بحضور صورها وحقائقها.

فمن أولى مهام الفنون البلاغية في الخطب والتي يمكن الحديث عنها هي تفعيل الخيال أو المخيلة، إذ: " يولي ميشال ميار الصور البلاغية عناية بالغة وهو على رأي الأب lamy في اعتبارها قاذحة للخيال ومعبرة عن الأهواء الإنسانية، فلهذه الأسباب يعمد الإنسان في ظروف تاريخية ما إلى استعمال عبارات غير معتادة للتعبير عن الطريقة التي تدفعنا بها أهواؤنا إلى تصور الأشياء فالمجاز عند ميشال ميار يخلق المعنى ويصدم كل من لا يشاطر المتكلم وجهة نظره، وهو إلى ذلك طريقة التعبير عن الأهواء والانفعالات والمشاعر التي هي صور من الإنسان مثلما يكون المجاز صورة من الأسلوب"¹.

¹. حمادي صمود: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، نقلا عنه، كلية الآداب منوبة، تونس، ص395.

كما إن من مهام الفنون البلاغية التي تصب في الجانب الآخر منها، أنها تقوم بوظيفة حاجية، ذلك أنها تقوم بتثبيت معاني الجمل من خلال الصور التي قام الناظم بإنشائها وتخليها، إذ: " إن تحليل ميشال ميار لظاهرة المسألة المتصلة ببنية الوجوه البلاغية يتخلله تأكيد على ما تلعبه من دور حاجي، وفي هذا المستوى بالذات يسير على خطى شايم بيريلمان chaim perelman ويستشهد بمقولته المعروفة: [تهدف الوجوه البلاغية إلى إبراز حضور ما وتوكيده أو تلطيفه، كما تجلو للعيان ما قد نفهمه أو نعتبره غير مفيد]، فالوجوه البلاغية عند برلمان تكون ضرباً من الزخرف إذا لم توظف في خدمة الحجاج"¹.

وتعني الخطابة عنده وكذا الحجاج: " اختيار الخطاب دون القوة المادية حتى وإن كان مجال ذلك الإغراء أو الإثارة الحاملة على الفعل، وهذا يعني أن مجال الحجاج المفضل هو الخطابة التي يحددها ميار تحديداً وظيفياً أساسياً، فالخطابة هي مفاوضة المسافة القائمة بين الأشخاص حول مسألة أو مشكل ما"²، ويعني ميار بمفاوضة المسافة: " كيفية تعامل المتخاطبين فيما بينهم إزاء المسائل المطروحة عليهم وما ينجر عن ذلك من اختلاف أو اتفاق أو رغبة في التقارب أو التنافر أو الحياد، وهذه المواقف المندرجة في صلب الحجاج تؤدي إلى استعمال أساليب بلاغية معلومة كما أسلفنا، وهي تحدد أيضاً أشكال بروز المتخاطبين اللغوية كما تحدد كذلك طريقة تشخيصهم للقضايا المطروحة"³.

ويقول [يرنارد لامي Bernard lamy 1640.1715] في شأن الصور أو الفنون البلاغية: " الصور أدوات نستعملها من أجل التأثير في أرواح أولئك الذين نكلمهم، وهي في الفم كالسيف في اليد"⁴، فهي تحقق التأثير في الآخر متلقي الخطاب بتغيير معتقداته ونفسيته تجاه الصورة المعروضة في ثنايا القول، وباختصار: " فالصور تسمح

1. حمادي صمود: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 397.

2. المرجع نفسه والصفحة نفسها.

3. المرجع نفسه، ص 398.

4. حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، ص 259.

بارتباط العقل والانفعال تبعاً لمقدار متغير صعب قياسه، وهي بذلك تسمح بالإحساس والتفكير في الوقت نفسه، لدرجة أن المجاز على وجه الخصوص قد اعتبر شكل لفظي شعري يؤدي وظائف حجاجية ونفسية، كما قد نظر إلى أثره في الذهن والنفس في علاقته بطريقة اشتغاله داخل النص¹

وكما أسلفنا الذكر، فقد انقسمت الفنون البلاغية في الخطب إلى صور بيانية ومحسنات بديعية، إذ يندرج تحت الصور البيانية كل من التشبيه أو التمثيل، الاستعارة والكناية، بينما يندرج تحت المحسنات البديعية كل من الطباق، المقابلة، السجع، والجناس، وفيما يلي تفصيل لكل الصور والمحسنات المذكورة.

1-1- الصور البيانية:

1.1.1. التشبيه:

1.1.1.1. مفهومه:

ورد في معجم لسان العرب في مادة شبه: "الشَّبُّ والشَّبُّ والشَّبِيه: المثل، والجمع أشباه، وأشبه الشيء الشيء: مائله، وشبَّهه إياه، وشبَّهه به: مثله، والمشتبهات من الأمور: المشكلات، والمتشابهات: المتماثلات، والتشبيه: التمثيل"²

وقد وردت عديد التعريفات حول التشبيه إلا أن من تعريفاته الجامعة أنه يمثل: "صورة تقوم على تمثيل شيء (حسي أو مجرد) بشيء آخر (حسي أو مجرد) لاشتراكهما في صفة (حسية أو مجردة) أو أكثر"³

¹. حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، ص 260. 261.

². ابن منظور: لسان العرب، ص 2189.

³. الأزهر الزنّاد: دروس في البلاغة العربية، ص 15.

1.1.1. أمثله:

ومن أمثله قول ابن الجوزي في سرده لقصة نبي الله آدم مع ربه: " ... وخلق من صلصال كالفخار"¹، وفيه يشبه ابن الجوزي الصلصال بالفخار، مستعملاً أداة التشبيه الكاف، ووجه الشبه بين الطرفين هو صلابة الطين التي خلق الله تعالى منها آدم عليه السلام.

كما يقول ابن الجوزي في وصف جمال السماء والنجوم: " ... فكأن السماء على الثرى قبة عسجدية مغطاة بحلة لازوردية، وكأن النجوم تماثيل أشكال ياقوتية أحكمت في تمثيلها بقدره ربانية"²، وفيه يشبه السماء بالقبة ووجه الشبه بينهما هو الارتفاع عن الأرض، كما ويشبه النجوم بالتماثيل ووجه الشبه بينهما هو الثبوت وعدم التحرك.

كما يقول ابن الجوزي في وصف وتصوير روعة وجمال أزهار الربيع واختلاف أشكالها وألوانها، يقول: " ... وأشرق الأترنج في الأغصان كقناديل النضار، وحدق النارنج من الأوراق كمشاعل من نار وتحقق الرمان في صدور الأغصان كنهود الأبكار، وتعلق النبق في عيدانه كتعلق الأزرار"³، إذ يحتوي القول عديد التشبيهات، منها أن ابن الجوزي يشبه ثمار الأترنج بالقناديل ووجه الشبه بينهما هو البهاء والنضارة، كما يشبه زهرة النارنج بمشاعل النار لتشابه ألوانهما، كما نجده يشبه ثمار الرمان في الأغصان بنهود الأبكار، وكتفصيل فإنه شبه الرمان بالنهود والأغصان بالأبكار، ووجه الاتفاق بينهما هو الشكل والحجم، كما وشبه تعلق النبق في العيدان كتعلق الأزرار، وكتفصيل فإنه شبه النبق بالأزرار والعيدان بالثوب، ووجه الشبه بينهما هو كيفية وطريقة التعلق والتي تتمثل في الإتقان والإحكام.

كما وورد التشبيه في حديث ابن الجوزي عن صفات الله تعالى، يقول: " ... السميع فخافي قول عبده كمناداته"⁴، وفيه يشبه خافي القول بالمناداة، ووجه الشبه بينهما هو

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص106.

². المصدر نفسه، ص115. 116.

³. المصدر نفسه، ص121.

⁴. المصدر نفسه، ص119.

إحاطة الله تعالى بكل من سرائر العبد وجهره، فهو تعالى يسمع الخفي من الأقوال كما يسمع مناداة الأشخاص لبعضهم.

ويحضر التشبيه أيضاً في قول ابن الجوزي: " ... هذا مذهب أهل الحق وما الجاحد كالمثبت ولا الراقد كالساهر"¹، وفيه ينفي ابن الجوزي تشبيهه الجاحد لنعم الله تعالى كالمثبت لها والمؤمن بها، فهما لا يتساويان من حيث الفعل والنتيجة، كما لا يتساوى الراقد والساهر، فالراقد ليس كالساهر، من حيث أفعال الطاعة.

وآخر أمثلة التشبيه التي يمكن الحديث عنها ما أورده ابن الجوزي حين حديثه عن تحول الطبيعة من فصل الشتاء إلى فصل الربيع، يقول: " ... وهطلت دموع السحاب بالانتحاب، فجرى بوابل الأمطار، فبرز من كمينه الربيع، فثار كطالب ثار"²، وهو يظهر من خلال عبارة (ثار كطالب ثار)، وفيه يشبه ثوران الربيع على الشتاء وتسابقه للظهور كالشخص الذي يطلب الثأر والانتقام من خصمه أو من عدوه، وهو يستعمل في تشبيه الطرفين بأداة التشبيه المتمثلة في الكاف.

1.1.2. الاستعارة:

1.1.2.1. مفهومها:

تعرف الاستعارة في كونها: "مجاز لغوي علاقته المشابهة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، وهي تشبيه سكت عن أحد طرفيه (هو المشبه عادة) ودكر فيه الطرف الآخر وأريد به الطرف المحذوف، فالمتكلم يستعير لفظ المشبه به ليستعمله للدلالة على المشبه، ثم يرجعه إلى مجاله الأصلي"³، ويقول الجرجاني في شأن الاستعارة: " اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي

¹ ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص133.

² المصدر نفسه، ص120. 121.

³ الأزهر الزنّاد: دروس في البلاغة العربية، ص59. 60.

معروفاً تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلاً غير لازم¹

1.1. 2. أمثلتها:

تجلّت معظم الاستعارات في الخطب التي تحوي ذكراً ووصفاً لمظاهر الطبيعية، بحيث يقوم فيها ابن الجوزي بتصوير الليل والنهار والمطر والربيع والشمس والقمر والأزهار والنبات والشجر والأغصان، كأشخاص وأفراد يتنافسون على الظهور ويتسامرون ويتذاكرون ويتغازلون أيضاً، كما نسب إليهم بعض المشاعر كالغيرة والفرح والثأر والخجل، وقد نقلها للمتلقى بواسطة أدوات فنية جميلة تمثلت في تشبيهات حذف أحد أطرافها لتكتسب حلية جديدة تمثلت في الاستعارة، وهو ما نستطيع أن نسميه بالتفاعل الذي يحدث بين آليات اللغة وارتباطها بمعانيها، بحيث يقول [أ. أ. ريتشاردس Richards] في هذا النحو: " إن التفاعل بين أطراف التمثيل ليشد ويلطف أحياناً فيصبح استعارة، ومعنى هذا أن الاستعارة مشتقة من التمثيل ومنطلقة منه"²، وهو يقصد بالتمثيل التشبيه لأنه يمثل الشيء بالشيء أي يشبّهه، وفيما يلي تفصيل في الاستعارات المتوفرة في الخطب:

يقول ابن الجوزي: " ... حتى إذا أرخت السحب عزاليها قاطرة، أضحكت ببكائها الأرض الميتة الدائرة"³، إذ وردت من خلال القول استعارتين ظهرتتا من خلال عبارة (أضحكت ببكائها)، وهما استعارتان مكنيتان، تمثلت الاستعارة الأولى في (بكاء السحب) وقد ذكر فيها المشبّه وهي السحب وحذف المشبّه به وهو الإنسان، وترك لازمة من لوازمه وهو البكاء الذي هو فعل خاص بالإنسان للتشابه الحاصل بين قطرات المطر ودموع العين، كما ظهرت في العبارة نفسها استعارة مكنية أخرى تمثلت في (ضحك الأرض) لبكاء السحب أو الأمطار، فقد شبه الأرض بالإنسان إلا أنه لم يذكره، بل ذكر لازمة من لوازمه وهي الضحك.

¹. عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان، ص22.

². حمادي صمود: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص342.

³. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص105.

كما إن من أمثلة الاستعارة أيضاً قول ابن الجوزي في حديثه عن فصل الشتاء والربيع: "... وهطلت دموع السحاب بالانتحاب، فجرى بوابل الأمطار (...). فبرز من كمينه الربيع، فثار كطالب ثأر فثار عليه التقشيع فأخذ منه بثأراً، بحيث انقطع ماء دمه المدرار، وضحكت ثغور الأرض بعده لبعده بالنوار"¹، وفي القول خمس استعارات، ثلاثة منهما شبيهات بالاستعارتين المكنيتين المذكورتين مسبقاً، وهم (دموع السحاب) و(ماء دمه) و(ضحكت ثغور الأرض)، وكلها تعبر عن صورة المطر في انهماره على الأرض.

أما بالنسبة للاستعارة المتبقيّة التي احتواها القول، فقد ظهرت من خلال عبارة (ثأر التقشيع من الربيع)، وهي استعارة مكنية، بحيث ذكر المشبه وهو التقشيع وحذف المشبه به وهو الإنسان وترك لا زمة من لوازمه وهو الثأر أو الانتقام، ذلك أنه فعل خاص بالإنسان، وقد نقلت هذه الاستعارة صورة تسابق مظاهر الطبيعة التي تتبع فصول السنة الأربعة، والمذكورة منها في القول هي الربيع والتقشيع مع أمطار السحب.

كما إن من أمثلتها قول ابن الجوزي في حديثه عن تسابق الشمس والقمر: "... وعطفت عليها غائرة عساكر النهار، وثار عليها الفجر طالباً للثأر، وغار منها القمر فطلع بعد أن غار، فأخذت جيوشها في الهزيمة والفرار (...). وزلّت أفراسها بالهزيمة وكبت، وكلت أسياف نورها بالشتات ونبت، فخيم بأقطارها جند الظلام وعسكر"²، ويحتوي القول عديد الاستعارات التي قام ابن الجوزي بنظمها كعقد أو كسلسلة تنتظم وتتتابع فيه حبات اللؤلؤ الواحدة تلو الأخرى، ومنها الممثلة في العبارات التالية: (عساكر النهار)، (ثأر الفجر من النهار)، (غار القمر من الشمس)، (جيوش الشمس)، (انهزمت أفراس الشمس)، (أسياف نور الشمس)، (جند الظلام).

وكلها استعارات مكنية أوضحت صورة تسابق مجموعة مظاهر كالشمس والقمر والليل والنهار على الظهور، وهو يستعين في توضيحها على الخيال فينقل تلك

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص 120. 121.

². المصدر نفسه، ص 116.

المظاهر في صورة حسية ومادية، مظهراً فيها تسابق كل المظاهر المذكورة وكلها حماس وفرح بتحقيق الظهور، إلا أنها سرعان ما تنهزم بانقضاء وقتها وبداية ظهور منافسة أخرى لها، وقد مثل العملية التي يندرج تحتها تسابق هذه الظواهر بالمعركة والتي تدل عليها بعض الألفاظ مثل: الثأر والعساكر والفرسان أو الأفراس وكذا الجيوش والسيوف أو الأسياف.

شبه ابن الجوزي في الاستعارة الأولى (عساكر النهار) النهار بقائد المعركة، بحيث ذكر المشبه وحذف المشبه به في حين ترك لازمة من لوازمه وهي العساكر، ذلك أننا نجد من عساكر النهار بمصطلح ابن الجوزي أو من معالمه ظهور الضوء والحركة والسعي للرزق والعمل وما يتبعه من ضوضاء وعدم سكون، وهي شبيهة بمعالم الحرب أو المعركة كالسيوف والانتقام والفرسان والعساكر، فيحضر النهار والمعركة بحضور عساكرهما.

كما شبه في استعارة (ثأر الفجر من النهار) الفجر بالإنسان الذي يثار وينتقم من منافسه أو عدوه، فحذف المشبه به وترك لازمة من لوازمه وهي فعل الثأر الخاص بالإنسان، كما قام في استعارة (غار القمر من الشمس) بالأمر نفسه، فقد شبه القمر بالإنسان، فذكر المشبه وهو القمر وحذف المشبه به وهو الإنسان وترك لازمة من لوازمه وهي الغيرة الموضحة من خلال فعل (غار)، كما نجده يشبه الشمس في عبارة (جيوش الشمس) الشمس بقائد الحرب أو المعركة، فذكر المشبه وحذف المشبه به وترك لازمة من لوازمه وهي الجيوش.

كما يقوم في استعارة (أفراس الشمس) بتشبيه الشمس بالقائد كذلك، فذكر المشبه وحذف المشبه به وترك لازمة من لوازمه وهي الأفراس أو الفرسان، والأمر نفسه قد حصل في استعارة (أسياف نور الشمس)، إذ تنتمي الفرسان والسيوف لنفس الحقل الدلالي والذي يتمثل في المعركة أو الحرب، ثم يخيم الظلام على المجرة فتغيب الشمس بفرسانها وسيوفها وجنودها ليظهر الظلام ويعم أرجاء الأرض، هو ما عبّر عنه

ابن الجوزي باستعارة مكنية أخرى تمثلت في (جند الظلام)، لينهي سلسلة استعاراته ويختم ربط عقده النثري الجميل.

استعارات أخرى ظهرت في أرجاء أخرى من الخطب، يقول ابن الجوزي: " ... وامتدت عين النرجس في المجلس إلى القيصوم والسوسن والبهار، فخلج الياسمين من الحاضرين عند ذلك وغار "1، ويتضمن القول أربعة استعارات نوضحها من خلال عبارات (عين النرجس)، (مجلس الأزهار)، (خلج الياسمين)، و(غار الياسمين)، وكلها استعارات مكنية يظهر فيها ابن الجوزي أزهار الربيع في صورة أفراد في المجلس يتسامرون ويتشاركون بعضهم فرحة الربيع، وقد نسب إليهم بعض المشاعر والأحاسيس التي تخص الإنسان، كفعل المغازلة بين الذكر والأنثى وما ينتج من خلج إحدى الأطراف وغيره أطراف أخرى من تلك العملية.

وآخر الاستعارات التي يمكن الحديث عنها، تلك التي نقل لنا فيها ابن الجوزي صورة الإنسان بذكر المراحل التي يمر عليها في حياته، منذ صورته كجنين في بطن أمه إلى اليوم الذي يلاقي فيه ربه لعرض صحيفته وديوانه، يقول: " ...ونقله في درج الحياة يقطع ساعاته وأزمانه "2، وفي القول استعارة مكنية تمثلت في عبارة (درج الحياة)، إذ شبه الحياة بالدار أو البيت لمكوث الإنسان فيها لساعات وأيام ويغادرها بعدها، فذكر المشبه وحذف المشبه به وهو البيت، في حين ترك لازمة من لوازمه وهي الدرج أو السلالم التي تحويها بعض المنازل.

1. 1. 3. الكناية:

1. 1. 3. 1. مفهومها:

وردت في معجم لسان العرب: " الكنية على ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكنى عن الشيء الذي يستفحش ذكره، والثاني: أن يكنى الرجل باسمٍ توقيراً وتعظيماً، والثالث: أن تقوم الكنية مقام الاسم، فيعرف صاحبها بها كما يعرف باسمه، والكناية: أن تتكلم

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص121.

². المصدر نفسه، ص114.

بشيء وتريد غيره، وكنى عن الأمر بغيره، يكنى كناية: يعني إذا تكلم بغيره مما يستدل عليه، وتكنى: أي تستر¹

وهي أيضاً: " أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومي إليه ويجعله دليلاً عليه"²، كما أنها تمثل: " إطلاق لفظ حسن يشير إلى ما لا يراد النطق به"³

1.1. 2. أمثلتها:

ومن أمثلتها حديث ابن الجوزي عن النبي آدم عليه السلام في اعترافه بذنبه وطلب الغفران من الله تعالى، يقول: " ... ونصب سرير الندم ببادية العنا، وكتب في قصة الاستغفار: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا}⁴، ووقف على قدم الانكسار بباب الانتظار، فنظر مولاه ذله بين يديه، وصدق قصده وافتقار إليه"⁵

وقد تضمن القول ثلاثة كنايات، تمثلت الأولى في عبارة (سرير الندم) بينما تمثلت الثانية في عبارة (كتب في قصة الاستغفار) وتمثلت الثالثة في عبارة (وقف على قدم الانكسار)، فالأولى كناية عن شدة ندم نبي الله آدم لأكله من شجرة الجنة التي نهاه الله عن الأكل منها، وكان نتيجة عصيانه لأمر الله خروجه من الجنة إلى الدنيا، فعبر ابن الجوزي عن ذلك الندم بأداة الاستعارة المعبر عنها ب: (سرير الندم)، إذ يستعمل الانسان السرير للنوم لمدة طويلة كنوم الليل بينما يستعمل الكرسي للجلوس أو الاتكاء لفترة قصيرة، من أجل هذا عُبر عن الندم الطويل وشدة التحسر وطول انتظار الغفران بالسرير، للرابط الحاصل بينهما وهي المدة الزمنية المذكورة.

¹ ابن منظور: لسان العرب، ص3944.

² الأزهر الزنّاد: دروس في البلاغة العربية، ص84.

³ أبي بكر عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص255.

⁴ سورة الأعراف: الآية: 23.

⁵ ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص106.

كما تترجم الكناية الثانية الواردة في عبارة (كتب في قصة الاستغفار)، شدة إلحاح نبي الله آدم عليه السلام على ربه وطول استغفاره وأمر زوجته حواء بالاستغفار أيضاً وطلب كليهما التوبة ونيل رضا الله تعالى ومسامحتها على ما اقترفاه من ذنوب، وقد عبّر ناظم الخطبة عن هذا الاستغفار وذاك الندم بأداة الاستعارة التي خصّها بالفعل (كتب)، فهو عليه السلام لم يكتب في قصة معينة بفعل الكتابة الحقيقي إنما هو تعبير مجازي عن طول استغفاره، وكأنه كتب قصة أو ألف قصة حول الاستغفار.

أما بالنسبة للكناية الثالثة والتي وردت في عبارة (وقف على قدم الانكسار) فهي تترجم عدم يأس نبي الله آدم من مسامحة الله له، ووقوفه منكسراً ينتظر الاستجابة من الله تعالى، إلا أن ابن الجوزي قد حوّل الانكسار النفسي الذي شعر به النبي آدم عليه السلام إلى فعل الوقوف على الأقدام وطول انتظار الاستجابة، فهي كناية عن عدم الرضا بالفعل أو الذنب المقترف ومحاولة محوه واستبداله بالفعل الصالح.

وآخر الكنايات التي تضمنها القول تلك الممثلة في عبارة (ذله بين يديه)، وهي كناية عن إظهار نبي الله آدم لشده انكساره وذله الذي رآه الله تعالى من خلال مظهره ورفع يديه بالتضرع والدعاء له.

ومن الكنايات أيضاً ما أورده ابن الجوزي حين حديثه عن ظاهرة المطر يقول: "... حتى إذا أرخت السحب عزاليها قاطرة، أضحكت ببكائها الأرض الميتة الدائرة، وأضحت لمطوي أسرار السحاب ناشرة"¹، إذ تظهر الكناية في عبارة (أسرار السحاب) وهي كناية عن المطر الذي يخفيه السحاب في باطنه وكأنه سرّه الذي يكشفه حين حاجة الأرض إليه، فهي تدعوه عند جفافها إلى نشره وإظهاره لتتعم بمطره المدرار.

ومنها أيضاً قول ابن الجوزي في إحدى الخطب: "... وتولت إلى الغروب منهزمة وهربت من سلطان الشمس فرار الأبق السارق، فخيّم بأقطارها جند الظلام وعسكر"²، إذ تظهر الكناية في عبارة (هربت من سلطان الشمس)، وهي كناية عن الغروب.

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص105.

². المصدر نفسه، ص116.

كما إن من أمثلتها قول ابن الجوزي في حديثه عن المراحل التي يمر بها الإنسان: " ... وأبدع في تسوية بنانه واعتنى بتلفيق أجزاءه، وتسهيل كلامه وبيانه، وحركه بريح الطلق حين آن أوان إتيانه، وأخرجه إلى دار التكليف لإظهار عرف عرفانه، ونقله في درج الحياة يقطع ساعاته وأزمانه"¹، إذ تتضمن عبارة (درج الحياة) كناية عن مراحل الحياة درجة بدرجة، ساعة بساعة وعاما بعد عام، منذ الطفولة مروراً بالشباب والكهولة والشيخوخة حتى الممات.

وآخر الكنايات التي يمكن نكرها قول ابن الجوزي في السياق نفسه: " ... وأزعجه بالرحيل وجرّعه كأس الانتقال عن أوطانه"²، إذ تظهر الكناية من خلال عبارة (جرّعه كأس الانتقال عن أوطانه)، وهي كناية عن حتمية القضاء الذي كتبه الله تعالى للبشر والمتمثل في الموت.

خاتمة الصور البيانية:

أضفت الصور البيانية المذكورة بما حوته من تشبيهات واستعارات وكنايات، جمالية على الخطبة، بما تضيفه من صور فنية على اللغة، وعلى المضامين، أو على الصورة والفكرة، ف: " الأسلوب الغني يتكون من الصورة والفكرة، كما يتكون الماء من الهيدروجين والأكسجين وكما استحال في فن الطبيعة أن يتكون الماء من أحد عنصريه فقد استحال في فن الإنسان أن يتكون الأسلوب من إحدى جزئيه"³

فقد قامت بفضل تقنياتها على توضيح المعاني وتجسيدها بتحويلها من صورها الظاهرة والحقيقية إلى صور خيالية إبداعية، إذ حصل أن وجدنا ابن الجوزي ينسب لبعض الأزهار مجلساً للحديث والتسامر، كما ينسب للبعض الآخر أحاسيس ومشاعر، ووجدناه في بعض الأحيان يجسّد مظاهر الطبيعة كالربيع والشتاء كأشخاص يتسابقون

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص114.

². المصدر نفسه والصفحة نفسها.

³. ينظر: محمود محمد محمد عمارة، الخطابة بين النظرية والتطبيق، مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع،

المنصورة، ط1، 1997، ص239.

ويثأرون وينتقمون، وفي أحيان أخرى يجسد الشمس والقمر والليل والنهار كقيادة المعارك بامتلاكهم السيوف والفرسان والعساكر.

يقول أرسطو: " فأما اللفظ أو المقالة فإنها تكون جميلة إذا كانت مخيلة خلقية موجهة نحو الأمور الموضوعة وكانت معتدلة، والاعتدال هو ألا يرتفع إلى قول العظائم بالتكذيب، ولا ينحط إلى الخسائس بالتوقي، ولا يستعمل الاسم الدنيء، والذي يكون بأشياء مؤذية، كما ويتناسب الأسلوب إذا عبّر عن الآليات والأخلاق وإذا كان وثيق الصلة بالموضوع، فإن الألفاظ التي هي لذلك الشيء بعينه مقنعات"¹

كما وقامت الصور الفنية المفصل فيها من تشبيه واستعارة وكناية، بإخراج اللغة من طابعها المعتاد والذي يقوم بنقل الأخبار والمضامين في صورتها الحقيقية والمباشرة إلى الطابع غير الاعتيادي، والذي يقوم بنقل الأخبار التي تتدرج في إطار المجاز، والتي تعتبر زائفة بالنظر إلى مطابقتها للحقيقة وللواقع.

وهذا الزيف وذاك المجاز هو الذي يمنح الصور الثلاثة المذكورة حليتها الجمالية وميزتها ورونقها الخاص، فهي تحقق الفهم والإفهام بطريقتها الخاصة فتبين عن المعاني والمضامين بالصور المجازية التي تنقلها للمتلقي، يقول الجاحظ في هذا الشأن: " والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضوع"²

¹. ينظر: أرسطوطاليس: الخطابة، ص 202.

². أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص 77. 78.

1-2. المحسنات البديعية:

1.1. الطباق:

1.1.2. مفهومه وصوره:

ورد في معجم لسان العرب: "طابقه مطابقةً وطباقاً، وتطابق الشيطان: تساويا، والمطابقة: الموافقة، والتطابق: الاتفاق، وطابقت بين الشيطان إذا جعلتهما على حدو واحد، والسماوات الطباق: سميت بذلك لمطابقة بعضها بعضاً، أي بعضها فوق بعض"¹، والطباق: "التوافق، وفي اصطلاح البلاغيين: الجمع بين المتضادين في كلام واحد، والمراد بالتضاد هنا وجود لون من التقابل والتنافي بين الشيطان ولو في بعض الصور، وسمي الجمع بين الضدين طباقاً لمساواة أحدهما للآخر وإن اختلفا في المعنى"²، وقد توفر الطباق بنسب متفاوتة بين خطبة وأخرى، ويؤدي في معظمها إلى إظهار المعنى المراد من الكلام من خلال إبراز عكسه أو نقيضه، كما ويؤدي إلى تقوية المعنى، ويظهر الطباق على مجموعة صور تتعدد باعتبارات مختلفة، "فهو باعتبار نوع طرفيه أربعة أقسام، إذ قد يكون بين لفظين من نوع واحد: اسمين أو فعلين أو حرفين، وقد يكون بين لفظين مختلفين"³، وقد توفرت في الخطب من الصور التي أوردناها، ما ستذكر في الآتي:

1.1.2.1. الطباق بين لفظين من نوع واحد:

توفر هذا النوع من الطباق في الخطب بشكلين، طباق بين اسمين وطباق بين فعلين

• الطباق بين اسمين:

توفر هذا النوع من الطباق في الخطب بنسب كبيرة، ذلك أن الخطب تميل في تركيبها إلى الجمل الإسمية، التي تتكون في أساسها على الأسماء والتراكيب الإسمية،

¹ ابن منظور: لسان العرب، ص2636.

² الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ط1، 1994، ص33.

³ المرجع نفسه، ص34.

وقد وردت في أولى الخطب التي أوردها ابن الجوزي كتابه " عجيب الخطب " عديد الألفاظ المتضادات، والتي جمعت بين الضدين في الكلام الواحد، نذكر منها قوله متحدثاً عن الله تعالى وسلطانه: " ... القادر على الإيجاد والإعدام، القاهرة سطوته نواصي الأنام، مصور الأجنة في ظلم الأرحام، مخرج الظلام من الضياء والضياء من الظلام، المتكلم ولا خلاف عند المسلمين في قدم كلماته، المتقدس عن مماثلة خلقه في صفاته، المتعالي في كماله عن التناقص والتزايد، ويشهد ما ظهر ولا يخفى عليه ما عفا، ويريد عمل المؤمن والكافر والصالح والفاقد¹"

وقد توفرت في القول عديد الألفاظ المتضادات، فبين (الإيجاد والإعدام) مطابقة، وهما اسمان جاء بهما ابن الجوزي من أجل إظهار قدرة الله تعالى في خلق البشر ووهبهم نعمة الحياة والموت، فهو تعالى موجدهم من ماء يمني في ظلم الأرحام، ومخرجهم من العدم إلى الوجود، كما أنه تعالى القادر على إعدامهم عن طريق إمامتهم وطمس آثارهم من الوجود، وقد أظهرت هتان اللفظتان المتضادتان عظيم قدرة الله تعالى في كونه الوحيد القادر على ممارسة الأفعال المتضادة التي تظهر نتائجها على الإنسان نفسه، وأحياناً في الوقت نفسه.

فكم من جنين وهبه الله تعالى الحياة فرأى نور الدنيا، ثم أماته بعد لحظات، كما لا ننسى حالة العبد عند النوم، والذي يميته الله تعالى في كل يوم يمارس فيها هذا الفعل ثم يحييه عند استيقاظه، دليل ذلك دعاء المسلم المشروع عند الاستيقاظ من النوم وهو قوله: " الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور "، كما لا يخفى علينا ما تحمله معظم قصص القرآن من دلالة على قدرة الله تعالى على الإيجاد والإعدام، وما تسرده لنا من وقائع عن الأمم الغابرة التي عذبها الله تعالى بطمس آثارها ومحيتها من على وجه الأرض، منهم قوم نوح، وقوم لوط، وقوم عاد وثمود وأصحاب مدين.

كما يقوم طباق (الإيجاد والإعدام) بإظهار الحكمة الربانية التي تتمثل في تعمير الأرض بإيجاد البشر، وتطهيرها بإعدامهم، وهم يحققون من خلال هذا تداولاً على

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص101.

الأرض التي سخرها الله تعالى من أجل حياتهم وكذا مماتهم، ففي الأرض نعم من الله تعالى توفر للبشر مآكلهم ومشربهم وملبسهم ومسكنهم، وفي تحت الأرض حكمة منه كذلك لستر جثة الميت وتوريثها تحت التراب الطاهر، والذي يحفظها من شر الهوام ومن فعل التنكيل بها، فهو تعالى المتكفل بأمور الإنسان في حياته وكذا مماته.

كما يحمل القول نفسه نوعاً آخر من الطباق، تجسد عن طريق لفظتي (الظلام والضياء) وقد طرحهما ابن الجوزي بصيغة عكسية يقول: [مخرج الظلام من الضياء والضياء من الظلام]، وفي اللفظتين المتضادتين إعجاز رباني تمثل في ظاهرتي الليل والنهار، وما يحملانه من دلالة على قدرة الله تعالى في تسيير الكون بدقائق مضبوطة، عن طريق تناوب الظاهرتين في مدة أربعة وعشرون ساعة والتي تمثل يوماً كاملاً، كما يظهر هذا الطباق نعمة الله تعالى التي يمنحها لعباده، ذلك أنه عز وجل سخر لهم ظاهرة النهار لابتغاء فضل الله ونيل رزقه، وفي المقابل منحهم الليل للنوم والراحة والسكن للأهل، وفي الظاهرتين فضل عظيم وجب على العبد حمد الله تعالى عليه.

كما احتوى القول المذكور أعلاه على نوع آخر من الطباق، تجسد عن طريق لفظتي (التناقص والتزايد)، وهما اسمان قام بذكرهما ابن الجوزي في سبيل ذكره لأسماء الله تعالى وصفاته العلى، وهما يمثلان حالتان أبعدهما ابن الجوزي عن صفات الله تعالى حين وصفه بالكمال المنزه عن التناقص والتزايد.

طباق اسمي آخر ظهر في آخر القول نفسه، تمثل في لفظتي (المؤمن والكافر) وكذا لفظتي (الصالح والفساد)، فبين المؤمن والكافر مطابقة، وكذلك بين الصالح والفساد، وقد جمع ابن الجوزي الألفاظ الأربعة في جملة واحدة، وذلك في قوله [ويريد عمل المؤمن والكافر والصالح والفساد]، وهو يشير في قوله إلى ثنائيتي الخير والشر والتي تتبعان من الإنسان الخير أو الشرير، وقد أراد ابن الجوزي من خلال القول تذكير العبد بيوم البعث، والذي يجمع فيه الله تعالى عباده منذ خلق البشرية إلى يوم القيامة من أجل محاسبتهم على أفعالهم وأقوالهم، فيعاقبهم على السيئة منها، ويجازيهم على الحسنة، وهي دعوة من ابن الجوزي إلى ابتغاء الخير والصلاح في الدنيا للفوز

بالجنات العلى، وتجنب المعاصي والمنكرات التي تؤدي بصاحبها إلى الكفر بالله الذي ينجر عنه السقوط في الويلات والاحتراق في جمرات جهنم والعياذ بالله.

كما إن مما جاء فيه الطباق بين اسمين قول ابن الجوزي في اختتام نفس الخطبة: " ... أحمده حمد من وجل من التقصير، وأشكره على الكثير واليسير، وأتوكل عليه في التسهيل والتعسير، وأؤمن أن إليه المرجع والمصير، وأشهد أن محمداً رسوله إلى الأمة، صلى الله عليه وعلى آله وخليفته في صلاته، وضجيعة في مماته، ومؤنسه في مخافته، ومن ظهر فضله على غيره في مواساته، وهل يستوي الساهر والنائم، والقاعد والقائم"¹، ففي القول مطابقة بين (الكثير واليسير) وبين (التسهيل والتعسير) وبين (الساهر والنائم) وبين (القاعد والقائم)، وكلها ألفاظ متضادة جاء بها ابن الجوزي لأغراض محددة، فالغرض من المطابقة بين الكثير واليسير، هي تذكير العبد بالواجب التعبدى المتمثل في حمد الله وشكره على الرزق الذي قسّمه على البشر، من مال وصحة ومسكن وبنين، مهما اختلفت درجات هذا الرزق بين عبد وآخر، وسواء كان كثيراً أو قليلاً، فالشكر واجب على العبد في أقل الأشياء.

كما أن الغرض من المطابقة بين التسهيل والتعسير، دعوة العباد للتوكل على الله في كل الأمور الصغيرة والكبيرة، وفي الأمور السهلة والصعبة، كما يدعو ابن الجوزي المتلقي في الوقت نفسه لعدم الاتكال على غير الله تعالى لأنه لا يسمنه ولا يغنيه من جوع، فالله وحده المعين للعبد في كل أموره وشؤونه.

وقد جمع ابن الجوزي آخر الثنائيتين في جملة استفهامية، إذ وجدناه يقول: (وهل يستوي الساهر والنائم، والقاعد والقائم)، فالمطابقة الأولى بين الساهر والنائم، أما المطابقة الثانية فهي بين القاعد والقائم، وفي القول تمثيل للعابد لله وللمتهاون في العبادة، فمثلّ العابد بالساهر والقائم لله تعالى بالصلاة والذكر، بينما مثلّ المتهاون بالنائم والقاعد تصويراً منه للراحة وعدم شق النفس لعبادة الله.

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص101.

أما فيما يخص أسلوب الاستفهام الذي أنشأ به الجملة، فإنه يرمي من خلاله إلى غرض محدد، بحيث سعى بإيراده إلى إظهار الفرق الكامن بين العبد الذاكر لله وغير الذاكر له، وكذا الفرق بين المصلي وغير المصلي، إلى غيرها من العبادات والطاعات، فهما لا يستويان بالرجوع إلى الأقوال والأفعال التي يمارسونها، يقول تعالى في كتابه الكريم: " أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ "1، وفي الآية مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالم والجاهل، فالعامل بطاعة الله كالعالم بشؤون الدين وبما يصلح حاله في الدنيا، بينما البعيد عن الله وعن عبادته بمثابة الجاهل بأمور الدين وبما يصلح حاله.

وبالرجوع إلى أسلوب الاستفهام الذي وظفه ابن الجوزي في الخطبة، وبالتحديد في الجملة المذكورة، فإنه لا يستفهم من خلاله المتلقي لينتظر منه جواباً لسؤاله، بل هو أسلوب قرآني قام ناظم الخطب باقتباسه من القرآن الكريم، وفيه يقوم الله تعالى بإفهام خلقه وتذكيرهم أن القائم في الليل للصلاة والذكر لا يستوي مع النائم، وبالتالي فإن جزء القائم يفوق جزء النائم، فينال الجنة ويفوز برضا الله تعالى، وهذا أسلوب بديع انفرد به الخطاب القرآني.

ظهرت في الخطبة الواحدة عديد الألفاظ المتضادة، وكلها أسماء جاء بها ابن الجوزي لأغراض حددناها حين شرحنا وتفصيلنا لها، وقد أضفت هذه المطابقات جمالية على الخطبة، بحيث قام الطباقي فيها بإظهار معانيها وتوضيحها من خلال عرض ضدها أو عكسها، وقد أظهرت كل تلك المتضادات، شمولية الله تعالى للكون وتحكمه فيه بسلطته العظيمة عليه، وبأفعاله التي تظهر آثارها على هذا الكون وعلى الإنسان.

كما إن مما جاء فيه الطباقي بين اسمين، قول ابن الجوزي في افتتاح إحدى الخطب: " الحمد لله الأول ولا زمان، الآخر ولا أكوان، الباقي ولا إنسان، القادر ولا

1. سورة الزمر: الآية: 9.

أعوان، العادل في قضائه لا بجور وطغيان، المرید لما يحدث في الكون من كفر وإيمان¹، فالطباق الأول بين (الأول والآخر)، والطباق الثاني بين (الكفر والإيمان)، وكلها من قبيل الأسماء، والتي زادت المعاني قوة وأضفت على السياق حسناً وبهاءً.

وقد قام ابن الجوزي من خلال إيراد الطباق الأول، بذكر صفات الله تعالى وتعريفها للمتلقي، فهو تعالى الأول والآخر، وهما صفتان متضادتان سعى ناظم الخطب من خلال إيرادهما بتبيان اتصاف الله تعالى بصفتين متضادتين في آن واحد، مما يدل على مخالفته تعالى للمخلوقات، كما ويقوم بإظهار كمال سلطان الله تعالى وقدرته التي ظهرت آثارها وشملت الكون بأسره، يقول تعالى في كتابه الكريم متحدثاً عن نفسه: " هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ "².

كما قام ابن الجوزي من خلال إيراد الطباق الثاني، والذي تمثل في (الكفر والإيمان)، بإظهار قدرة الله تعالى في اطلاعه على ما تظهره أنفس البشر وما تخفيه من نوايا وأفعال وأقوال، كما أنه المحيط بسر عبده وبجهره، والعالم بما تحمله قلوب البشر من كفر بالله تعالى وبصفاته وأفعاله، أو إيمان به وبأسمائه، يقول ابن الجوزي [المرید لما يحدث في الكون من كفر وإيمان]، فلكمال ربوبيته لا يقع شيء في السموات والأرض إلا بمشيئته تعالى، فإن العبد إذا أراد شيئاً ففعله علمنا أن الله تعالى قد أراده، لقول تعالى: " وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ "³، فالعبد مخير بين الإيمان بالله تعالى والكفر به، إلا أن الله تعالى يعلم مسبقاً الاختيار الذي ينجر إليه العبد فيكتبه له، فهو تعالى المحيط بالعبد والمرید لما يحدث في الكون بأسره.

يشبه أسلوب الخطب إلى حد ما أسلوب القرآن الكريم، بحيث قام ابن الجوزي بالتأثر بالقرآن الكريم، فقام باقتباس عديد الآيات والمعاني والأساليب منه، فالخطبة

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص102.

². سورة الحديد: الآية: 3.

³. سورة التكوير: الآية: 29.

الدينية أقرب ما تكون إلى أسلوب القرآن، كونها تحمل معانيه وتفصل في قضاياها وتشرح قصصه وتظهر وجه الحكمة فيها.

كما إن مما جاء فيه الطباق بين اسمين، قول ابن الجوزي متحدثاً عن فضل الله تعالى على عباده: " ... خالق الشمس والقمر بالوحدانية الباهرة، مسبح نعمه على خلقه باطنة وظاهرة، ومظهر دلائل وحدانيته بالآيات المتواترة، القديم بلا أزمان حاضرة، الباقي ولا أكوان عامرة، القادر بقدرة ذلت لسطوتها نفوس الأكاسرة، المرید عمل كل نفس مؤمنة كانت أو كافرة¹، فالطباق الأول بين (الشمس والقمر)، والطباق الثاني بين (باطنة وظاهرة)، والطباق الثالث بين (مؤمنة وكافرة).

بحيث يقوم ابن الجوزي من خلال إيراد الطباق الأول، بإظهار آيات إعجاز المولى عز وجل المتمثلة في الشمس والقمر، وهما ظاهرتان طبيعيتان متضادتان لاستحالة ظهورهما في الآن نفسه، إذ تظهر الشمس في الأفق حين طلوع الصبح وفي النهار بأكمله وتغيب مع حلول الليل، ليظهر القمر ويضيء بعضاً من ظلمة السماء، والغرض من هذا الطباق تذكير المتلقي بخالق هذان الآيتان الكونيتان البديعتان، وهو الله تعالى ذو الوحدانية الباهرة الذي لا يشاركه في خلقه ذاك أحد.

كما يظهر الطباق الثاني، والذي تجسد عن طريق لفظتي (باطنة وظاهرة)، نعم الله تعالى التي أسبغها على خلقه الخفية منها والبارزة، فقد أنعم الله تعالى على العبد بمختلف النعم التي يراها في نفسه وفي مسكنه وأولاده وعمله، وفيما يحيط به من أصوات الطبيعة ومظاهرها وخيراتها، كما إن من المنن التي من الله بها على العبد تلك التي لا يراها ولا يسمعها، إنما تظهر نتائجها وآثارها عليه وعلى ما يحيط به، ودليل ذلك ما أودعه الله تعالى في جسم الإنسان والذي يكون مناعته ضد الأمراض، كما يزوده بالطاقة ليؤدي عمله، كما لا ننسى ما يضمه الكون من مجرات وأفلاك تعتبر كرتنا الأرضية جزء صغيراً منها، ناهيك عن البدايات الأولى لهذا الكون بأسره، والتي

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص104. 105.

لم يشهدا أي من البشر، إلا ما جاءنا به القرآن الكريم زيادة إلى افتراضات العلماء وتأويلاتهم واستنتاجاتهم.

كلها نعم هيئها الله تعالى للعبد لضمان معيشته وتعمير الأرض، فمنها تلك التي كشفها له فيراها في نفسه وفيما يحيط به، ومنها تلك التي أخفاها عنه لعدم تحمل قوتها على حواسه، كأصوات أهل القبور وتسبيحات الطبيعة وأصوات الكائنات في أعماق البحار، وأصوات المنعمين في الجنة والمعذبين في النار، وهي ما سعى ابن الجوزي إلى إظهارها من خلال طباق (باطنة وظاهرة)، والتي منحها الله تعالى بوحديته لا شريك له لعباده، تستحق حمده وشكره عليها.

وهو ما يسمعه الله تعالى من أفواه الحامدين والشاكرين له، فيجزئهم على ذلك، أو يمهل النفس الكافرة لتتوب إليه وترجع إلى طريق الصواب، هو ما جاء به الطباق الثالث حين قال ابن الجوزي [المريد عمل كل نفس مؤمنة كانت أو كافرة]، فهو تعالى أدرى بما يخفيه العباد في نفوسهم من إيمان بالله تعالى وبصفاته وبنعمه وفضله الواسع، أو كفر بالله وجدد لنعمه وعدم شكر الله عليها.

كما إن مما جاء فيه الطباق بين اسمين، قول ابن الجوزي متحدثاً عن الله تعالى: " ... الصمد القيوم العزيز القهار، المرید لما في الوجود من إيمان وكفر وشقاء وسعود، المعبود وباطل سواه كل معبود، الموجود وكل موجود غيره مفقود، المرئي في القيامة بهذه النواظر والأبصار، العالم بعواقب الأمور وخفيات الصدور، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار"¹، وقد توفرت في القول مطابقات اسمية عديدة، فالطباق الأول بين لفظتي (إيمان وكفر)، والطباق الثاني بين لفظتي (شقاء وسعود)، والطباق الثالث بين لفظتي (موجود ومفقود)، والطباق الرابع بين لفظتي (الليل والنهار).

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص106.

وقد كان الغرض من الطباق الأول (إيمان وكفر) إظهار سلطة الله تعالى على عباده الكفار منهم والمؤمنين، إذ يهدي الصالحين منهم لمرضاته، ويرزق الكفار أسباب الهداية ويمهلهم للتوبة وطلب الغفران، فإن اهتدى الصالحون وتاب الكفار كان أعلم بذلك من أنفسهم، وإن لم يفعلوا سبقهم بالعلم والدراية كذلك، فهو المرید لما في الوجود من إيمان وكفر، كما ينجر عن هذا الإيمان والكفر سعادة العبد وشقاؤه في الدنيا والآخرة، فمن اتبع هواه، وجرى وراء ملذات الدنيا، ونسي الآخرة، جنى ثمار إهماله وتهاونه بالخسارة والشقاء والتفريط في جنب الله، ومن عاش الدنيا وسعى لها سعيها وهو مؤمن، ولم ينس الآخرة، وسعى لمرضاة الله، جنى ثمار حسناته، وسعد في الدنيا والآخرة، وفاز بالجنة العلى جنب الله والرسول والصحابة الكرام والأتقياء والصالحين من العباد، وهو ما جاء به طباق (شقاء وسعود).

كما قد كان الغرض من طباق (موجود ومفقود) في قول ابن الجوزي [الموجود وكل موجود غيره مفقود]، إظهار وحدانية الله تعالى وقدمه وأسبقية وجوده على الكون وعلى العالمين وكذا أبعديته، فهو عز وجل موجود قبل وجود الكون بما فيه، وهو موجود بعد فناء هذا الكون بما يحتويه، فوجوده عز وجل أزلي وأبدي، بينما وجود البشر زائل ومؤقت، فقد خلقهم الله تعالى بعد آلاف السنين من خلقه للكون، كما أنه تعالى ابتلاهم بالموت، فهم زائلون عن الدنيا يعيشونها فترة زمنية محددة من قبل الخالق عز وجل بالساعات والدقائق، فلا يزيدون عن ذلك ولا ينقصون، وقد شبه ابن الجوزي هذا الوجود المؤقت للبشر بالفقد، لبقائهم على ظهر الأرض مدة ورحيلهم منها دون ترك الأثر، فيصبحون كالمفقودين الذين غابوا عن أهلهم وذويهم، وقد قام من خلال هذا الطباق بعقد مقارنة بين وجود الله ووجود البشر، واللذان يمثلان علاقة ضدية بنيت على أساس معطياتها غير المتوافقة.

أما بالنسبة للغرض من طباق (الليل والنهار) في قول ابن الجوزي [العالم بعواقب الأمور وخفيات الصدور، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار]، فقد جاء به ابن الجوزي من أجل إظهار قدرة الله العظيمة في علمه وإحاطته بخفيات الصدور وأسرار القلوب، فهو تعالى السميع لمحاورات البشر

ولاختلاجات أنفسهم، كما أنه تعالى يرى أفعال العبد الذي يعصي الله في ظلمة الليل ويظهر في النهار كأن شيء لم يكن، فعنده تعالى علانية خلقه وسرههم، سواء في الأقوال أو الأفعال وسواء في الليل أو النهار.

كما إن من الطبايق الاسمي قول ابن الجوزي متحدثاً عن إعجاز الله تعالى في خلقه وموجوداته وإثبات تقدم وجوده عز وجل: " ... الناطق بمعجزاته تقدم وجوده، نطق بتوحيده الجماد بصلاده والحجر بجلموده، والبحر بحياتانه والبر بأسوده، والفلك بدورانه والسحاب بركوده، والليل بظلامه والصبح بعموده، وإن من شيء إلا يسبح بحمده في حركته وسكونه وقيامه وقعوده، المنزه بكمال ذاته عن نقص الحدث وحدوده، المتقدس عن مشابهة عباده، وكيف يقاس عابد بمعبوده"¹، فالطبايق الأول بين (البحر والبر)، والطبايق الثاني بين (الليل والصبح)، والطبايق الثالث بين (حركته وسكونه)، والطبايق الرابع بين (قيامه وقعوده)، والطبايق الخامس بين (عابد ومعبود).

يظهر ابن الجوزي من خلال القول معجزات الله تعالى من خلال موجوداته وآثاره في السماء والأرض، والتي خلقها الله تعالى وسخرها لخدمة البشر، وقد ظهرت من خلال القول كثنائيات متضادة وتضادها هو الذي يحقق وجه الإعجاز فيها، وأولى هذه الثنائيات (البحر والبر)، فقد حوى البحر عدداً لا يحصى من الآيات والدلائل على وحدانية الله تعالى، فهو عالم بأكمله قد سخره الله تعالى لكائناته البحرية، وخلقها بدورها لتتلاءم مع هذا العالم في طريقة عيشها دون الحاجة للأكسجين، وكذا مسكنها ومأكلها وتزوجها، وتشتمل هذه الكائنات البحرية على آلاف الأصناف والأشكال والألوان والخصائص، والتي لازال علماء البحار اليوم يتعرفون على أنواع جديدة لها.

ويقابل هذا العالم البحري عالم آخر هو العالم البري، وما يحتويه من الكائنات البرية التي تتعدد وتتنوع بين الحيوانات الوحشية والأليفة، والحشرات، الزواحف، وكثير من الأنواع الأخرى، وقد خلقها الله تعالى بدورها لتتلاءم مع الطبيعة التي أوجدها لها، بحيث تتعايش حيوانات الصحراء أو الجنوب مع بيئة الصحراء الحارة والجافة بينما لا

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص107.

تضمن عيشها في مناطق مخالفة، كما تتعايش حيوانات الشمال مع البيئة المعتدلة من حيث الحرارة والبرودة والرطوبة، بينما لا تستطيع العيش في مناطق أخرى غير التي أوجدها الله فيها، هي حكمة ربانية ودليل على أن هذا الكون العظيم لم يخلق عبثاً، بل أوجده الله تعالى وحده لا شريك معه، كما وأوجد فيه كل أسباب العيش المختلفة لكل مخلوقاته وموجوداته التي أودعها إياه.

وثاني الثنائيات التي أظهر ابن الجوزي من خلالها إعجاز الله تعالى في الكون ظاهرتي الليل والنهار أو الصبح بحد تعبير ناظم الخطب، وذلك لما يحويانه من نعم تظهر آثارهما على العبد في ضمان عيشه وراحته، بحيث يظهر وجه الإعجاز في تسخير الله تعالى النهار للبشر لكسب القوت واتخاذ الأسباب لنيل الرزق من الله تعالى، والسعي في الأرض لضمان المعيشة، كما سخر الله تعالى للبشر الليل كآية ربانية وإعجاز إلهي لأجل راحة البشر ولنيل القسط من السكينة والهدوء الذي يفقده النهار لحركته الدائمة وصخب أصواته، كما يمنح الليل الراحة من مشاق النهار والسكن للأهل.

يقول تعالى في كتابه الكريم: " وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِنَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَلْنَاهُ تَفْصِيلاً " ¹، كما يقول تعالى: " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ " ² أو أولي الأبصار والقلوب ليتفكروا في خلق الله وليشكروه عليه وعلى فضل الله العظيم.

كما قد حوى القول على مطابقات أخرى، منها ما ذكره ابن الجوزي حين قال: [وإن من شيء إلا يسبح بحمده في حركته وسكونه وقيامه وعوده]، فالطباق بين (حركته وسكونه)، وبين (قيامه وعوده)، وقد مثل الطباق الأول طاعة المخلوقات الساكنة منها والمتحركة لله تعالى وتسبيحها له آناء الليل وأطراف النار، وتمثل الساكنة منها الجماد

¹. سورة الإسراء: الآية: 12.

². سورة آل عمران: الآية: 190.

من جبال وصخور وأراضي وأفلاك، بينما تمثل المتحركة منها مخلوقات الله تعالى أو الكائنات الحية من إنسان ونبات وحيوان، وكلها تسبح الله تعالى لتشكره على فضله الواسع عليها، ومثل الطباق الثاني (قيامه وعوده) حاله تسبيح تلك الموجودات لله تعالى، فهي تسبحه في قيامها وعودها، ويخص بالذكر هنا الإنسان عن غيره من المخلوقات.

إذ يقوم ابن الجوزي بتصوير وضعية ذكر أتقياء الله وأولياؤه الله تعالى باستغفارهم وتسبيحهم للمولى عز وجل، فهم يذكرونه في مجالسهم وفي سفرهم وتنقله، كما يذكرونه في مرقدهم وعند استيقاظهم، وهي رسالة يوجهها ابن الجوزي للمتلقي يدعوه فيها للامتثال لأوامر الله، المتمثلة في شكره على النعم المتنوعة، ويكون هذا الشكر بذكر الله واستغفاره وتسبيحه.

وآخر المطابقات التي اشتمل عليها القول هي: (عابد ومعبود)، وذلك في حديث ابن الجوزي عن قدسية الله تعالى وخصوصية صفاته واختلافها عن صفات البشر بالوحدانية والعظمة والأبدية، يقول: [المتقدس عن مشابهة عبادته، وكيف يقاس عابد بمعبوده]، فالعابد هو الإنسان الذي نسب إليه فعل العبادة، والتي يوجهها لإله واحد هو الله وحده لا شريك له، وهو المعبود الذي يعبد البشر ويقدمونه، والعبادة هي أقصى درجات الحب الذي يكنه العبد لله تعالى وترتبط مفاهيمها إلى حد كبير بالخشية والخوف من الله والقرب منه بالعبادة والسعي لمرضاته.

كما ظهرت على العموم عديد المطابقات الاسمية الأخرى غير التي فصلنا فيها، نذكر منها: " (الأب والأم)، (الخال والعم)، (طاعته ومعصيته)، (إيمان وكفر)، (شكر وذنم) ¹، " (الصامت والناطق)، (الجامد والمائع)، (المؤمن والكافر)، (العاصي والطائع)، (ساجد وراكع)، (المضار والمنافع) ²، " (سكناتهم وانتقالهم)، (توحيدهم

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص108.

². المصدر نفسه، ص110.

وضلالهم¹، " (طلوعها وغروبها)، (الأولين والآخرين)² " (الأنصار والمهاجرين)،
 (بقائه وفنائه)³، " (طالع وغارب)⁴ " (ساكت وناطق)، (القريب والبعيد)⁵، " (إصداره وإيراده)، (صلاحه وفساده)، (إيمانه والحاده)⁶، " (فجورها وتقواها)⁷، " (صيتاً وضئيلاً)، (حاضر وغائب)، (قبيحاً وجميلاً)، (كثيراً وقليلاً)، (رشاداً وتضليلاً)،
 (جباراً وذليلاً)، (أمراً ونهياً)، (تحريماً وتحليلاً)⁸، " (غنيه وفقيره)، (عبده وحقيره)⁹،
 " (الأول والآخر)، (القاصي والداني)، (مضمره وباديه)¹⁰، " (غروباً وإشراقاً)، (فقراً
 وغناءً)، (غياً ورشاداً)، (إجماعاً وإفراقاً)، (الحق والباطل)¹¹.

الطباق بين فعلين:

ظهر هذا النوع من الطباق في الخطب لكن بنسب قليلة بالمقارنة مع الطباق الإسمي، وذلك أن الخطب قد بنيت أكثر الأمر على الأسماء والتراكيب والجمل الاسمية، وقلة الأفعال وبالخصوص المتضادات منها، وسنقوم فيما يلي بإيراد معظم المطابقات المتوفرة في الخطب والتي تشكلت عن طريق الأفعال، وهي موضحة كالاتي:

مما جاء فيه الطباق بين فعلين قول ابن الجوزي سارداً أفعال الله تعالى التي تظهر آثارها على عباده، يقول: ".... صور ودبر وقدّر فكل شيء بمشيئته، ورزق ووهب

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص112.

². المصدر نفسه، ص113.

³. المصدر نفسه، ص114.

⁴. المصدر نفسه، ص115.

⁵. المصدر نفسه، ص117.

⁶. المصدر نفسه، ص118.

⁷. المصدر نفسه، ص122.

⁸. المصدر نفسه، ص124. 125.

⁹. المصدر نفسه، ص128.

¹⁰. المصدر نفسه، ص129.

¹¹. المصدر نفسه، ص131.

وفطر وخلق وكل شيء من صنعته، ليس له شريك في مملكته، وليس معه مدبر في قضيته، يبصر ويسمع ويضر وينفع ويدبّر خلقه بحكمته، يقرب ويبعد ويشقي ويسعد ويطلع على سر عبده وطويته، يعدم ويوجد ويمتع ويرفد ويريد كل فعل في بريته، وينشئ ويبدع ويتكلم فيسمع وينزل وحيه على من يختص من خليقته¹.

فالطباق بين (يبصر ويسمع)، و(يضر وينفع)، و(يقرب ويبعد) و(يشقي ويسعد)، و(يعدم ويوجد) و(يمتع ويرفد) و(يتكلم ويسمع)، وكلها أفعال مضارعة، وفي القول تمجيد لله تعالى وثناء عليه بسلطانه المطلق، وملكه التام للكون وما فيه، وقدرته على التصرف كما يشاء.

فهو تعالى البصير بأفعال العباد الخيرة منها والشريرة، كما أنه السميع لذكرهم واستغفارهم ولهمساتهم وجهرهم، وهو الذي يضر عبده العاصي وينفع عبده الطائع، كما أنه تعالى مقرب التائبين إلى جنبه عز وجل ومبعد الكافر والفاجر عنه، وهو تعالى الذي يقدر الشقاء للشقي والسعادة للمؤمن، وهو المحيي والمميت أو الموجد والمعدم، وهو المتكلم بالكتب السماوية وآخرها القرآن الكريم، وقد أظهر أسلوب الطباق هذه الحقائق واضحة بذكر الأضداد التي هي أقدر على تمييز الأشياء وتجليتها، فالله تعالى يفعل كل تلك الأفعال ولا أحد ينازعه في ذلك، كما قد دلت الأفعال بما بينها من مطابقة على كمال قدرة الله تعالى بإيجاد الأضداد في محل واحد، وجاء إسنادها إلى الله تعالى قوياً بالاعتماد على الضمير المستتر في بناء الأفعال.

كما إن مما جاء فيه الطباق بين فعلين قول ابن الجوزي متحدثاً عن الله تعالى: "الحاكم بما يشاء لا عن ظلم وعدوان، العادل في قضائه لا بجور وطغيان، المرید لما يحدث في الكون من كفر وإيمان، ولا يغيب عنه ما يكون ولا ما كان"²، فالطباق بين الفعل المضارع (يكون) والفعل الماضي (كان)، وقد طرح ابن الجوزي الفعلين في القول كضدين، وهو يسعى من خلالهما إلى إظهار إحاطة الله تعالى بكل أفعال البشر

¹ ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص100.

² المصدر نفسه، ص102.

وأقوالهم منذ بداية الخلق إلى آخره، والتي تتعلق بالثنائية الزمنية التي تتمثل في الماضي والمستقبل وهما متضادان لتمثيل الأول ما مضى وفات وتمثيل الثاني للراهن والقادم.

ومنه أيضاً قول ابن الجوزي في معرض حديثه عن صفات الله تعالى وأفعاله: " ... الكريم الذي لا يكف كف من لجأ إليه وافترق، الرحيم الذي لا يعذب بنار بعده من تتصل إليه من ذنبه واعتذر، الحي ب حياة منزهة عن عوارض الآفات والخطر، العالم فسيان في علمه ما ظهر وما بطن"¹، فالطباق بين (ظهر وبطن) وهي أفعال ماضية جاءت من أجل التفصيل في أحد أسماء الله الحسنى وهو " العليم " .

ومفاده أن الله تعالى يعلم ظاهر العبد وخفيه، أي ما يكشفه الإنسان للخلق وما يخفيه عنهم، فهو عز وجل أعلم بسرائر الأقوال والأفعال مهما حاول صاحبها سترها، وهو سبحانه وتعالى عالم بكل شيء . تفصيلاً . من الأزل إلى الأبد، يقول تعالى في كتابه الكريم وحديثاً عن نفسه: " وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا "²، كما يقول تعالى عن نفسه أيضاً وفي سياق الإحاطة بكل شيء في الكون: " إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ "³، والآيتين خير دليل على علمه تعالى بظاهر الأمور وخفيها.

ويقول ابن الجوزي في اختتام الخطبة نفسها: " ... أحمده حمد عبد أنعم عليه فشكر، وأتوكل عليه في حمل أعباء ما أمر، صلى الله عليه وعلى آله وصاحبه أبي بكر الصديق أول من عزّزه ونصر، ومن خصّ بالتقديم والإمامة على كل من غاب وحضر "⁴، فالطباق بين (غاب وحضر)، وهي أفعال ماضية جاءت من أجل إعلاء شأن الصحابي الكريم " أبو بكر الصديق " الذي تقدّم بأفعاله وأقواله الحسنة وبمصاحبته للرسول صلى الله عليه وسلّم، على كل قومه الحاضرين منهم في المجلس

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص103.

². سورة الأنعام: الآية: 80.

³. سورة الشورى: الآية: 12.

⁴. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص104.

والغائبين وعلى باقي الصحابة على وجه الخصوص، فقد دلّ الفعلين بما بينها من مطابقة على اصطفاء هذا الصحابي بإيجاد الأضداد في محل واحد الغياب والحضور.

ومن طباق الأفعال أيضاً قول ابن الجوزي في ذكره لصفات الله تعالى وأسمائه الحسنى: " ... البصير بسواد النمل في ظلام الديجور، السميع بوقع قوائم الهوام على صمّ أصلاد الصخور، المتكلم بالقرآن والإنجيل والتوراة والزبور، والعالم بعواقب الأمور وخفيات الصدور، سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار "¹، فالطباق بين (أسرّ وجهر)، وهي أفعال ماضية، وقد أظهرت المطابقة علم الله تعالى بالسر والجهر على السواء، وقد قدّم الله تعالى . باعتبار القول اقتباس من القرآن الكريم . السر على الجهر، لأن العلم به أدلّ على كمال علمه تعالى وإحاطته بكافة المعلومات.

كما إن مما جاء فيه الطباق بين فعلين قول ابن الجوزي متحدثاً عن أفعال الله تعالى وصفاته: " ... الحاضر وتقدس عن أن ينحصر الغائب وتمجد أن يجتنن، ويسعد ويسلب ويرتهن، ويحبط ويعلم وسيان في علمه ما ظهر وبطن وخرن، ويسمع ويبصر والبادي عنده كالمستكن، يتكلم ويسمع ومن قال بخلق كتابه لعن، ومن مال إلى التشبيه في استوائه فتن "²، فالطباق بين (يسعد ويسلب)، وبين (يسمع ويبصر)، وبين (يتكلم ويسمع).

وقد قامت المطابقات بإظهار قدرة الله تعالى في تقديره لمصير عباده سواء من حيث إسعادهم أو من حرمانهم لذلك، كما أنه تعالى السميع لأصوات عباده الظاهرة والخفية والبصير بأفعالهم الخيرة والشريرة، وهو تعالى يتكلم من خلال كتابه الكريم القرآن الكريم ويسمع لتلاوته من أفواه خلقه وصدورهم، وقد أظهر أسلوب الطباق هذه الحقائق واضحة بذكر الأضداد التي هي أقدر على تمييز الأشياء وتجليتها، كما قد دلت الأفعال بما بينها من مطابقة على كمال قدرة الله تعالى بإيجاد الأضداد في محل

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص106.

². المصدر نفسه، ص132.

واحد، وجاء إسنادها إلى الله تعالى قوياً بالاعتماد على الضمير المستتر في تركيب الأفعال.

1. 2. 1. 1. 2. الطباق بين لفظين مختلفين:

والطباق بين لفظين مختلفين ثلاثة أقسام: " أن يكون أحدهما اسماً والآخر فعلاً، أو يكون أحدهما اسماً والآخر حرفاً، أو يكون أحدهما فعلاً والآخر حرفاً، لكن الشائع في الأساليب الأدبية هو القسم الأول، وهو المطابقة بين الاسم والفعل، وقد مثل السبكي للقسمين الآخرين بأمثلة مصنوعة¹، وقد توفر هذا القسم من الطباق في الخطب وورد كالتالي:

• الطباق بين اسم وفعل:

مما وقع فيه الطباق بين اسم وفعل، قول ابن الجوزي في افتتاحات إحدى الخطب وفي خضم حديثه عن صفات الله تعالى: " الحمد لله الجواد فلا يبخل، الحليم فلا يعجل، القديم الذي ليس له بداية والأول الباقي الذي لا يغني ملكه ولا يتحول"²، فالمطابقة بين (الجواد ويبخل) وبين (الحليم ويعجل)، فالأول اسم والثاني فعل في كلا المطابقتين، فالتعبير بالفعل في الطباق الأول مفيد لنفي البخل وإبعاد صفته عن الله عز وجل، وفي المقابل إثبات صفة الجود، فهو تعالى الكريم الذي أنعم عباده من فضله وعطائه الواسع، والأمر نفسه في الطباق الثاني، فقد جاء فيه التعبير بالفعل لغرض نفي فعل العجلة عن الله تعالى وإبعاد هذه الصفة عنه، وفي المقابل إثبات صفة الحلم، فهو تعالى الحليم والصبور عن عبده المسيء فيمهله إلى حين توبته ورجوعه لله تعالى ثم يستبدل سيئاته حسنات ويأجره عليها بالفوز بالجنات العلاء.

كما إن مما وقع فيه الطباق بين اسم وفعل قول ابن الجوزي في عرض الخطبة نفسها: "... استواؤه وصف له ومن قال بالاستيلاء فقد أمحل، ونزوله ثابت في كل

¹. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص 38. 39.

². ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص 110.

ليلة رواه خمس وعشرون من الصحابة عن النبي المبجل، ودونه البخاري ومسلم ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل، دع المشبه وما سؤل، والمعطل وما بدّل، وإن كنت جاهلاً فاعلم، وإن كنت عالماً فلا تجهل، كيف يشبه المكيف بالتكيف والممثل بالممثل، هذا اعتقاد أهل الحق ومن ادّعى سواه فقد أعدل¹، فالمطابقة الأولى بين (جاهلاً واعلم)، والمطابقة الثانية بين (عالماً وتجهل)، فالأول اسم والثاني فعل في كلا المطابقتين، وفي كليهما رسالة من ابن الجوزي للمتلقي الذي افترض أن يندرج تحت وضعية العلم أو الجهل بصفات الله تعالى وبمنهج الحق.

فالتعبير بالفعل في الطباق الأول في قوله: [وإن كنت جاهلاً فاعلم] قد جاء بصيغة الأمر في قوله " اعلم "، وهي دعوة للمتلقي الجاهل بالدين وأصوله للتعلم والتعرف على صفات الله تعالى وأفعاله التي تعكس نعمه وفضله تعالى على عباده، كما يدعوه للتعرف على منهج الله تعالى في الأرض والذي يتمثل في عبادة الله واتباع رسالة الرسل والصحابة والصالحين من الخلق، بينما أن التعبير بالفعل في الطباق الثاني في قوله: [وإن كنت عالماً فلا تجهل] قد جاء بصيغة النفي، وذلك أنه في سبيل مخاطبة المتلقي العالم بأصول الدين وبالمنهج الصحيح الذي يتبعه المسلم في حياته لنيل مرضاة الله وجناته، وهو ينفي عنه صفة الجهل، ويدعوه للاجتهاد وزيادة العلم والابتعاد عن الجهل لأنه ظلم للنفس وتقصير في حق الله.

1. 2. 1. 3. الطباق باعتبار كون طرفيه من الحقيقة أو المجاز:

ينقسم هذا النوع من الطباق إلى ثلاثة أقسام:

• طباق باعتبار كون طرفيه من الحقيقة:

فما كان طرفاه من قبيل الحقيقة، قول ابن الجوزي ذكرا صفات الله تعالى وسارداً أفعاله في الكون: " ... المألوف كرمه بكل أوان، المعروف قدمه بكل جنان، المعهود فضله بكل مكان، رافع السماء بغير أعمدة ولا أركان، وساطح الأرض على الماء مهاداً

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص111.

للحيوان، وخالق النجوم في الفلك السريع الجريان، مرسل الشهب لرجم كل شيطان، ومقدر سير الخنس وجاعل الشمس والقمر بحسبان¹، ففي القول طباق بين (السماء والأرض)، وبين (الشمس والقمر)، وهذه الألفاظ مستعملة في حقائقها اللغوية فهي من قبيل الحقيقة.

كما يقول في اختتام خطبة أخرى: "... وعلى ذي النورين عثمان، جامع القرآن وسيد الإخوان، المستسلم لقضاء الرحمن، المقتول ظلماً وعدوان، وهو راعع وساجد²، فبين (راقع وساجد) طباق، والطرفان حقيقيان كونهما من حركات الصلاة التي هي ركن من أركان الإسلام.

كما إن من الطباق الحقيقي قول ابن الجوزي في اختتام إحدى الخطب: "... أحمدته على ما أولانا من الإحسان، وأشهد أن لا إله إلا هو شهادة أثقل بها كفة الميزان، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث إلى الإنس والجان، صلى الله عليه وعلى آله وصاحبه أبو بكر الصديق المخصوص بالسبق في الإيمان³، ففي القول طباق بين (الإنس والجان)، وهما لفظين مستعملين في حقائقها اللغوية، ويعبران عن معانيهما المباشرة والحقيقية لا المجازية، كما أنهما حقيقتان مثبتتان الواقع ومذكورتان في القرآن الكريم والسنة النبوية.

كما إن من الطباق الحقيقي قول ابن الجوزي في عرض إحدى الخطب وفي حديثه عن الله تعالى: "... البصير بحركات الذر في سواد الليل إذا اعتكر، المتكلم في الأزل بالكلام القديم والآيات والصور، الموصوف بالصفات المحمولة في كتاب وسنة على ما ذكر⁴، ففي القول طباق بين (البصير والمتكلم) وبين (كتاب وسنة)، وهما حقيقتان، فالكلام والبصر صفتان لله تعالى وهما مثبتتان عنه في القرآن الكريم، فهو عز وجل البصير بأفعال عبده وبطاعته ومعصيته، والسميع لأقواله ولذكره، ونفس الأمر بالنسبة

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص102.

². المصدر نفسه، ص102.

³. المصدر نفسه، ص103.

⁴. المصدر نفسه، ص103. 104.

للطباق الثاني، إذ يعتبر طرفاه من قبيل الحقيقة، كون المقصد من وراء ذكرهما من طرف ناظم الخطب هي الإشارة إلى معانيها الحقيقية، وبالتالي فهو طباق حقيقي لاعتبار طرفيه من الحقيقة.

• طباق باعتبار كون طرفيه من المجاز:

فما كان طرفاه من قبيل المجاز قول ابن الجوزي في اختتام إحدى الخطب: "... صلى الله عليه وعلى آله وخليفته في صلاته، وضجيعه في مماته، ومؤنسه في مخافته، ومن ظهر فضله على غيره في مواساته، وهل يستوي الساهر والنائم، والقاعد والقائم"¹، فالطباق المجازي بين (الساهر والنائم) وبين (القاعد والقائم)، وكلاهما من قبيل المجاز، بحيث شبه ابن الجوزي في كلا الطباقين العابد لله بالساهر والقائم، لاجتهاده في العبادة والذكر وحرصه على مرضاة الله، في حين شبه المتهاون في العبادة بالنائم والقاعد، وذلك تصويراً منه للراحة وعدم شق النفس من أجل العبادة، فطرفا الطباقين من قبيل الاستعارة، لأن ألفاظه واردة على سبيل المجاز لا الحقيقة.

1. 2. 1. 1. 4. الطباق باعتبار الإثبات والنفي:

ينقسم الطباق باعتبار الإثبات والنفي إلى قسمين " طباق الإيجاب وطباق السلب"²، إلا أنه قد توفر لنا في الخطب طباق الإيجاب فقط، وهو كالتالي:

• طباق الإيجاب:

فطباق الإيجاب: " ما كان طرفاه مثبتين معاً أو منفيين معاً"³، فمما كان طرفاه مثبتين معاً، أو ما يسمى بطباق الإيجاب المثبت، قول ابن الجوزي في إحدى الخطب: "... صوّر ودبّر وقدر فكل شيء بمشيئته، ورزق ووهب وفطر وخلق وكل شيء من صنعته، ليس له شريك في مملكته، وليس معه مدبر في قضيته، يبصر ويسمع ويضر

¹ ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص101.

² الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص40.

³ المرجع نفسه والصفحة نفسها.

وينفع ويدبر خلقه بحكمته، يقرب ويبعد ويشقي ويسعد ويطلع على سر عبده وطويته، يعدم ويوجد ويمتع ويرفد ويريد كل فعل في بريته، وينشئ ويبدع ويتكلم فيسمع وينزل وحيه على من يختص من خليقته¹، بحيث يظهر طباق الإيجاب المثبت بين (يبصر ويسمع)، و(يضر وينفع)، و(يقرب ويبعد) و(يشقي ويسعد)، و(يعدم ويوجد) و(يمتع ويرفد) و(يتكلم ويسمع)، وكلها أفعال مثبتة تبين سلطان الله تعالى المطلق، وملكه التام للكون.

ومما كان طرفاه منفيين معاً، أو ما يسمى بالطباق المنفي قول ابن الجوزي في خطبة أخرى: " ... هذا مذهب أهل الحق وما الجاحد كالمثبت ولا الراقد كالساهر"²، وفيه ينفي ابن الجوزي تشبيهه الجاحد لنعم الله تعالى كالمثبت لها والمؤمن بها، فهما لا يتساويان من حيث الفعل والنتيجة، كما لا يتساوى الراقد والساهر، فالراقد ليس كالساهر، من حيث أفعال الطاعة.

❖ بلاغة الطباق:

أضفى الطباق على الخطب جمالية خاصة، وخاصة تلك التي توفر فيها عدد لا بأس به من المطابقات، فقد منحت الألفاظ ميزة خاصة أضفت بلاغة على مستوى الخطب، و: " لا تكمن بلاغة الطباق في مجرد الجمع بين المعاني المتقابلة والألفاظ المتضادة، فهذه حلية شكلية وزخرفة لفظية لا تقاس بها جودة الأسلوب ولا تقدر بها قيمته، وإنما ترجع بلاغة الطباق إلى تأثيره في ناحيتين: ناحية لفظية: وذلك بمجيئه في الأسلوب سلساً طيعاً غير متكلف، فيخلع عليه جزالة وفخامة، ويجعل له وقعاً جميلاً مؤثراً، وناحية معنوية: بما يحققه من إيضاح المعنى وإظهاره وتأكيد وتقويته، عن طريق المقارنة بين الضدين، وتصور أحد الضدين فيه تصور للآخر، وعلى هذا،

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص100.

². المصدر نفسه، ص133.

فالذهن عند ذكر الضد يكون مهياً للآخر ومستعداً له، فإذا ورد عليه ثبت وتأكد فيه
1".

وينبغي أن يكون الأثر المعنوي للطباق هو الغالب عليه، فقد حققت المطابقات من خلال الخطب قيمة معنوية خاصة، وذلك من حيث إظهار قوة وسلطة الله تعالى على عباده وعلى الكون بأكمله، وعلى تمجيد الله تعالى والثناء عليه بسلطانه المطلق، وملكه التام للكون وما فيه، وقدرته على التصرف كما يشاء، كما قام أسلوب الطباق بإظهار هذه الحقائق واضحة بذكر الأضداد التي هي أقدر على تمييز الأشياء وتجليتها، فالله تعالى يفعل كل تلك الأفعال ولا أحد ينازعه في ذلك، كما قد دلت صفات الله تعالى المذكورة وأفعاله المسرودة بما بينها من مطابقة على كمال قدرة الله تعالى وسلطانه الأبدي، وذلك بإيجاد الأضداد في محل واحد، وهو ما يتخالف مع صفات البشر القابلة للتغيير والزوال.

1. 2. 2. المقابلة:

1. 2. 2. 1. مفهومها وصورها:

وردت في لسان العرب: " قابل الشيء بالشيء مقابلة وقبالاً: عارضه، الليث: إذا ضمنت شيئاً إلى شيء قلت قابلته به، ومقابلة الكتاب بالكتاب، وقباله به: معارضته، وقوله تعالى في وصف أهل الجنة: [إخواناً على سرر متقابلين] والمقابلة: المواجهة، وهو قبالك وقبالتك: أي تجاهك" 2

وهي أيضاً: " المعارضة، تقول: قابلت الشيء بالشيء مقابلة إذا عارضته به وواجهته، وفي اصطلاح البلاغيين: أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر ثم بما يقابل ذلك على الترتيب" 3، وهي تشبه إلى حد ما الطباق، إلا أن: " المطابقة لا تكون إلا بالجمع بين ضدين، والمقابلة تكون غالباً بالجمع بين أربعة أضداد، ضدان في صدر

1. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص 50. 51.

2. ابن منظور: لسان العرب، ص 3519.

3. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص 53.

الكلام وضدان في عجزه"¹، كما يتوفر بين المطابقة والمقابلة اختلاف آخر يكمن في أن: "المطابقة لا تكون إلا بالأضداد، والمقابلة تكون بالأضداد وبغير الأضداد"²، ومن صورها المتوفرة في الخطب:

• مقابلة معنيين بمعنيين:

كقول ابن الجوزي في إحدى الخطب، وفي شأن عرض صفات الله تعالى وكذا حال العباد في اعترافهم أو جردهم لتلك الصفات، يقول: "... المرید فبین سعید بقربه وشقي بصدوده"³، فالسعادة يقابلها الشقاء، والقرب يقابله الصدود، وبالتالي فالسعادة بالقرب يقابلها الشقاء بالبعد، وفي القول مقابلة بين معنيين، وشبيهة هذه المقابلة ما أورده ابن الجوزي في موضع آخر من الخطب وفي الشأن نفسه، في قوله: "سعید بقربه وشقي بإبعاده"⁴، والمراد من هذه المقابلة سعادة المؤمن بقربه من الله بالعبادة والطاعة، وشقائه ببعده عن الله عز وجل وعن ما شرعه من قوانين وأصول وجب اتباعها وعدم الزيغ عنها.

كما يقول في الخطبة نفسها، وفي حديثه عن معجزات الله تعالى في الكون وتفاصيله: "... الناطق بمعجزاته تقدم وجوده، نطق بتوحيده الجماد بصلده، والحجر بجلموده، والبحر بحيتانه والبر بأسوده"⁵، وقد توفرت المقابلة في قوله: [والبحر بحيتانه والبر بأسوده]، بحيث قابل بين معنيين، إذ قابل بين البحر والبر، وبين الحيتان والأسود، وقد أنت المعاني فيها متوافقة أولاً، فالبحر والحيتان متوافقان، والبر والأسود متوافقان، ثم حصل بينها التنافي والتضاد بسبب الجمع بينهما، والمراد من هذه المقابلة إظهار قدرة الله تعالى العظيمة ووحدانيته في خلق الكون وسلطته عليه، وعلى قوة ملكوته الذي وسع البر والبحر بما احتواها.

¹. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص53.

². المرجع نفسه، ص54.

³. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص107.

⁴. المصدر نفسه، ص118.

⁵. المصدر نفسه، ص107.

وهو ما حصل كذلك في قوله: " ...العالم بعواقب الأمور وخفيات الصدور، سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار "1، فالمقابلة بين [مستخف بالليل وسارب بالنهار]، والتي تحتوي على معنيين متوافقين هما: الاستخفاء بالليل والذي يدل على حالة العاصي الذي يخفي معصيته عن العباد، وكذا معنى الظهور بالنهار والذي يدل على عدم إظهار المعصية والتظاهر بأن شيء لم يكن، ثم حصل بين هذين المعنيين تنافي وتضاد بسبب الجمع بينهما، فحصل بين المعنيين تقابل وذلك بين الاستخفاء الذي يقابله الظهور، والليل الذي يقابله النهار، والمراد من هذه المقابلة إظهار قدرة الله تعالى وإحاطته بهذا العاصي وبأفعاله وأقواله التي يظهرها والتي يخفيها على السواء.

وتظهر المقابلة كذلك في حديث ابن الجوزي عن أحوال العباد مع الله تعالى، يقول: " ... كل إيمان بإسعاده وكل جحود بحرمانه "2، وفي القول معنيين متوافقين هما الإِسعاد والإِيمان، والجحود والحرمان، ثم حصل بعدها التنافي، بحيث قابل بين الإِيمان بالله وبصفاته وبين جحدها وعدم الاعتراف بالله تعالى وبأسمائه الحسنی، كما قابل بين الإِسعاد أو نيل السعادة في الدنيا والآخرة والحرمان من تلك السعادة بالشقاء في الدنيا وتقويت الأجر والثواب، والمراد من هذه المقابلة إظهار النتيجة والثواب الذي يتلقاه العبد من الله تعالى جراء أقوال وأفعال الخير أو السوء التي تصدر منه، فهو يجازى بالسعادة إن هو آمن بالله تعالى وبمنهجه الحق، ويحرم منها إن هو أعرض عن الله تعالى ولم يتبع أوامره ونواهيه.

• مقابلة ثلاثة معانٍ بثلاثة معانٍ:

كقول ابن الجوزي في شأن حديثه عن زمن بعث الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: " ... أرسله ونار الكفر في ضياء ونور لإيمان في انطفاء "3، وفيه يقابل

1. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص106.

2. المصدر نفسه، ص115.

3. المصدر نفسه، ص107.

ابن الجوزي بين ثلاثة معان هي: النار والنور، والكفر والإيمان، والضياء والانطفاء، وقد عرضهما عن طريق معنيين متوافقين، تمثل المعنى الأول في ضياء نار الكفر وهي كناية عن شيوع الكفر بين العرب وتعدد وسائل وسبل الفسوق والعصيان، بينما تمثل المعنى الثاني في انطفاء نور الإيمان، وهي كناية عن قلة أو انعدام الوازع الديني لإنشغال العرب بملذات الدنيا وبمجالس اللهو والخمر والمجون، وقد حصل بين هذين الطرفين تناف بعد الجمع بينهما، وذلك لاشتغال المعنى الأول بوصف حالة الكفر، واشتغال المعنى الثاني بوصف حالة الإيمان.

كما إن من المقابلات التي برزت في الخطب والتي يقابل فيها ابن الجوزي ثلاثة معان بثلاثة معان قوله في اختتام إحداها: " ... أحمدته حمد من وجل من التقصير، وأشكره على الكثير واليسير، وأتوكل عليه في التسهيل والتعسير، وأشهد أن محمداً رسوله إلى الأمة، أرسله نعمة ورأفة ورحمة، وعلى عمه جد الخلفاء الأخيار ذي المنزلة العالية والحرمة السامية والوقار، خلد الله دولة خلافتهم ما أفل نجم نازل وظهر هلال صاعد ¹"

فالمقابلة في قوله: [أفل نجم نازل وظهر هلال صاعد]، وفيها يقابل ابن الجوزي بين ثلاثة معان، فهو يقابل بين الأقول والظهور، وبين النجم والهلال، وبين النازل والصاعد، والتي تم تشكيلها عن طريق معنيين متوافقين، تمثل الأول في أفول الممج النازل، بينما تمثل الثاني في ظهور الهلال الصاعد، والمراد من هذه المقابلة دعوة ابن الجوزي الله تعالى لتخليد دولة خلافة المسلمين على طول الزمان ولأبد الأبد.

وشبيهة هذه المقابلة قول ابن الجوزي في اختتام خطبة أخرى: " ... صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الصديق المفضل بما ثبت في صدره على كل صاحب، صلاة دائمة ما لمع نجم طالع وخفي بسير غارب، وشرف وكرم ²، وفيها يوافق بين معنيين: لمعان النجم الطالع وخفاء البسير الغارب، ويقابل في الوقت نفسه بين ثلاثة معان هي

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص 101. 102.

². المصدر نفسه، ص 126.

اللمعان والخفاء، والنجم والبسير، و: " البسرُ الإعجال، وبَسَرَ حاجته يبسرُها بسرًا وبِسارًا وابتسرُها وتبسرُها طلبها في غير أوانها"¹، بحيث تصور هذه اللفظة استعجال بعض النجوم في الغروب والاستتار والخفاء على عكس النجوم التي تتسارع للطلوع.

كما نجده يقابل بين لفظتي الطالع والغارب، والمراد من هذه المقابلة دوام الصلاة على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه، وتذكير المتلقي بالالتزام بهذا الذكر في كل الأوقات وعلى مر الزمان.

• مقابلة أربعة معانٍ بأربعة معانٍ:

كقول ابن الجوزي في وصف الله تعالى والتذكير بقدرته في الأرض والسماء: " خالق النهار بأنواره والليل بسواده والبحر بحركته والبر بجماده"²، وفي القول مقابلة بين أربعة معانٍ، فالنهار يقابله الليل، والأنوار يقابلها السواد، والبحر يقابله البر، والحركة يقابلها الجماد، والمراد بهذه المقابلة تذكير العباد بتفاصيل خلق الله تعالى للموجودات في هذا الكون، والتمتع فيها، من أجل إدراك فضل الله تعالى على البشر، وبالتالي حمده وشكره على نعمه التي وسعت كل شيء.

❖ بلاغة المقابلة:

تؤثر المقابلة البليغة في الأسلوب شكلاً ومضموناً، فهي توجد في الشكل: " نمطاً من التوازن والتناسب له حسنه وبهاؤه، فالألفاظ متجانسة، والجمل متوازنة، والتقابل بينها يحدث أثراً صوتياً له قيمته في وقع الأسلوب، وفي المضمون تظهر المعنى واضحاً قوياً مترابطاً، ففيها يتم ذكر الشيء ومقابله وعقد مقارنة بينهما، فتتضح خصائص كل منهما، وتتحدد المعاني المرادة في الذهن تحديداً قوياً، وهي من هذه

¹. ابن منظور: لسان العرب، ص279.

². ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص118.

الناحية تشبه المطابقة، إلا أن قيام المقابلة على الجمل وبنائها على المواجهة بين معنيين فأكثر يضيف لها خاصية لا توجد في المطابقة¹.

اقرأ قول ابن الجوزي: " من تقدم فبطاعته فبتقديمه، ومن تأخر فبمعصيته فبتأخيره²، وتأمل ما في القول من مقابلات جميلة، أنك تحس أثرها اللفظي في سبك الأسلوب سبكاً قوياً وإظهاره في صورة بديعة تأسر الأسماع وتخلب الأبواب بكلماتها المتلائمة وجملها المتوازنة، وإيقاعها الأخاذ، ولا يحدث شيء من هذا إن تغيرت الجمل عن نظمها المتقابل.

كما تلحظ أثرها المعنوي جلياً معانياً، فالمقابلة الأولى بين [تقدم وتأخر] تريك حالة العبد والمنزلة التي ينالها حين ملاقة خالقه، وهي تتحدد بتقدمه على الخلق بعمله الصالح وأفعال الخير والصلاح التي كان يمارسها، أو بتأخره عن الخلق باتباع الدنيا بملاذاتها والتفريط في جنب الله، والمقابلة الثانية بين [طاعته ومعصيته] تريك أهم سببين يمكن للعبد أن يتخذهما للفوز بالجنة أو للشعور بالندامة يوم الحساب، وقد قابل ابن الجوزي كل طرف من الكلام بالطرف الآخر على الترتيب، فحصل في الكلام بهذا السبب عدة ضروب من المحاسن، ألا تراه يضمن في صدر الكلام وفي عجزه سببين يؤدي بالضرورة وبلا محالة إلى نتيجتين، فهو يربط في صدر الكلام التقدّم بالطاعة ويربط في عجزه التأخر بالمعصية، كما أنه يرتب كلامه الترتيب الصحيح الذي يتوافق ومقتضى الحقيقة، ف: " المقابلة البليغة ما جاءت صحيحة مطبوعة، وصحة المقابلة تتحقق من ترتيب الكلام على ما ينبغي، فإذا أتى المتكلم في صدر كلامه بأشياء، قابلها في عجزه بما يلائمها من أصدادها أو أغيارها من المخالف والموافق على الترتيب"³.

¹. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص66. 67.

². ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص128.

³. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص64.

1. 2. 3. السجع:

1. 2. 3. 1. مفهومه:

ورد في لسان العرب: " سَجَعٌ يسَجَعُ سَجْعاً: استوى واستقام وأشبهه بعضُهُ بعضاً، والسجع: الكلام المقفى، والجمع أسجاعٌ وأساجيع، وكلام مسجّع، وسجع يسجَعُ سجعاً وسجَعٌ تسجيعاً: تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن، قال ابن جنبي: سمي سجعاً لاشتباهه أواخره وتناسب فواصله ¹"

كما أن السجع: " فن أسلوبي اشتهر في الأدب العربي، وشاع على ألسنة الفصحاء قديماً وحديثاً، وهو مأخوذ من سجع، وفي هذه المادة دلالة على الاستواء والاستقامة والمثابته، يقال: سجع يسجع سجعاً، أي استوى واستقام وأشبهه بعضه بعضاً، وسجع الحمام: هدل على طريقة واحدة، وسجع له سجعاً: قصد، أي وصل السجع القصد المستوي على نسق واحد، والسجع في اصطلاح البلاغيين: تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد، أي أن تتفق الكلمتان الواقعتان في نهاية جملتين في الحرف الأخير منهما، وبذلك يتم التشابه والتناسب بينهما ²"

كما ويعرّف بأنه: " تماثل الحروف في مقاطع الفصول، وهو يظهر آثار الصنعة في الألفاظ، وكما أن الشعر يحسن بتساوي قوافيه كذلك النثر يحسن بتماثل الحروف في فصوله ³"

وفي السجع أربع مصطلحات يجب الوقوف عليها وتوضيحها هي:

" أ . القرينة: وهي القطعة من الكلام المزوجة للأخرى، وتسمى الفقرة كذلك.

ب . الفاصلة: وهي الكلمة الأخيرة في القرينة أو الفقرة.

ت . التقفية: وهي توافق الفواصل في الحرف الأخير.

¹. ابن منظور: لسان العرب، ص1944.

². الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص101.

³. ينظر: الخفاجي: سر الفصاحة، ص164. 165.

ث . الروي: وهو الحرف الأخير في الفاصلة، وهذه التسمية مأخوذة من روي القصيدة، وهو الحرف الذي تبنى عليه القصيدة، وتنسب إليه¹

فقول ابن الجوزي في وصف الله تعالى: " الفاتق الراق الصمد، القيوم الواحد الفرد من غير عدد، القديم وجوده أول كل أحد، الحي لا إلى انتهاء وأمد " يشتمل على أربعة جمل، كل جملة منها تسمى قرينة أو فقرة، والكلمة الأخيرة في كل قرينة تسمى فاصلة، وحرف الدال في نهاية كل فاصلة هو الروي.

1. 2. 3. أقسامه:

والسجع باعتبار اتفاق الفاصلتين أو اختلافهما في الوزن والتقفية على ثلاثة أقسام: المطرف والمرصع والمتوازي:

• المطرف:

وهو: " ما اتفقت فيه الفاصلتان في التقفية واختلفتا في الوزن، كما في قوله تعالى: [مالك لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً]، فوقاراً وأطواراً فاصلتان متفقتان في التقفية إذ تنتهيان بحرف الراء، ومختلفتان في الوزن، والمعتبر في الوزن، الوزن العروضي الذي لا ينظر فيه إلى اتحاد الحركة، ولا لكون الحرف أصلياً أو زائداً، بل ينظر فيه إلى مقابلة متحرك بمتحرك وساكن بساكن²

ومن أمثله في الخطب قول ابن الجوزي في حديثه عن قدرة الله تعالى: " ... القادر على الإيجاد والإعدام، القاهرة سطوته نواصي الأنام³، فالإعدام والأنام فاصلتان متفقتان في التقفية إذ تنتهيان بحرف الميم، ومختلفتان في الوزن فالمتحرك فيها لا يقابل المتحرك والساكن لا يقابل الساكن، فإذا أتينا إلى فاصلة (إعدام) بحذف أداة التعريف وجدنا وزنها العروضي يتكون من: [00/0/]، بينما يتكون الوزن العروضي لفاصلة (أنام) من: [00//]، والفرق بينهما أن الفاصلة الأولى قد تفرق متحركاها

¹. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص101.

². المرجع نفسه، ص102.

³. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص101.

بساكن، بينما في الفاصلة الثانية قد تجاوزا، وبالتالي فحركات الفاصلتين وسكناتهما لا يتقابلان جميعاً.

وفي قوله أيضاً: " ... أحمده حمد من وجل من التقصير، وأشكره على الكثير واليسير، وأتوكل عليه في التسهيل والتعسير، وأؤمن أن إليه المرجع والمصير"¹، فكل فواصل القول والتي مثلتها ألفاظ (التقصير، اليسير، التعسير، المصير) منققة في التقفية، إذ تنتهي جميعها بحرف الراء، إنما الاختلاف حاصل في الوزن العروضي، والذي يتخذ في القول صورتين تم حضورهما في القول بالتناوب، وقد تمثل تقطيعهما العروضي بحذف أداة التعريف في الشكلين التاليين: [00/0/] و [00//]، وهما يختلفان من حيث تقابل حركاتهما وسواكنهما.

كما ويظهر السجع المطرف في قول ابن الجوزي: " الحمد لله الأول ولا زمان، الآخر ولا أكوان"²، إذ تتفق كل فاصلتا القول من حيث التقفية لانتهائهما بحرف النون وتختلفان من حيث الوزن العروضي، إذ لا تتفق كلمتا: (زمان وأكوان) في الوزن العروضي، فلكل منهما وزنها الخاص والذي تمثل حسب ترتيبها فيما يلي: [00//]، [00/0/].

ومن أمثله أيضاً قول ابن الجوزي: " الشكر لله الذي خلق الأرض والسماء، وأرسي الجبال وأجرى الماء، وفصل الأمور وقدر الأشياء"³، وفيه تتفق الفواصل التي مثلتها كلمات: (السماء، الماء، الأشياء) في التقفية، لاشتراكها في حرف الروي، وهي الهمزة التي أتت على السطر، بينما تختلف في الوزن العروضي ذلك أن حركاتها وسكناتها لا تتقابلان، وقد ظهر هذا من خلال التقطيع العروضي للفواصل بحذف أداة التعريف منها، وهو مبين ومرتب حسب ترتيب ذكرها فيما يلي: [00//]، [00/]، [00/0/].

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص101.

². المصدر نفسه، ص102.

³. المصدر نفسه، ص106.

كما إن من أمثله قول ابن الجوزي متحدثاً عن نجوم السماء: " ... عطفت عليها غائرة عساكر النهار، وثار عليها الفجر طالباً للثأر، وغار منها القمر فطلع بعد أن غار"¹، فالفواصل الثلاث المتمثلة في: (النهار، الثأر، غار) تتفق في التقفية لانتهائها بحرف الراء، وتختلف في الوزن العروضي، ومن هذا قوله أيضاً في وصف الله تعالى: " ... لا ثاني يشفعه في وحدانيته وانفراده، القديم قبل الكون وأباده، الباقي بعد الدهر ونفاده"²

وقد سمي هذا اللون مطرفاً: " لأن الاتفاق بين الفاصلتين واقع في طرفيهما، وهو الحرف الأخير منهما المعروف بالروي"³

• المرصع:

وهو: " ما اتفقت فيه الفاصلتان في الوزن والتقفية مع اتفاق باقي ألفاظ القرينتين أو أكثرها في الوزن والتقفية كذلك، كقول الحريري: فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه، فكل ألفاظ القرينتين تتفق في الوزن والتقفية، وهذا النوع إذا سلم من التكلف والاستكراه فهو أحسن وجوه السجع، لظهور التناسب التام بين جميع ألفاظه، مما يجعل له وقعاً موسيقياً أخاذاً، وسمي مرصعاً تشبيهاً له بالعقد المرصع، وهو ما يجعل فيه إحدى اللؤلؤتين في مقابلة الأخرى مثلها"⁴

ومن أمثله في الخطب قول ابن الجوزي: " الحمد لله الذي جاد بفضله على واجديه، وجاد ببذله على سائليه"⁵، وفيه تتفق الفاصلتين في الوزن والتقفية مع اتفاق كل ألفاظ القرينتين في الوزن والتقفية كذلك، بحيث تنتهي فواصلهما بالضمير المتصل الهاء في لفظتي: (واجديه، سائليه)، كما تتوفق من حيث الوزن لانتمائهما من حيث التقطيع العروضي إلى وزن [فاعليه / 00//0]، كما وتتفق كل ألفاظ القرينتين في

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص116.

². المصدر نفسه، ص118.

³. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص103.

⁴. المرجع نفسه والصفحة نفسها.

⁵. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص128.

التقفية والوزن، فلفظة: (جاد) تقابلها لفظة (جاد) واللذان تنتميان إلى التقطيع العروضي: [/0/] ، لفظة: (بفضله) تقابلها لفظة: (ببذله) واللذان تنتميان للتقطيع العروضي: [//0//] ، (على) تقابلها (على) وتقطيعهما: [0//] ، ولفظة: (واجديه) تقابلها لفظة: (سائليه) واللذان تنتميان للتقطيع العروضي [00//0/] .

كما ويظهر السجع المرصع في قول ابن الجوزي في الخطبة نفسها: " ... انفراده ثابت لا نفيه، وسلطانه ظاهر لا نخفيه"¹، وفيه تتفق الفاصلتان المتمثلتان في لفظتي: (نفيه) و(نخفيه) من حيث الوزن والتقفية، فحرف رويهما هو ضمير المتصل الهاء، كما ينتميان إلى التقطيع العروضي الذي على صورة: [00/0/] ، كما وتشارك معظم ألفاظ القرينتين في الوزن والتقفية كذلك، فلفظة: (انفراده) تقابلها لفظة: (سلطانه) وهما يشتركان في التقفية ويختلفان في الوزن، لفظة: (ثابت) تقابلها لفظة: (ظاهر) وهما يتفقان في الوزن ويختلفان من حيث التقفية، و: (لا نفيه) تقابلها (لا نخفيه) وهما يشتركان في الوزن والتقفية.

ومن أمثلة السجع المرصع كذلك قول ابن الجوزي في خطبة أخرى: " الحمد لله عالم السرائر والأضمار، وغافر الجرائم والأوزار"²، وفيه تتفق فاصلتا القول والمتمثلتان في لفظتي: (الأضمار) و(الأوزار) في الوزن والتقفية، بحيث يشتركان في التقطيع العروضي نفسه والذي أتى على شكل: [/0/0/0/] ، كما أنهما يتحدان من حيث انتهائهما بحرف روي واحد وهو الراء، بالإضافة إلى هذا فإن معظم ألفاظ القرينتين ناهيك عن الفاصلتين، قد اتفقتا من حيث الوزن والتقفية كذلك، فلفظة: (عالم) تقابلها لفظة (غافر) وهما يتفقان في الوزن ويختلفان في التقفية، فحرف روي الأولى هو الميم بينما حرف روي الثانية فهو الراء، كما أن لفظة: (السرائر) تقابلها لفظة: (الجرائم)، وهما يتفقان كذلك في الوزن ويختلفان في التقفية، فحرف روي الأولى هو الراء بينما حرف روي الثانية فهو الميم.

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص129.

². المصدر نفسه، ص120.

ومنه أيضاً قول ابن الجوزي: " وهل يستوي الساهر والنائم، والقاعد والقائم "1، فلفظتي الفاصلتين: (النائم) و(القائم) تتفقان من حيث الوزن والقافية، فحرف رويهما هو الميم وتطبيعها العروضي قد أتى على وزن: [0/0/0/]، كما تتفق باقي لفظتي القرينتين والمتمثلتان في: (الساهر) و(القاعد) في الوزن: [0/0//]، إلا أنهما تختلفان من حيث التقفية، إذ تنتمي الأولى لحرف الروي الرء بينما تنتمي الثانية لحرف الروي الدال.

ومن أمثاله أيضاً قول ابن الجوزي: " الحمد لله الذي أحرق في طلب قربه أشباح القاصدين وأفناها، وألق في طلب حبه أرواح المشتاقين وأضناها "2، ففاصلتا: (أفناها) و(أضناها) متفقتان من حيث الوزن والتقفية، كما أن أكثر ألفاظ القرينتين تتفق كذلك من حيث الوزن والتقفية، لفظة: (أحرق) تقابلها لفظة: (ألق)، شبه جملة: (في طلب) تتكرر، لفظة: (قربه) تقابلها لفظة: (حبه)، لفظة: (أشباح) تقابلها لفظة: (أرواح)، وكلها تتفق في الوزن والتقفية، فقط الاختلاف في لفظتي: (القاصدين) و(المشتاقين)، إذ تتفقان في التقفية لاشتراكهما في حرف الروي نفسه، وتختلفان في الوزن فالمتحرك فيهما لا يقابل المتحرك والساكن لا يقابل الساكن.

والأمثلة على هذا المنوال كثيرة ومتعددة، نذكر منها باختصار: " العادل عن خدمته غير عادل، والغافل عن معاملته غير عاقل "3، والتي تتفق فيه فاصلتا القول في الوزن والتقفية مع اتفاق أكثر ألفاظ القرينتين في الوزن والتقفية كذلك.

ومنه أيضاً قوله: " الحمد لله ساتر المعائب، وغافر الشوائب "4، وفيه تتفق الفاصلتان في الوزن والتقفية مع اتفاق كل ألفاظ القرينتين في الوزن والتقفية كذلك، ونظيره قول

1. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص101.

2. المصدر نفسه، ص122.

3. المصدر نفسه، ص127.

4. المصدر نفسه، ص125.

ابن الجوزي أيضاً: " الحمد لله موقظ الغافل، ومبغض الرافل "1، إلى غيرها من الأمثلة التي تضي على الخطبة حسناً وبهاءً مختلف النظير.

• المتوازي:

وهو: " ما اتفقت فيه الفاصلتان وزناً وتقفيّةً، كقوله تعالى: فيها سرر مرفوعة، وأكواب موضوعة، وسمي هذا النوع متوازياً لتوازي الفاصلتين وتوافقهما وزناً وتقفيّة "2، فالفاصلتان (مرفوعة وموضوعة) متفقتان في الوزن والتقفيّة.

ومن أمثله قول ابن الجوزي في افتتاح إحدى الخطب، وفي ذكره لصفات الله تعالى: " الحمد لله غافر الزلل، وسائر الخلل، ومقدر الأجل، ورافع العمل "3، فالفواصل التي عبرت عنها كلمات: (الزلل، الخلل، الأجل، العمل) كلها متفقة في الوزن والتقفيّة، إذ تحمل نفس التقطيع العروضي المشكل من: [0//0/]، كما أنها تحمل حرف الروي نفسه وهو اللام.

ومنه قوله أيضاً: " الحمد لله رافع السماء بالقدرة القاهرة، ومزينها بالكواكب الثابتة والسائرة، ومسيرها بتقدير السير إلى الأفلاك الدائرة، وخالق الشمس والقمر بالوحدانية الباهرة، مسبح نعمه على خلقه باطنة وظاهرة "4، فالفواصل المتمثلة في: (القاهرة، السائرة، الدائرة، الباهرة، ظاهرة) كلها متفقة في الوزن والتقفيّة، إذ تحمل تنتمي لنفس التقطيع العروضي المشكل من: [//0/] وذلك بحذف أداة التعريف من كل فاصلة، كما أنها تنتمي لحرف الروي نفسه وهو الراء.

كما إن من أمثله قول ابن الجوزي في حمد الله تعالى: " ... أحمده على نعمه السابغة الغامرة، وأشهد أن لا إله إلا الله أنال بها الدنيا والآخرة والرتب الفاخرة، وأشهد

1. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص125..

2. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص103.

3. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص100.

4. المصدر نفسه، ص104.

أن محمداً عبده ورسوله ذو الأخلاق الزكية الطاهرة¹، فالفواصل الثلاث المتمثلة في: (الغامرة، الفاخرة، الطاهرة) تشترك في حرف الروي وهو الراء، كما تشترك في التقطيع العروضي المشكل من: [//0/0/]، وبالتالي فهي تتفق في الوزن والتقفية.

ويظهر السجع المتوازي أيضاً في حديث ابن الجوزي عن الله تعالى، يقول: "... رب قدير قدر فقدر وأحسن في قدرته وتقديره، وأنشأ وصور وأتقن في إنشائه وتصويره، وحكم وأحكم ما أوجده بحكمته وتدبيره، أحرق أرواح محبيه بنار تحبيره، وهيم هم طائعيه بسطوة تحذيره"²، فالفواصل الخمسة المتمثلة في: (تقديره، تصويره، تدبيره، تحبيره، تحذيره) تحمل نفس حرف الروي وهو الضمير المتصل الهاء الذي يعود على الله تعالى، كما أنها تشترك في نفس التقطيع العروضي المشكل من: [0/0/0/]، وبالتالي فهي تتفق في كل من الوزن والتقفية.

وأمثلة السجع المتوازي كثيرة ومتعددة، نذكر منها باختصار قول ابن الجوزي: " الحمد لله مسكن روعات قلوب الخائفين بإيمانه، ومحبي موات نفوس الطالبين بإحسانه، وسائر أسرار المذنبين بعفوه وغفرانه"³، فالفواصل الثلاث المتمثلة في: (إيمانه، إحسانه، غفرانه) تشترك في نفس حرف الروي وهو الضمير المتصل الهاء الذي يعود على الله تعالى، كما تشترك في الوزن العروضي المشكل من: [0/0/0/]، فهي تتفق في الوزن والتقفية.

ومن الأمثلة التي تتفق في الوزن والتقفية أيضاً قوله: " الحمد لله الذي عم العباد بنعمته وإرفاده، وخصّ العباد بهدايته وتعريفه وإرشاده"⁴، فالفاصلتان متفقتان من حيث حرف الروي ومتقابلتان من حيث حركاتهما وسكناتهما، ومنها أيضاً قوله متحدثاً عن قدرة الله تعالى ووحدانيته في خلق النفس وتشريفه لها بالأفضلية على المخلوقات: " وحملها إذ كلمها بما حملها من تكليف ما أمرها ونهاها، وشرّفها فيما صرفها حيث

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص105.

². المصدر نفسه، ص128.

³. المصدر نفسه، ص114.

⁴. المصدر نفسه، ص118.

صرفها من قصر هواها، وارتضاها دون سواها بما آتاها واصطفأها وحماها¹، وفيه تتفق الفواصل الثلاث (نهاها، هواها، حماها) في الوزن والتقفية.

❖ طول وقصر فقرات السجع:

وتختلف فقر السجع طولاً وقصراً، فمنها القصيرة كقول ابن الجوزي: " الحمد لله سائر المعائب، وغافر الشوائب، وراحم التائب، وموفق الطالب²، ومنها الطويلة كما في قوله: " الحمد لله الذي ذلت لعظمته رقاب الجبابرة وخضعت، وخرت لعزته جباه الأكاسرة واتضعت، وحادت في طلب كفيته خواطر الإلحاد وتقطعت، وترزلت لهيبته صم الصخور وتصدعت³، بحيث تأتي الفواصل المسجوعة متفاوتة من حيث الطول والقصر، فقد تأتي متقاربة وأكثر ظهوراً للقارئ، فتضفي على الفقرات نغماً موسيقياً أكثر بروزاً، وقد تأتي متباعدة فتمنح القارئ طول النفس لكشف السجع فيها، إلا أن الموسيقى فيها تكون قليلة بالنظر إلى النوع الأول.

ولا نبتغي من وراء هذا الكلام تحقيراً أو إنقاصاً من قيمة وتأثير السجع ذات الفقرات الطويلة، إنما إظهاراً منا للاختلافات التي تكمن بين فقرات السجع وتأثيرها على النغم الموسيقي الذي يسود القول، وفي هذا الصدد فقد وضع البلاغيون للسجع الحسن مجموعة مقاييس:

فقد ذكروا أن: " أحسن السجع ما تساوت قرائنه في عدد الكلمات، ثم ما طالت قرينته الثانية، ثم ما طالت قرينته الثالثة، ولا يحسن عندهم أن تأتي القرينة قرينة أقصر منها كثيراً، وذلك لأن السجع إذا استوفى أمده من الأولى لطولها، ثم جاءت الثانية أقصر منها كثيراً، يكون كالشيء المبتور، ويبقى السامع كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها، والذوق يشهد بذلك ويقضي بصحته⁴، إلا أن قصر فقرات السجع

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص122.

². المصدر نفسه، ص125.

³. المصدر نفسه، ص129.

⁴. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص110. 111.

والخطبة بصفة خاصة: "تدل على قوة التمكن وإحكام الصنعة، وأقل ما يكون من كلمتين"¹

❖ بلاغة السجع:

يعتبر السجع إحدى: "الفنون الأسلوبية الفطرية التي تؤثر في النفوس تأثير السحر، وتلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم، لما يحدثه من النغمة المؤثرة والموسيقى القوية التي تطرب لها الآذان، وتهش لها النفس فتقبل على السماع من غير أن يدخلها ملل أو يخالطها فتور، فيتمكن المعنى في الأذهان، ويقر في الأفكار، ويعز لدى العقول، وهذا كله أساس البلاغة ومقصد البلغاء، والسجع عنصر من عناصر التناسب في الكلام، فالأسلوب مقسم إلى فقر متساوية متشاكلة المقاطع، متشابهة الأوزان، متناسقة النغم، وهذا مؤد إلى ربط الكلام وتلاحمه"².

إلا أن لهذا الفن الأسلوبي حدود وضوابط تضمن سلامته وحسنه وتحقق تأثيره في السامعين، منها: "التخفف من هذا السجع، فلا يأتي الكلام كله مسجوعاً ولاسيما إذا كان طويلاً، لما في ذلك من أمارات التكلف والتصنع والاستكراه، فينبغي للمتكلم أن يرسل المعاني على سجيته ويدعها تطلب لأنفسها الألفاظ التي تليق بها مسجوعة وغير مسجوعة"³

وفي هذا السياق يقول عبد القاهر الجرجاني: "وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً، ولا سجعاً حسناً، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حولاً، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن"⁴.

1. محمد بركات حمدي أبو علي، بلاغتنا اليوم بين الجمالية والوظيفية، ص 49.

2. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص 110.

3. ينظر: المرجع نفسه، ص 112.

4. عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان، تح: سعيد محمد الحام، دار الفكر العربي، بيروت لبنان، ط1، 1999، ص 11.

فقد وجدنا ابن الجوزي ينوع من القوافي ساعياً من خلالها إلى عدم إحداث الخلل في المعاني، فهو يطلب المعنى، والمعنى بدوره يطلب اللفظ الذي يلائمه، فيسبكه الناظم بألفاظ ذات قوافي جديدة موائمة للمعاني، فبعد أن يلتقط ابن الجوزي خيط المعنى يقوم بحياكته حياكة جديدة في فواصل جديدة، فتتكون أزواج متوازنة توازناً مقارناً بالنسبة لعنصر مشترك تعود إليه، على نحو قوله في حديثه عن خلق الإنسان: " ... خلقه من صلصال كالفخار، أظهره من الوجود إلى العدم، وأسجد له ملائكته وأخدم، وأطلعه على علم الأسماء وأفهم، ورفع قدره بالتشرف وعلم، واصطفاه على سواه بما عرّفه من الأسرار، رتع في رياض مؤانسته، فامتدت إليه يد عدوه لمنافسته، فعصى فوضع تاج رياسته، وخالف الجبار، وأخرج من دار القرار ¹"

وقد أشرنا في المدخل إلى تقسيمات الخطب باعتبار نسبة حضور السجع فيها، وبعد التحليل والتفصيل في هذا الفن الأسلوبية ونسبة حضوره في الخطب، تبين لنا أن خطب ابن الجوزي من الخطب كثيرة الصناعة، وهي التي يكثر فيها السجع وتتعدد صورته وأشكاله، إلا أن سجعها غير متكلف، لعدم لمحنا لخلل في المعاني أو تكرار فيها، " فيجب ألا تكون إحدى القرينتين تكراراً للأخرى وإلا كان تطويلاً بمعزل عن البلاغة، كما ينبغي ألا يكون السجع متكلفاً من أجل الزخرف اللفظي، بل يجب أن يكون المعنى هو الذي يطلبه والمقام هو الذي يقضيه، ولا يمكن الاستغناء عنه في موضعه الذي جاء فيه ²"، وهو ما اعتمده ابن الجوزي حين نظمه للخطب، بحيث اعتمد في هذا النظم على استراتيجيات لغوية وبلاغية تظهر براعته وتمكنه من العربية ومعرفته بخفاياها.

وبهذه المقاييس، يكون السجع فناً جميلاً بليغاً، يكتسي به اللفظ حلية بهية، ويزداد به المعنى قوة وفخامة، ويجعل الأسلوب مؤثراً في النفس، مستولياً على الأسماع والعقول، إذ يعود الفضل في السجع إلى كل من اللفظ والمعنى، يقول الجاحظ: " فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً، وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ومنزهاً عن

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص106.

². الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص111.

الاختلال مصوناً عن التكلف صنع في القلب صنع الغيث في التربة الكريمة، وقد قال عامر بن عبد القيس: الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الأذان¹

ويقول أرسطو في شأن الكلام ذو النبرات: " فأما الاسم اللاموزون (الذي بدون إيقاع) أي السخيف، فإنه لا متناه (ويقصد أنه غير محدد)، وينبغي أن يكون متناهيًا بشيء وليس بوزن، فإن الذي لا يتناهي ليس بلذّي (أي ليس بلذّي)، وهو خفي مشكل، وكل شيء من الكلام يتناهي إلى عدد ونهاية، فقد ينبغي لذلك أن يكون للكلام نبرات، وأما وزن <mètre> فلا، (...) ثم النبرة <rythme> لا ينبغي أن تكون محققة (أي يجب ألا تراعى بدقة كاملة)²، وفي القول دعوة لإحداث النغم في الكلام.

كما: " قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي: لم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ قال: إن كلامي لو كنت لا أمل فيه إلا سماع الشاهد لقلّ خلافي عليك، ولكنني أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع والأذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلة التقلّت، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره"³

وللسجع: " وقع حلو في الأذن، وسلطان على النفس، واعلم أن السجع لو كان عيباً لكان كلام الله معيباً لأنه مسجوع كله ذو فواصل وقرائن"⁴

¹. أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص83.

². أرسطوطاليس: الخطابة، ص205.

³. أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص234.

⁴. أحمد محمد الحوفي: فن الخطابة، ص180. 181.

1. 2. 4. الجناس:**1. 2. 4. 1. مفهومه:**

ورد في لسان العرب لابن منظور أن الجناس من المجانسة وهي المشابهة، فنقول: " هذا يجانس هذا أي يشاكله"¹، وهو في الاصطلاح أن: " يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتهما في تأليف حروفها"²، ويسمى أيضاً: " المجانسة، والتجنيس، والتجانس، وهو مصدر جانس الدال على المشابهة والمشاكله، وأقرب تعريف له عند البلاغيين: هو التشابه في اللفظ مع الاختلاف في المعنى"³

1. 2. 4. 2. أقسامه:

ينقسم الجناس إلى قسمين، تام وغير تام.

1. 2. 4. 2. 1. الجناس التام:

وهو: "ما اتفق فيه اللفظان في نوع الحروف، وعددها، وهيئتها، وترتيبها"⁴، ومثاله من الخطب قول ابن الجوزي في حديثه عن تفضيل الله تعالى لخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، يقول في إحدى الخطب: " ... وقرن ذكره مع ذكره، واشتق من اسمه اسمه، فالحق محمود وهو محمد وحامد، صلى الله عليه وعلى آله وخليفته في صلاته"⁵، فقد اتفق لفظا (ذكره) في نوع الحروف وعددها وهيئتها وترتيبها، واختلفا في المعنى، ف: (ذكره) الأولى تعود على الله تعالى وتترجم عن طريق التسبيح له عز وجل والاستغفار، أما (ذكره) الثانية فتعود على الرسول صلى اله عليه وسلم وتترجم عن طريق الصلاة عليه عند ذكر اسمه، والذي اقترن ذكره عليه الصلاة والسلام مع

¹ ابن منظور: لسان العرب، ص700.

² أبي هلال العسكري: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ص252.

³ الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص197.

⁴ المرجع نفسه والصفحة نفسها.

⁵ ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص101.

ذكر الله تعالى في الشهادة وتوحيد الله، إذ نقول: [أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله] وكذا [لا إله إلا الله محمد رسول الله].

كما ويظهر من خلال القول نفسه جناس تام آخر تمثل في قول ابن الجوزي [اشتق من اسمه اسمه]، فقد اتفق لفظاً (اسمه) في نوع الحروف وعددها وهيئتها وترتيبها، واختلفا في المعنى أو المراد من خلال إيرادهما، فالمقصود (باسمه) الأولى الله تعالى فهو المحمود الذي يحمده العباد على نعمه ويشكرونه على فضله الواسع، أما (اسمه) الثانية فالمقصود بها اسم محمد خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، والذي بدوره يحمده الله تعالى ويخشاه ويتقيه، وقد اشتق من اسم الله تعالى المتمثل في المحمود، كما قام ابن الجوزي بتوضيح هذا الجناس في قوله: [فالحق محمود وهو محمد وحامد].

كما إن من أمثلة الجناس التام قول ابن الجوزي في حديثه عن خاتم الأنبياء والرسول: " ... وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي قمع برسالته جند الشيطان وقهر، وبدر قمر إبداره في السماء بالهداية وبدر"¹، فقد اتفق لفظاً (بدر) في نوع الحروف وعددها وهيئتها وترتيبها، واختلفا في المعنى.

فالمقصود ب: (بدر) الأولى: صار القمر بدراً، وهي إحدى المراحل التي يمر بها القمر فيتغير شكله المرئي من مرحلة الهلال إلى البدر، وفيه يكون وجه القمر مضيئاً بنسبة مئة بالمئة بالكامل، ويظهر بعد غروب الشمس مباشرة ويختفي عند الشروق، ويضرب لهذا الوجه من القمر بالجمال والحسن، والمراد بالقمر في القول هو الرسول صلى الله عليه وسلم، أما المقصود ب: (بدر) الثانية فقد أتت فعلاً، فقد وردت في لسان العرب على الوجه التالي: " بدرت إلى الشيء أبْدُرُ بُدُوراً: أسرعْتُ، وكذلك بادرْتُ إليه وتبادر القوم: أسرعوا، وبادر الشيء مبادرةً وبداراً وابتدره وبدر غيره إليه يبدره: عاجله، وبدرني الأمر وبدر إلي: عَجَلَ إليّ واستبق "²، فهي إذن بمعنى الإسراع

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص104.

². ابن منظور: لسان العرب، ص228.

والاستعجال، كما وسمي البدر بديراً لمبادرته الشمس بالطلوع في ليلته كأنه يعجلها المغيب، وقيل سمي به لتمامه، وقد حوى القول أيضاً كناية عن الانتصار على الكفار بطلوع البدر وفرح المؤمنين به.

ومن الجناس التام أيضاً حديث ابن الجوزي عن قدرة الله تعالى في تحريك السحاب، يقول: " ... وحركت متون الغصون بالثمار فغادرتها بعد الذبول خضرة ناضرة، ومالت إليها ورق الحمام المستكنة والطائرة، وحنّت إليها القلوب فعطفت نحوها الأبصار ناظرة"¹، فقد اتفق لفظاً (ناضرة و ناظرة) في نوع الحروف وعددها وهيئتها وترتيبها، واختلفا في المعنى، فالمقصود ب: (ناضرة) الأولى: البهية الطلعة وهي من النضارة أي الحسن والإشراق والرونق، أما (ناظرة) الثانية: فهي التي تتعلق بالأبصار والأعين المشاهدة والملاحظة لروعة الخالق في تسيير مظاهر الطبيعة وترتيبها وتجميلها بشتى أنواع الزينة.

ومنه أيضاً قول ابن الجوزي في اختتام إحدى الخطب: " ... صلى الله عليه وعلى آله وصاحبه أبي بكر الصديق أول من عزّزه ونصر، ومن خصّ بالتقديم والإمامة على كل من غاب وحضر، وعلى عمر بن الخطاب الذي شيّد قواعد الإسلام وعمر، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي هدم الأضلام وحطّم الأصنام وكسر، وشهد بفضله أهل البدو والحضر"²، فقد اتفق لفظاً (حضر والحضر) في نوع الحروف وعددها وهيئتها وترتيبها، واختلفا في المعنى، إذ اشتقت (حضر) الأولى من الحضور وهو عكس الغياب، بينما تعني (حضر) الثانية المدينة وهي عكس البادية.

1. 2. 4. 2. 2. الجناس غير التام:

وهو: " ما اختلف فيه اللفظان في نوع الحروف، أو عددها، أو هيئتها، أو ترتيبها"³، وعلى هذا فله أربعة أحوال:

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص105.

². المصدر نفسه، ص104.

³. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص203.

• الاختلاف في نوع الحروف:

" إذا اختلف اللفظان في نوع الحروف كان الجناس على نوعين: مضارع ولاحق ¹"

✓ فالمضارع: " ما كان فيه الحرفان المختلفان متقاربين في المخرج، سواء أكانا في أول اللفظ أو في وسطه أو في آخره ²، وقد توفر لنا مثال واحد تحت هذا النوع، وذلك في قول ابن الجوزي في وصف الله تعالى: " ... استواؤه وصف معلوم، وتكييفه أمر معدوم ³، فالاختلاف بين حرفي اللام والدادل في وسط لفظتي (معلوم ومعدوم)، فهما من الجناس المضارع، لتقارب مخرجيهما، فكلاهما ينتميان إلى حيز الأسنان، إذ تنطق اللام من خلال: " وضع طرف اللسان على الأسنان العليا أو على مغارزها ⁴، ونفس الأمر يحصل مع الدال، فكلاهما من الحروف الأسنانية.

✓ أما اللاحق فهو: " ما كان فيه الحرفان المختلفان متباعدين في المخرج، سواء أكانا في أول اللفظ أو في وسطه أو في آخره ⁵، وأمثله في الخطب عديدة نورد منها قول ابن الجوزي: " الحمد لله غافر الزلل وسائر الخلل ⁶، وقد تجسد الجناس اللاحق بين حرفي الزاي والخاء في أول لفظتي (الزلل والخلل) لتباعد مخرجيهما، إذ تنتمي الزاي لحيز الأسنان بينما تنتمي الخاء لحيز الحنك، فتصدر الزاي: " بوضع طرف اللسان على الأسنان العليا أو على مغارزها، بينما تصدر الخاء بضم ظهر اللسان إلى اللهاة (وهي جزء رخو من الحنك الأقصى يفصل بين الحنك الصلب والحلق، ويسمى أيضاً غشاء الحنك) ⁷"

1. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص204.

2. المرجع نفسه والصفحة نفسها.

3. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص101.

4. الطيّب البكوش: التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، المطبعة العربية، ط3، تونس، 1992، ص38.

5. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص205.

6. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص100.

7. ينظر: الطيّب البكوش: التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، ص38-39.

ومنه أيضاً قوله: " ... القديم وجوده أول كل أحد، الحي لا إلى انتهاء وأمد"¹، فالجناس اللاحق بين حرفي الحاء والميم في وسط لفظتي (أحد وأمد)، وهما متباعدتان في المخرج، " إذ تنتمي الحاء للحروف الحلقية بينما تنتمي الميم لحيز الشفتين، فتتطق الحاء بانقباض الحلق وضيقة وبالتحديد من أدنى الحلق، بينما تتطق الميم بضم الشفتين معاً"²

كما نجد من الجناس اللاحق قول ابن الجوزي: " الحمد لله موقظ الغافل ومبغض الرافل"³، فالاختلاف حاصل بين حرفي الغين والراء في أول لفظتي (الغافل والرافل)، لتباعد مخرجيهما، إذ تتطق الغين " من حيز الحنك وذلك بضم ظهر اللسان إلى اللهاة، بينما تتطق الراء من حيز الأسنان وذلك بوضع طرف اللسان على الأسنان العليا أو على مغارزها"⁴

كما إن من أمثلة الجناس اللاحق قول ابن الجوزي: " ... يعلم ما ستر وخفى، وينظر حركة قوائم الذرة على متن الصفا، ويطلع على خطرات السر وأخفى، ويشهد ما ظهر ولا يخفى عليه ما عفا"⁵، فالاختلاف حاصل بين حرفي الصاد والعين في أول لفظتي (صفا وعفا)، لتباعد مخرجيهما، إذ تنتمي الصاد " لحيز الأسنان، فتتطق بوضع طرف اللسان على الأسنان العليا أو على مغارزها، بينما تنتمي العين لحيز الحلق والتي تفرع بانقباض الحلق وضيقة، وبالتحديد من أدنى الحلق"⁶

ومنه أيضاً قوله: " ... الواكفة عند دعوته من أفاق الغيوم دموع الأمطار، والمنشودة دعوة أولاده في آفاق الأقطار والأمصار"⁷، فالاختلاف بين حرفي الميم والقاف في وسط لفظتي (الأمطار والأقطار)، لتباعد مخرجيهما، إذ تنتمي الميم " لحيز

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص101.

². ينظر: الطيّب البكوش: التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، ص38.39.

³. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص126.

⁴. ينظر: الطيّب البكوش: التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، ص38.39.

⁵. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص101.

⁶. ينظر: الطيّب البكوش: التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، ص38.39.

⁷. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص102.

الشفنتين وذلك بضمهما معاً، بينما تنتمي القاف لحيز الحنك والتي تفرع بضم ظهر اللسان إلى اللهاة¹

ومن أمثله أيضاً قوله: " ... وخصّ محمداً بسماع كلامه حين قال في نصّ القرآن {الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان}²، فالاختلاف في الخاء والنون في أولى كلمتي (خصّ ونصّ) وهو من الجنس اللاحق لتباعدهم مخرجيهما، إذ تنتمي " الخاء لحيز الحنك والتي تفرع بضم ظهر اللسان إلى اللهاة، بينما تنتمي النون لحيز الأسنان والتي تفرع بوضع طرف اللسان على الأسنان العليا أو على مغارزها³

ويقول في حديثه عن بهاء الشمس ونورها وتسابقها مع القمر: " ... وزلت أفراسها بالهزيمة وكبت، وكلت أسياف نورها بالشتات ونبت⁴، فالكاف والنون في أول لفظتي (كبت ونبت) متباعدتين في المخرج، إذ تنتمي الكاف " لحيز الحنك فتفرع بضم مقدم اللسان إلى مقدم الحنك، بينما تنتمي النون لحيز الأسنان فتفرع بوضع طرف اللسان على الأسنان العليا أو على مغارزها⁵

كما يظهر الجنس اللاحق في اختتام إحدى الخطب، وفيه نجد ابن الجوزي يقول: " ... فسلام الله عليه وتحيته، وعلى آله وخليفته، الذي بانث في يوم الغار الحريش شففته، وسبقت إنفاق الكل عند الأجر نفقته⁶، فالشين والنون في أول لفظتي (شففته ونفقته) من الجنس اللاحق لتباعدهم مخرجيهما، إذ تنتمي الشين " لحيز الحنك فتفرع بضم مقدم اللسان إلى مقدم الحنك، بينما تنتمي النون لحيز الأسنان فتفرع بوضع طرف اللسان على الأسنان العليا أو على مغارزها⁷

1. ينظر: الطيّب البكوش: التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، ص 38. 39.

2. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص 103.

3. ينظر: الطيّب البكوش: التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، ص 38. 39.

4. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص 116.

5. ينظر: الطيّب البكوش: التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، ص 38. 39.

6. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص 117.

7. ينظر: الطيّب البكوش: التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، ص 38. 39.

وآخر أمثله قول ابن الجوزي: " ... واشتهر عدله في نصرته الدين وظهر، وعلا سلطانه على طغاة الكافرين وقهر"¹، فالاختلاف بين حرفي الظاء والقاف في أولى لفظتي (ظهر وقهر)، وهما متباعدتين في المخرج، إذ تنتمي الظاء " لحيز الأسنان والتي تقرر بوضع طرف اللسان بين الأسنان، بينما تنتمي القاف لحيز الحنك والتي تقرر بضم ظهر اللسان إلى اللهاة"²

• الاختلاف في عدد الحروف:

" إذا اختلف اللفظان في عدد الحروف سمي الجناس الناقص، لنقصان أحد اللفظين عن الآخر ويكون ذلك على وجهين:

✓ أحدهما:" أن يختلفا بزيادة حرف واحد ويكون في أول الكلمة أو وسطها أو آخرها"³.

- فمن أمثلة الحرف الذي يزداد في أول الكلمة حديث ابن الجوزي عن قدرة الله تعالى وسرد أفعاله عز وجل، يقول: " ... يعلم ما ستر وخفى، وينظر حركة قوائم الذرة على متن الصفا، ويطلع على خطرات السر وأخفى"⁴، فبين (خفى وأخفى) جناس ناقص بزيادة الهمزة في أول كلمة (أخفى).

كما إن من أمثله قول ابن الجوزي في افتتاح إحدى الخطب: " الحمد لله الثابتة أدلة قدرته ووجوده، الشاملة أطراف كرمه وجوده"⁵، فبين (جوده ووجوده) جناس ناقص بزيادة حرف الواو في أول كلمة (وجوده).

- ومن أمثلة الحرف الذي يزداد في وسط الكلمة حديث ابن الجوزي عن وحدانية الله تعالى وتفرده، يقول: " ... الحي لا إلى انتهاء وأمد، المتعالي عن المساعدة والنصرة

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص102.

². ينظر: الطيب البكوش: التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، ص38. 39.

³. ينظر: الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص206.

⁴. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص101.

⁵. المصدر نفسه، ص107.

والممدد، المنزه في وحدانيته عن وجود الزوجية والوالد والولد¹، فبين (الوالد والولد) جناس ناقص بزيادة حرف المد الألف في وسط كلمة (الوالد).

كما إن من أمثله أيضاً حديث ابن الجوزي عن الله تعالى ورسوله الكريم، يقول: " ... فالحق محمود وهو محمد وحامد²، فبين (محمود ومحمد) جناس ناقص بزيادة حرف الواو في وسط كلمة (محمود).

ومن أمثله أيضاً قول ابن الجوزي: " ... وفتح الفتوح ورفع من الدين القواعد³، فبين (فتح وفتوح) جناس ناقص بزيادة حرف الواو في وسط كلمة (فتوح).

ومنه أيضاً قول ابن الجوزي: " ... القادر ولا أعوان، المشكور فضله بكل لسان، المنظور عدله بكل عيان، المألوف كرمه بكل أوان⁴، فبين (أعوان وأوان) جناس ناقص بزيادة حرف العين في وسط كلمة (أعوان).

✓ وثانيهما: " أن يختلفا بزيادة أكثر من حرف، وهذه الزيادة قد تكون في أول الكلمة أو في وسطها أو في آخرها⁵.

- فمن أمثلة الحروف التي تزداد في أول الكلمة حديث ابن الجوزي عن لطف الله تعالى ورحمته على عباده، يقول: " إن عالمهم أربحهم ووفى لهم، وإن وعدهم عطف عليهم ورقى لهم، إن قريبهم من بابه أعذب بمناجاته وصالهم⁶، فبين (لهم ووصالهم) جناس ناقص بزيادة ثلاثة حروف في بداية كلمة (وصالهم).

- ومن أمثلة الحروف التي تزداد في آخر الكلمة قول ابن الجوزي في اختتام إحدى الخطب: " ... صلى الله عليه وعلى آله وخليفته في صلاته⁷، فبين (صلى وصلاته) جناس ناقص بزيادة حرفين في آخر كلمة (صلاته).

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص101.

². المصدر نفسه والصفحة نفسها.

³. المصدر نفسه، ص102.

⁴. المصدر نفسه والصفحة نفسها.

⁵. ينظر: الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص207-208.

⁶. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص112.

⁷. المصدر نفسه، ص101.

• الاختلاف في هيئة الحروف:

" إذا اختلف اللفظان في هيئة الحروف كان الجنس على نوعين: محرّف ومصحّف
1:"

✓ فالمحرّف: " ما اختلف فيه اللفظان في الحركات والسكنات ويشمل الاختلاف أيضاً
تخفيف الحروف وتشديدها "2

- فمن أمثلة اختلاف اللفظين في الحركات والسكنات حديث ابن الجوزي عن فصل الشتاء وما يتبعه من فصول، يقول: "...وهطلت دموع السحاب بالانتحاب، فجرى بوابل الأمطار (...). فبرز من كمينه الربيع، فثار كطالب ثأر فثار عليه التقشيع فأخذ منه بثأر، بحيث انقطع ماء دمه المردار، وضحكت ثغور الأرض بَعْدَهُ لِبُعْدِهِ بالنوار³، وفيه يختلف لفظاً (بعده وبعده) في حركات حروفهما ما يؤدي إلى اختلاف معنييهما وعدم اتفاهما، وقد أتت حركات وسكنات اللفظتين على الشكل التالي: [//0/]، إلا أن الاختلاف يمس حركاتهما، فقد أتت باء الأولى مفتوحة بينما أتت باء الثانية مضمومة، أما بالنسبة لحرف الدال فقد أتت الدال الأولى مفتوحة بينما دال الثانية مكسورة، ولحركات الحروف دور في تحديد المعنى، إذ تعني: (بعده) الأولى المرحلة اللاحقة وهي عكس السابقة أو القبلية، في حين تعني (بعده) الثانية الابتعاد وهو عكس القرب.

- ومن أمثلة اختلاف اللفظين في تخفيف الحروف وتشديدها، قول ابن الجوزي في اختتام إحدى الخطب: "... صلى الله عليه وعلى آله وصاحبه أبي بكر الصديق أول من عزّزه ونصر، ومن خصّ بالتقديم والإمامة على كل من غاب وحضر، وعلى عمر بن الخطاب الذي شيّد قواعد الإسلام وعمر⁴، إذ يحضر الجنس المحرّف في

1. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص209.

2. ينظر: المرجع نفسه والصفحة نفسها.

3. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص120. 121.

4. المصدر نفسه، ص104.

لفظتي: (عمر وعمر)، إذ تأتي الميم في (عمر) الأولى مخففة، وهو يمثل اسم علم، بينما تأتي الميم في (عمر) الثانية مشددة وهو يمثل فعل مصدره التعمير والعمارة.

✓ والمصحّف: " ما اختلف فيه اللفظان في نقط الحروف، وبعضهم يسميه جناس الخط¹، ومن أمثله قول ابن الجوزي: "... ويظهر بالغسق بعد الشفق نورها"²، فجناس الخط بين (الغسق والشفق)، إذ يختلف فيه اللفظان في نقط الحروف من خلال حرف السين في الكلمة الأولى ومقابله حرف الشين في الكلمة الثانية.

ومن أمثله أيضاً قوله في إحدى الاختتمات: "... وعلى فاروق الإسلام، وحسام الانتقام، وسراج أهل الجنة الكرام، وكافل الأرامل والأيتام، من جمع بين الفضائل وجميل الطرائق، وعلى ذي النورين الشهيد ذي الرأي السديد والفعل الحميد"³، فجناس الخط بين (الشهيد والسديد)، إذ يختلف فيه اللفظان في نقط الحروف من خلال حرف الشين في الكلمة الأولى والذي يقابله حرف السين في الكلمة الثانية.

ومنه أيضاً قوله: "... الواكفة عند دعوته من أفاق الغيوم دموع الأمطار، والمنشودة دعوة أولاده في آفاق الأقطار والأمصار"⁴، وهو يظهر من خلال لفظتي (الأمطار والأقطار)، فالميم التي من دون نقاط تقابلها القاف بالنقطتين.

كما ويرد من أمثله قول ابن الجوزي: "... المؤلف عطاؤه ومن ذاق حلاوة جوده تدلل، المخوف عذابه ومن خشى أليم عقابه تدلل"⁵، فجناس الخط بين (تدلل وتدلل) والذي يحصل فيه الاختلاف من خلال حرف الدال في الكلمة الأولى والذال في الكلمة الثانية.

1. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص210.

2. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص116.

3. المصدر نفسه، ص117.

4. المصدر نفسه، ص102.

5. المصدر نفسه، ص111.

• الاختلاف في ترتيب الحروف:

" إذا اختلف اللفظان في ترتيب الحروف سمي: جناس القلب "1، وهو على نوعين:

✓ قلب الكل: " وهو ما اختلف فيه ترتيب كل الحروف "2، ومثاله في الخطب قول ابن الجوزي: " ... وسماك السماء ومسك ولا حامل ولا عماد "3، وقد حصل فيه اختلاف في ترتيب كل حروف لفظتي: (سك ومسك)، إذ قلبت حروف لفظة (سك) لتصبح (مسك).

كما إن من أمثله قول ابن الجوزي: " ... وأشهد أن محمداً رسوله إلى الأمة، أرسله نعمة ورأفة ورحمة، ورفع على الرسل شرفاً وعلماً ومنزلة وحرمة "4، وقد حصل القلب بين حروف لفظتي: (رحمة وحرمة).

✓ قلب بعض الحروف: " وهو ما اختلف فيه ترتيب بعض الحروف "5، ومثاله من الخطب قول ابن الجوزي في إحدى الاختتمات: " ... وعلى عمه وصنو أبيه الذي استسقى لهم ودعا لهم، صلاة يبلغ بها الحق آمالهم، ويزيد عندها بإقبالها عليهم إقبالهم "6، فقد حدث بين لفظتي (دعا وعندها) اختلاف في بعض حروفهما، فحصل قلب حروف لفظة (دعا) على الصورة التي وردت فيها في كلمة (عندها)، بحيث قد ورد ترتيب الحروف في الكلمة الأولى مخالفاً لترتيبها في الكلمة الثانية.

ومن أمثله أيضاً حديث ابن الجوزي عن النبي آدم عليه السلام في اعترافه بذنبه وطلب الغفران من الله تعالى، يقول: " ... ونصب سرير الندم ببادية العنا، وكتب في

1. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص211.

2. المرجع نفسه والصفحة نفسها.

3. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص133.

4. المصدر نفسه، ص101.

5. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص212.

6. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص112.

قصة الاستغفار: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا} ¹، ووقف على قدم الانكسار بباب الانتظار، فنظر مولاه ذله بين يديه، وصدق قصده وافتقار إليه ²، فالجناس بين لفظتي (صدق وقصده)، إذ قد حصل قلب لبعض حروفهما والتي تتمثل في حرف السين والبدال والقاف.

ومن أمثله أيضاً حديث ابن الجوزي عن وحدانية الله تعالى وقدمه وقوة سلطانه، يقول: " ... الواحد قبل توحيد الموحدين، الموصوف قبل وصف الواصفين، القديم في الأزل قبل كون التكوين، الباقي على الأبد قبل كل أوان وحين ³، فالجناس بين لفظتي (الباقي وقبل).

وورد فيه كذلك قول ابن الجوزي: " ... الموجود قبل كل موجود وجد وظهر ⁴، وقد ظهر فيه الجناس بين لفظتي (وجد وموجود).

❖ أنواع أخرى من الجناس:

وهناك أنواع أخرى من الجناس، أهمها:

1. 2. 4. 2. 3. جناس الاشتقاق:

وهو: " ما يجتمع فيه اللفظان في أصل الاشتقاق ⁵، وأمثله في الخطب كثيرة ومتعددة، وأكثر الخطب التي برز فيها جناس الاشتقاق هي الخطبة الرابعة عشر، فقد احتوت على عدد كبير من الجناسات التي تندرج تحت هذا النوع، يقول فيها ابن الجوزي في حديثه عن مظاهر الطبيعة: " ... حتى إذا بهرت العيون بضيائها الباهر، وخطرت في طلب حقائق كيائها الخواطر، وخفقت بسرعة سيرها خفوق النواظر، وأزهرت في مراكزها إزهار النبات الناضر، وانتظمت كواكب المجرة بينهما انتظام

¹. سورة الأعراف: الآية: 23.

². ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص106.

³. المصدر نفسه، ص113.

⁴. المصدر نفسه، ص103.

⁵. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص214.

المخائق، عطفت عليها غائرة عساكر النهار، وثار عليها الفجر طالباً للثأر (...).
وشرط القمر على الشرطين أن يظهر، وتبطن البطين بين الهقعة والهنعة وتستتر، وثار
الثريا مسرعاً في الرحيل وتعثر، ودبر الدبران وقد انقطعت منه العلائق، وتسحر نسيم
السحر أنفاس الجو وطاب ...¹ إلى نهاية القول.

إذ نلاحظ من خلال القول حضور عديد الاشتقاقات التي تتدرج تحت فن الجناس
منها: (بهرت، الباهر)، (خطرت، الخواطر)، (خفقت، خفوق)، (أزهرت، إزهار)،
(انتظمت، انتظام)، (ثار، الثأر)، (شرط، الشرطين)، (تبطن، البطين)، (ثار، الثريا)،
(دبر، الدبران)، (تسحر، السحر)،

كما قد ورد تحت جناس الاشتقاق أمثلة عديدة أخرى منفصلة نذكر منها قول ابن
الجوزي: "... الحي بحياة منزهة عن نقائص المحمول والحامل، القادر بقدره نافذة
بغير مانع ولا حائل، المرید بإرادة لا يخرج عنها هجر هاجر ولا وصل واصل، العليم
بخفي خطرات السرائر بلبال البلايل"²، فجناس الاشتقاق بين (الحي والحياة)،
(المحمول والحامل)، (القادر وقدرة)، (المرید وإرادة)، (هجر وهاجر)، (وصل وواصل)،
(لبلال ولبال).

كما إن من أمثلة جناس الاشتقاق قول ابن الجوزي: "... ولا جحود لمن شاهد
شاهد النقل بوروده"³، وقوله أيضاً: "أحمده حمد مجتهد في حفظ عهوده، وأشهد أن
لا إله إلا هو شهادة من جعل النجاة كنه مقصوده"⁴، وقوله أيضاً: "... وإن كاشفهم
فالتفتوا مرر عليهم بالالتفات ما حلا لهم"⁵، ومن أمثله على السريع: " جمع جمع

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص116.

². المصدر نفسه، ص127.

³. المصدر نفسه، ص107.

⁴. المصدر نفسه، ص108.

⁵. المصدر نفسه، ص112.

منى¹، " ... أمل وآمل وقصد قاصد²، " ... مطعم الطعام³، " خلق الخلائق⁴، " ... وسمهم بوسم معرفته⁵، إلى غيرها من الأمثلة.

1. 2. 4. 2. 4. جناس المشابهة:

ويسمى: " جناس الإطلاق، وإيهام الاشتقاق، وهو ما يجتمع فيه اللفظان في المشابهة فقط دون الاشتقاق"⁶، ومثاله من الخطب قول ابن الجوزي في حديثه عن زلة نبي الله آدم عليه السلام: " ... ووقف على قدم الانكسار بباب الانتظار، فنظر مولاه ذله بين يديه"⁷، فبين لفظتي (الانتظار ونظر) مشابهة دون الاشتقاق، وأن لكل منهما معنى خاص، فمعنى لفظة الانتظار في القول هو المكوث والتوقف لترقب الغفران من الله تعالى، في حين أن الله تعالى بصير به، فهو تعالى ينظر إليه ويشاهده وهو يستغفره ويطلب التوبة منه، ففي الفعلين مشابهة دون الاشتقاق.

ومن أمثله أيضاً حديث ابن الجوزي عن السحب والأمطار، يقول: " ... وهطلت دموع السحاب بالانتحاب فجرى بوابل الأمطار، ولعبت به الرياح فانبسط وساح في فساح القفار"⁸، فبين لفظتي (ساح وفساح) جناس مشابهة دون الاشتقاق، إذ تعني لفظة ساح الانتقال والتحول والجريان، وفيها يصور ابن الجوزي صورة المطر حين تأثرها بالرياح، فهي تتحول وتنتقل من مكان إلى آخر في فسحة الأرض، بينما تعني لفظة فساح الاتساع وهي من الفسحة التي تمثل الأرض الرحبة التي سقطت فيها تلك الأمطار، وبالتالي فإن بين اللفظتين المذكورتين مشابهة لا تتعدى مستوى الحروف.

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص124.

². المصدر نفسه، ص101.

³. المصدر نفسه، ص111.

⁴. المصدر نفسه والصفحة نفسها.

⁵. المصدر نفسه، ص112.

⁶. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص215.

⁷. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص106.

⁸. المصدر نفسه، ص120.

وورد أيضاً من أمثله قول ابن الجوزي: " ... رب قدير قَدَّر فقدر وأحسن في قدرته وتقديره"¹، وفيه يحضر جناس المشابهة من خلال لفظتي (قَدَّر وقَدَّر)، إذ اشتقت اللفظة الأولى من القدر وهو قضاء الله على العباد، أما اللفظة الثانية فقد اشتقت من القدرة وهي الاستطاعة.

ويقول في شأن الربيع: " فثار كطالب ثار"²، فبين ثار الأولى والثانية مشابهة، إذ اشتقت الأولى من الثورة والنهضة، أي انتهض الربيع وثار، بينما تمثل الثانية الانتقام ورد الفعل بمثله.

ومنه أيضاً قوله: " ... ومن وصفه بما أخبره أتانا بإيمان صائب، أحمدته على ما منح من الصبر على المصائب، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المخصوص بأرفع المنازل وأشرف المناصب"³، فبين لفظتي (صائب والمصائب) جناس مشابهة من حيث بناء اللفظتين، إذ تقوم الأولى على معاني الصواب والحق والصحيح من الأمور، بينما تعني الثانية الشدائد والأزمات التي يمر بها العبد في حياته.

ومن أمثله على السريع: " ... وحكم وأحكم ما أوجده بحكمته وتدبيره"⁴، فحكم بمعنى أتقن وأحكم بمعنى أشرك، وبينهما مشابهة.

ومنه أيضاً: " ... هيِّم هم طائعيه بسطوة تحذيره"⁵، فهيم من الهيام وشدة الحب لله تعالى، والهمم جمع همة وهي العزيمة والقيام بالفعل، وبينهما مشابهة من حيث بناء حروفهما.

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص128.

². المصدر نفسه، ص120.

³. المصدر نفسه، ص126.

⁴. المصدر نفسه، ص128.

⁵. المصدر نفسه والصفحة نفسها.

ومنه أيضاً: " ... من عدل فما أعدل " ¹ أي من اتبع الله وعدل في أحكامه وبنائها على العدل وابتعد عن الجور لم يشرك بالله تعالى، فقد جاء الفعل أعدل في خطب ابن الجوزي بمعنى الشرك بالله.

ومنه أيضاً: " الحمد لله الذي من آمن به أمن " ²، ف: (آمن) من الإيمان بالله تعالى، بينما (أمن) من الأمان وعدم الخوف من عذاب الله ومن أفعال أصحاب السوء.

ومنه أيضاً: " الشكر لله الذي جاد بفضله على واجديه " ³، ف: (جاد) من الجود والكرم، بينما تمثل لفظة (واجديه) جمع للفظه (واجد) وهو: " العبد الغني الذي لا يفتقر، وقد وجد يجد جدة: أي استغنى غنى لا فقر بعده، وقال: الحمد لله الذي أوجدني بعد فقر، أي أغناني " ⁴

1. 2. 4. 2. 5. الجنس المزدوج:

وهو: " ما توالى فيه المتجانسان، ويسمى المكرر والمردد " ⁵، ومن أمثله في الخطب قول ابن الجوزي: " ... وهربت من سلطان الشمس فرار الأبق السارق... وتبطن البطين ⁶ بين الهقعة والهنعة وتستر " ⁷، وفيه يتوالى (الأبق والسارق)، و(الهنعة والهنعة).

ومنه أيضاً قوله: " ... المنزه عن الأشكال والأمثال، المتعالي عن النظر والمشارك والمشايق " ⁸، وفيه يتوالى المتجانسان المتمثلان في (الأشكال والأمثال).

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص111.

². المصدر نفسه، ص132.

³. المصدر نفسه، ص128.

⁴. ابن منظور: لسان العرب، ص4770.

⁵. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص213.

⁶. ورد في كتاب ابن الجوزي "عجيب الخطب" أن ألفاظ (البطين) و(الهنعة) و(الهنعة) تمثل مجموعة أسماء لنجوم سماوية.

⁷. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص116.

⁸. المصدر نفسه، ص117.

ومنه أيضاً قوله: "أحمدته على عطفه ولطفه"¹، ف: (عطفه ولطفه) متجانسان، وقد تواليا في القول.

ومنه أيضاً قوله: "... غافر الجرائم والأوزار، وقاسم الأخلاق والأرزاق والأعمار، وموجد الأكوان والألوان والأرزاق والأعيان والآثار"²، وهو يظهر من خلال لفظتي: (الأخلاق والأرزاق) وكذا لفظتي: (الأكوان والألوان).

ومنه أيضاً قوله: "... وحرّكت متون الغصون بالثمار فغادرتها بعد الذبول خضرة نضرة"³، إذ تمثل لفظتي (خضرة ونضرة) جناساً مزدوجاً لتواليهما في القول.

❖ بلاغة الجناس:

يعتمد الجناس في القول على مجموعة معايير تضمن له القبول عند البلاغيين، منها أن يكون: "مطبوعاً غير متكلف ولا مصنوع، وكأن المعنى يقتضيه والمقام يستدعيه، وله أثر جليل في الأسلوب لا يتحقق بدونه"⁴، وذلك: "أنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعاً حميداً، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً"⁵

وتتمثل فائدة الجناس في: "حسن الإفادة مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة، فهو فن خادع موهم تشعر من خلاله أن المتكلم قد أعاد عليك القضية ويوهمك كأنه لم يزدك شيئاً وقد أحسن الزيادة ووقّأها"⁶

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص118.

². المصدر نفسه، ص120.

³. المصدر نفسه، ص105.

⁴. ينظر: الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص216.

⁵. عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت لبنان، 1988،

ص4.

⁶. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص219.

كما إن: " للجناس أثر جلي في تشويق النفس وتنشيط الفكر للوقوف على المراد من اللفظين المتشابهين، وهذا أدعى إلى تثبيته وتأكيدده في الذهن بعد معرفته، فإن النفس تتشوق إلى سماع اللفظة الواحدة إذا كانت بمعنيين، وتتوق إلى استخراج المعنيين المشتمل عليهما ذاك اللفظ، فصار التجنيس وقع في النفوس وفائدة، والجناس من أسباب تلاحم الأسلوب وترابطه، لما بين طرفيه من المماثلة الشكلية، وله وقع موسيقي ملحوظ يجعل الأسلوب مميزاً وذا أثر قوي في النفس"¹

خاتمة المحسنات البديعية:

انبنت معظم المحسنات البديعية من طباق وسجع وجناس على أساس وحيد وهو اللفظ، يقول الشيخ محمد الغزالي: " والمعنى الرائع لا يكفي فلا بد من كساء حسن له، والقرآن معجزة أدبية أخرست المتحدين على مر العصور"²، وذلك بألفاظها وموسيقاها.

وقد تميز كل لون بديعي في الخطب بميزات موسيقية خاصة، كما وحقت هذه الموسيقى اللفظية جمالية ومنتعة فأضفت جمالاً شعرياً للخطبة وحقت في الوقت نفسه عنصر التأثير في المتلقي، من خلال إفهامه لمجموعة الصور والمواقف التي تضمنتها الخطبة، فاللفظ الفصيح هو الذي يتوفر على قدر من الجمال الصوتي، ويتحدد في تناغم أصوات اللفظ المفرد وانسجامها واعتدالها بالشكل الذي يؤثر في السامع ف: " الأمر يقتضي استثمار الإمكانات الشعرية والجمالية للألفاظ من دون التضحية بوظائفها التداولية"³

وقد وجب في كل عملية كتابة توفر مجموعة أمور من تنميق وإصلاح وانتقاء ومراجعة، كلها عناصر تملئها عملية الكتابة ليستقيم الخطاب ويتم بلوغ القصد، وهي تمتد لتمس الألفاظ وتألّفها والتعليق عليها بواسطة الشرح والتوضيح"⁴، ذلك أن الألفاظ

¹. ينظر: الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص 220.

². محمود عمارة: الخطابة، ص 239.

³. حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، ص 157.

⁴. سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتجليات، ص 188.

هي سر التأثير: " فمن أسرار التأثير العميق هو اللفظ المختار وفق طبيعة الإنسان الذي تصبح الألفاظ في سمعه كائنات حية تثير في كيانه مختلف الرؤى والصور"¹

كما يقول ابن الأثير: " اعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر، والألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين وأخلاق ولطافة مزاج"²، وهو ما يظهر الأهمية والدور الذي يلعبه اللفظ في الكلام، إذ من خلال اللفظ الجزل تتولد الجمل القوية، ومن خلال اللفظ الرقيق تتولد الجمل اللطيفة.

¹. ينظر: محمود عمارة، الخطابة، ص 239. 240.

². ينظر: المرجع نفسه، ص 240.

قمنا في هذا الفصل بالبحث في مجموع الخطب الثلاثين التي أودعها ابن الجوزي كتابه " عجيب الخطب "، وذلك بالنظر إلى المكونات التي حوتها تلك الخطب من لفظ ومعنى وتركيب وأسلوب ودلالة، وقد أفادنا هذا الفصل في التعرف على مجموعة لا بأس بها من الفنون البلاغية التي بنت لعنصر الجمالية على مستوى الخطب، والتي تفرعت إلى صور بيانية ومحسنات بديعية، إذ لا يغيب عنا ما أحدثته هذه الأخيرة بعناصرها . من طباق ومقابلة وسجع وجناس . من نغم موسيقي أخذ ظهر على مستوى ألفاظ وتراكيب الخطب، ما أكسب الخطبة ميزة شعرية جميلة تساعد في التأثير في المتلقي بجذبه للخطبة والتطلع للمزيد فيها، بحيث تعتبر المحسنات البديعية من الأدوات التي استعان بها الخطيب ابن الجوزي لإظهار أفكاره والتأثير في متلقيه، فهي من الزينة اللفظية التي تلبس الخطبة ثوباً جذاباً يتأثر به المتلقي بنفس درجة تأثير المعاني.

كما لا يخفى علينا ما أحدثته الصور البيانية بمكوناتها، من تنوع للصور وعرض جديد للمعاني وربط للأشياء في صور مختلفة وجميلة، كما لا ننسى جمالها وتميزها في نقل المعاني المعنوية إلى الواقع الحسي في أقرب صورة وأحسن مأخذ، فهي تقوم بتجسيد المعاني وتشخيصها في صورة محسوسة ما تزيدها وضوحاً وتقريباً من الذهن، وذلك أن المتلقي يتأثر بالماديات أكثر وأسرع من تأثره بالأمر المعنوية، إضافة إلى إسهامها في تحديد معاني الخطب وتوضيحها والكشف الجميل عن أفكار ابن الجوزي.

كما واهتم الفصل بالكشف عن عديد الموضوعات الوجدانية والإيمانية التي ظهرت على مستوى معاني الخطب، وأهم هذه الموضوعات: ذكر صفات الله تعالى، خلق الكون وتسيير الظواهر الطبيعية، خلق الله تعالى للبشر، وجود الله تعالى وقدمه ووجدانيته وأبديته، وقد قام ابن الجوزي بعرضها للمتلقي في أبهى حلة من خلال تزيينها بشتى أنواع الزخرف اللفظي.

الفصل الثالث: استراتيجيات الخطاب الإقناعي في

كتاب " عجب الخطاب " لابن الجوزي.

- 1- استراتيجيات الإقناع في الخطاب.
- 2- العلاقات الحجاجية في الخطاب.
- 3- السلاسل الحجاجية في الخطاب.
- 4- تأثير عناصر السياق في استراتيجيات الخطاب الإقناعي.

يعنى هذا الفصل من البحث بالاستراتيجيات الإقناعية التي وظفها ابن الجوزي في مجموع الخطب الثلاثين، والتي سعى من خلالها إلى إقناع المتلقين بصدق القضايا المعروضة وإثباتها وإبعاد الشك عنها، وقد احتوي هذا الفصل على أربعة عناصر رئيسية خصصنا لها عناوين بالبند العريض، وهي تضم بداخلها عناصر جزئية بنت لها وأسست دعامتها.

وأولى العناصر التي سنبتدأ بها هي استراتيجيات الإقناع في الخطب، إذ سنفصل في هذا الجزء في مجموع الاستراتيجيات التي وظفها ابن الجوزي في الخطب بغرض إقناع المتلقي والتأثير في أفكاره ومعتقداته وسلوكه، وهي تنقسم إلى استراتيجيتين اثنتين بارزتين، هما استراتيجية تغييب الحروف والتي ظهرت على مستوى ألفاظ الخطب كونها تحوي الحروف وتتكون منها.

أما الاستراتيجية الثانية فهي استراتيجية الحجاج، وتندرج تحتها عديد الاستراتيجيات الثانوية التي سنفصل فيها منها: تلك التي تظهر على مستوى موضوعات الخطب، كما تتوفر من الاستراتيجيات تلك التي تظهر على شكل استعارات بلاغية وكذا آيات قرآنية، كما تتوفر تلك التي تظهر على شكل تقنيات كالتصوير والتمثيل والتكرير، كما تتوفر من تظهر على شكل عبارات مخصوصة ظهرت في أجزاء معينة من الخطب يعيد ناظم الخطب ذكرها في كل حين.

وثاني العناصر الرئيسية التي سنقوم بالتطرق إليها والتفصيل فيها، هي العلاقات الحجاجية، وهي تمثل شكلاً من العلاقة التي تظهر بين السبب أو الحجة وبين النتيجة أو المآل، وتنقسم إلى نوعين، تمثل النوع الأول في العلاقة السببية، وهي تقوم على جعل موقف معين سبباً لموقف آخر، بينما تمثل النوع الثاني في علاقة الاقتضاء، والتي تقوم بدورها على جعل الحجة تقتضي النتيجة اقتضاءً، وفي العلاقتين حضور كبير لملاحح الحجاج والإقناع، والتي سنقوم باكتشافها والخوض فيها.

وثالث العناصر الرئيسية التي سنقوم بالتطرق إليها والتفصيل فيها، هي السلام الحجاجية، والتي لاحظنا حضور مادتها في الخطب، وهي تشبه في مضمونها العنصر السابق والمتمثل في العلاقات الحجاجية في كونها تقوم على عنصرين أساسيين في الكلام هما عنصر السبب والنتيجة، فقط يكمن الاختلاف بينهما في كون الحجة في السلام الحجاجية تتعدد بينما تحتفظ النتيجة بثباتها، وقد لاحظنا عدداً وثيراً من نماذج هذه السلام في الخطب، ما يثبت حجاجية الخطب وتوفرها على قدر لأبأس به من أسباب الإقناع لدى المتلقي بصدق القضايا المطروحة، ويزيد درجة الإذعان لديه، هذا ما سنكتشفه ونفصل فيه في الجزء المخصص له من البحث.

وآخر العناصر التي سنقوم بالتطرق إليها في هذا الفصل هي كيفية تأثير عناصر السياق في توجيه استراتيجيات الخطاب الإقناعي، بحيث أثر المتلقي بطريقة ما في تكوين الخطب عند ابن الجوزي وفي توجيه استراتيجياته، كما ساهمت بعض العناصر المشتركة بين ابن الجوزي ومتلقي الخطاب كالمعرفة المشتركة والعلاقة التي تربطهما، في بناء الخطب الثلاثين، هذا ما سنخوض فيه في موقعه الخاص، وسنسعى في الأخير إلى إظهار الغاية من وراء توظيف الاستراتيجيتين المذكورتين سلفاً.

1- استراتيجيات الإقناع في الخطب:

وظف ابن الجوزي في خطبه استراتيجيتين مهمتين، وقد سعى من خلالهما إلى تحقيق غايتين بارزتين، تمثلت الاستراتيجية الأولى في استراتيجية تغييب الحروف وقد تحققت في شكل الخطبة ولغتها وألفاظها، وقد سعى من خلالها إلى تحقيق غاية إقناع متلقيه الخاص بقدرة اللغة على تحقيق ذاتها دون توظيف مجمل حروفها، بينما تمثلت الاستراتيجية الثانية في الحجاج إذ تعتبر أهم استراتيجيات الإقناع التي وظفها في ثنايا الكتاب، وقد سعى من خلالها إلى إقناع المتلقي بضرورة التوجه إلى الله تعالى عن طريق التعرف عليه من خلال إيراد صفاته وشرح أسمائه الحسنى، كما دعا إلى وجوب معرفة الله تعالى عن طريق عرض قدرته الربانية وإظهار ملكوته في الأرض والسماء وفي كل مخلوقاته، وهو يدعو من خلال كل هذا إلى عبادة الله تعالى والتقرب إليه بالطاعة وتجنب المعصية وتزويد الطاعة كلما تعرف العبد على الله أكثر.

نتبين من خلال هذا الكلام أن الحجاج عند ابن الجوزي حجاجين، حجاج في الشكل تجسد عن طريق توظيف ابن الجوزي لإحدى الاستراتيجيات اللغوية وهي استراتيجية تغييب الحروف، وحجاج في المضمون، ويندرج تحته أنواع عديدة للحجاج أولها الحجاج بواسطة الموضوعات، وقد تجسّد عن طريق طرح ابن الجوزي لمجموعة معاني إيمانية سعى من خلالها لإثبات قضايا دينية سامية.

كما حصل أن برز على مستوى بعض العبارات في الخطب ومعظمها تركزت في نهاية ثاني جزء من الخطبة وهو العرض، ومنها ما برز على شكل استعارات وكنائيات تحمل معاني حجاجية، ونجدها دائما على مستوى العرض كذلك، كما نجد من أشكال بروز المادة الحجاجية في الخطب التصوير، وهي ظاهرة لغوية تخص الأسلوب، كما ظهر الحجاج من خلال توظيف آيات قرآنية تحمل دلائل وإثباتات على أمور ذكرت في ثنايا الخطبة، كما أن هناك بعض الخطب التي اعتبرت كلها حجة تثبت أشياء ربانية.

1.1. استراتيجية تغييب الحروف:

تعتبر طريقة تغييب الحروف من الاستراتيجيات الحجاجية الذاتية، والتي تتدخل فيها الذات في العمليات الحجاجية، ليست فقط كونها طرفاً من أطراف الحجاج، ولكن كذات أسلوبية تمتلك أسلوباً قولياً معيناً، تتميز به عن غيرها من الذوات الأسلوبية الأخرى، إذ لم يسبق واعظ. حسب سياق الخطب. أن نظم خطاباً على منوال الأسلوب الذي اختاره ابن الجوزي في تغييب الحروف وبالعدد الذي قام به نفسه، فهي بادرة أدبية ودينية وحجاجية سبق لها ابن الجوزي، مستعيناً في ذلك بمقدرته العلمية والأدبية، ورصيده اللغوي والثقافي، وزخم ألفاظه وفصاحتها، ف: "فعالية وجدية خطاب المتكلم تقتضي تقديم أو إظهار بعض القدرات المعرفية، وبعض المصادر السياقية التي تنعكس بالضرورة في الطريقة أو البناء الأسلوبي الذي يصوغ به قوله الحجاجي"¹

فالصراع. إن صح التعبير. القائم بين ابن الجوزي وخصمه، هو صراع لغوي بالدرجة الأولى، ذلك أن المدّعي ابن الجوزي قد وظّف آليات لغوية اقتضاها السياق، والتي تمثلت في تغييب الحروف، حيث إن كفاءته اللغوية وطبيعة الغرض الذي لأجله دخل في المناظرة، رجّحت توظيف بعض الأدوات اللغوية عن غيرها من الأدوات الأخرى.

إلا أن الاستراتيجية الحجاجية المتمثلة في تغييب ابن الجوزي من كل خطبة حرفاً من حروف الهجاء، قد أتت على رأس قائمة كل الأدوات اللغوية الأخرى، فقد اعتبرت أساس المفاوضات التي أجراها ابن الجوزي رفقة زميله الذي يظهر من خلال الحديث أنه بليغ وخطيب من خطباء ذلك العصر، وله نفس المرتبة العلمية التي لابن الجوزي، والتي جرى موضوعها حول التفاوض على حروف العربية الثمانية والعشرين، فقد ادّعى رفيق ابن الجوزي أن الكلام لا يصح إلا باجتماع كل حروف العربية، ولا يستطيع أي متكلم أن يغيب حرفاً من الحروف أو بعضاً منها في كلامه، وإن حاول

¹. مكلي شامة: الآليات الحجاجية في نقائص جرير والفرزدق من خلال نقيضتيهما "سم نافع" و "إن الذي

سمك السماء"، ص411.

ذلك اختل الكلام وأصابته العلة، في حين أن ابن الجوزي قال غير ذلك، ومن الظاهر أن هذا الأخير (أي ابن الجوزي) قد تمسك بموقفه وأقنع رفيقه بصحة ما جاء به، إلى أن دفع بهذا الأخير (أي زميل ابن الجوزي) لإنشاء خطبة محذوف منها حرف الألف، من هنا انتهضت الرغبة للغلبة والانتصار عند ابن الجوزي وأنشأ ثلاثين خطبة محذوف من كل خطبة حرف من حروف الهجاء، وختمهم بخطبة ليس فيها نقط أي لا تحوي أي حرف من حروف العربية التي تكتب بالنقاط مثل: (ب، ت، ث، ج، خ، ذ، ز، ش، ظ، ض، غ، ف، ق، ن، ي).

مع العلم أن ابن الجوزي قد أضاف لحروف الهجاء حرف " لا " فصارت تسعة وعشرين حرفاً، وبإضافة النقطة تصبح ثلاثين، وقد أضاف في نظري ال " لا " لما لها من شأن ومكانة كبيرة في الكلام خاصة الديني منه)، يقول في شأن التفاوض: " فإني تفاوضت أنا وبعض الأصدقاء في حروف الهجاء، فادعى أنه لا يصح كلام إلا بمجموعها، ولا يستقيم لفظ تام إلا بوجود جملتها، وحدثني بخطبة معه منظومة محذوف منها حرف الألف، فانتفضت القوة إلى الانتصار بإنشاء خطب حذفت من كل خطبة منها حرفاً من حروف الهجاء، وختمتها بخطبة ليس فيها نقطة، فصارت ثلاثين خطبة، وقد سميتها بكتاب < عجيب الخطب > ¹

يظهر من خلال هذا الكلام أن ابن الجوزي قد اعتمد على استراتيجية تغييب الحروف كوسيلة حجاجية احتلت المكانة الأولى من حيث الأهمية في الكتاب، بحيث أنشأ ابن الجوزي . كنتيجة للتفاوض . ثلاثين خطبة مثلت كل الكتاب، وقد حذف من كل خطبة حرفاً من حروف الهجاء .

تمثل ألفاظ الخطب الثلاثين التي أوردها ابن الجوزي كتابه أحسن تمثيل للاستراتيجية التي اختارها، والتي تمثل وسيلة حجاجية اختارها ابن الجوزي واتفق عليها رفقة زميله، وقد اعتبرت بمثابة التحدي الذي يسعى صاحبه ليبرهن للطرف الآخر

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص99.

صحة ما جاء به، وليثبت صدق القضية التي تبناها، بحيث قام ابن الجوزي في خطبه بالتعبير عن المعاني الدينية المختارة والتي بنى بها خطبه بدوال ذات ميزة خاصة، إذ تتحد ألفاظ الخطبة الواحدة منذ افتتاحها إلى غاية اختتامها في عدم احتوائها على إحدى حروف العربية، والذي يختاره مؤلف الخطبة ويبينه من خلال عنوانها، كما يكون قد أدرج في العنوان نفسه رقم الخطبة بالتسلسل، وقد أورد ابن الجوزي في الكتاب الحروف المغيبة مرتبةً ترتيباً ألفبائياً من الألف إلى غاية الياء، وأضاف ال: لا، والنقطة، وقد وردت إحدى عناوين خطبه على الصيغ التالية: [الخطبة الأولى بغير ألف، الخطبة الثانية بغير باء، الخطبة الثالثة بغير تاء،. الخطبة الثلاثون بغير نقط].

سعى ابن الجوزي من خلال الاستراتيجية التي انتهجها على مستوى الخطب، إلى إثبات فكرة أن العربية قادرة على إيصال معانيها رغم عدم توظيف كل حروفها في الكلام، وهو يثبت في الآن نفسه غنى هذه اللغة بالألفاظ وتنوع دوالها وزخمها اللغوي الكبير الذي يختار المتكلم منه ما راق وما لذ له وطاب من الكلمات التي تناسب معانيه، وتعبّر له عن الأفكار التي تختلج نفسه، ولا يتوفر هذا الأمر عند كل المتكلمين بل عند خاصتهم، ذلك أنهم يملكون القدرة الكافية على التصرف باللغة، كما لهم الرصيد اللغوي والمعرفي الذي يؤهلهم لخوض مثل هذا التحدي، فاختيار ألفاظ ذات ميزات خاصة ومشاركة من أجل بناء خطبة بأكملها ليس بالأمر الهين، بل يلزمها ثقافة ودربة وخبرة في المجال، كما يلزمها صبر وتأنٍ ومثابرة، كلها عناصر وجب توفرها في مؤلف الكلام، كما تظهر على النص في المرحلة التي تسبق مرحلة عرضها في الكتاب في نسخته النهائية المكتملة، أي في مسودة الكتاب.

إذن غاية ابن الجوزي من تأليف كتابه "عجيب الخطب" غاية ذات طبيعة حاججية، بحيث سعى في كل ركن من الكتاب ومن الخطب لإثبات قضية لغوية رأى في نظره أنها هي الأصح، وقد وجه رسالته اللغوية والمتمثلة في مجموع الخطب لمرسل إليه محدد، كان في سياق عمليتهم التحوارية بمثابة المتحدي والمنافس أيهم له القدرة على إقناع الآخر، ولقد اعتمدت العملية الحاججية عند ابن الجوزي على تغييب

أصغر وحدة لغوية وهي الفونيم أو الحرف، وهو يمثل جانب من الجوانب الشكلية للغة، والتي يعبر بها المتكلم . مع اتحادها بالجوانب الشكلية الأخرى من ألفاظ وتراكيب . على المعاني والمضامين والأفكار التي تدور في ذهنه والتي يحاول إيصالها للمتلقي مقنعاً إياه بأمور معينة. ولا يعني هذا أن ابن الجوزي قد أهمل المعاني في الخطبة بل منحها الاهتمام الذي يليق بالمضامين الدينية التي أودعها إياها.

يقوم ابن الجوزي في سياق عرض استراتيجيته الحجاجية اللغوية المتمثلة في تغييب حروف وحضور أخرى، بعملية حجاجية أخرى تخص معاني ومضامين الخطب، فقد سعى من وراء عرض أفكاره إلى إثبات أمور ونفي أمور أخرى، وكلها تخص المجال الديني وتندرج في الإطار التعبدي، منها الأوامر والنواهي والعبادات والطاعات وحدود الله والتمتع في مخلوقات الله وفي ملكوته الواسع، وهذا موضح كالتالي:

1. 2. استراتيجية الحجاج:

من أبرز الاستراتيجيات التي لمحناها على مستوى الخطب، استراتيجية الحجاج، وهي استراتيجية مهمة تعني بإقناع الخصم بقضايا معينة وتؤثر فيه وفي معتقداته وسلوكه، وهي استراتيجية ذات مجال واسع، إذ يندرج تحتها عديد الخطط أو الاستراتيجيات الثانوية نذكر منها تلك التي توفرت موادها في كتاب "عجيب الخطب"، وهي كالتالي: الحجاج بواسطة الموضوعات، الحجاج بواسطة عبارات مخصوصة، الحجاج بواسطة الاستعارة، الحجاج بواسطة تقنية التصوير، الحجاج بواسطة الآيات القرآنية، الحجاج بواسطة الأمثلة، الحجاج بواسطة التكرير، وهي مفصلة فيما يلي:

1. 2. 1. الحجاج بواسطة الموضوعات:

جاء في ترجمة ابن الجوزي أنه كان: "خطيباً مجيداً لفنون الكلام حتى لقب بعالم العراق وواعظ الآفاق، وقد تفرد بفن الوعظ الذي لم يسبق إليه ولا يلحقه فيه أحد، وفي طريقته وشكله وفي فصاحته ونفوذ وعظه، وتقريبه الأشياء الغريبة بما يشاهد من الأمور الحية، وقد أحب الوعظ ولهج به وهو مراهق، فقد كان يقول عن نفسه: (ولقد

أقدرُ على أن أترجل المجلس كله من غير ذكر محفوظ، ولربما قرأتُ عندي في المجلس خمس عشرة آية، فأتي على كل آية بخطبة تناسبها في الحال، إضافة إلى تعدد تصانيفه في مختلف مجالات المعرفة¹

إلا إن ما عرف عنه غالباً هو الوعظ الديني، وقد استغل لتبليغه أجناس عديدة للقول أشهرها الخطبة الدينية، فقد سلك في هذا نهج الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد جاء في أساليب وعظه صلى الله عليه وسلم أنه كان: " يعظ أصحابه بالخطبة، وقد يعظهم بما يناسب الحال، ويذكرهم برحمة الله حين امرأة تبحث عن صبيها في السبي، ثم تضمه وترضعه، وهكذا فقد تكون الموعظة قصة تسرد، أو مثلاً يضرب، أو جملة تقال، أو فعلاً يحتذى به"²

ومن أهم الأمور التي تبني لهذا الوعظ الديني وتؤسسه هي المعاني، أو الموضوعات، إذ تعتبر المسؤولة عن إيصال الأفكار والرسائل الخطابية التي يبعث بها ناظم الخطبة للمتلقي، وقد تعددت موضوعات الخطب وتفرعت إلى فروع عدة تصب جميعها في الهدف الأسمى للعبد في محياه وهو معرفة الله تعالى من أجل أداء حقه في خشيته وعبادته والفوز بمرضاته وجناته.

يعتبر الموضوع من خلال هذا المنظور وسيلة من وسائل الحجاج، ذلك أن ابن الجوزي قد اعتمد عليه، إذ أودع فيه عديد المعاني الإيمانية التي تثبت استحقاق الله تعالى للألوهية والعبودية كما تثبت قدرته التي لا تضاهيها قدرة من خلال خلقه لكل هذا الكون وتسييره له في نظام تام، هذا ما نحاول تقصيه في هذا العنصر من البحث، بالبحث والإحاطة بالمادة الحجاجية التي تتعلق بالمعاني، أي بالاستراتيجيات التي تضمّن كل موضوع من الموضوعات التي حوتها الخطب، بحيث تتحدد قيمة هذه

¹. ينظر: ابن الجوزي: فنون الأفتان في عجائب علوم القرآن، تح: صلاح بن فتحي هلال، مؤسسة الكتب الثقافية،

ط1، بيروت لبنان، 2001، ص15. 16. 17.

². ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص11.

الأخيرة بما تتصوي عليه من رسالة تواصلية تحمل مقاصد وغايات سعى لإحيائها ابن الجوزي.

فالكلام أي كلام: " يتضمن جزأين، إذ لا بد من ذكر الموضوع الذي نبحث فيه، ثم بعد ذلك نقوم بالبرهنة، ولهذا فمن المستحيل بعد ذكر الموضوع أن نتجنب البرهنة، أو أن نقوم بالبرهنة قبل ذكر الموضوع أولاً، ذلك أنه حين نبرهن إنما نبرهن على شيء، ولا نذكر الشيء إلا من أجل البرهنة عليه، وأولى هذه العمليات هي العرض، الثانية الدليل، وهذا يفضي إلى وضع تفرقة بين المسألة وبين البرهان¹، وفيما يلي بحث في أوجه الحجاج في الموضوعات التالية:

1. 2. 1. الحجاج من خلال موضوع ذكر أسماء الله الحسنى وصفاته:

سعى ابن الجوزي من خلال هذا الموضوع إلى تعريف المتلقي بصفات الله تعالى وأسمائه الحسنى، والتفصيل فيها وفي معانيها، كي يتسنى للمتلقي فهمها وإدراك عظمتها وكمالها الذي يختص بالله تعالى دون غيره من البشر، فصفات الله تعالى لا علة فيها ولا نقص، وهو ما حاول إثباته ابن الجوزي في ثنايا الخطب، فحين يتذكر القارئ صفات الله تعالى حين عرض ابن الجوزي لها في ثنايا الخطب يستشعر من خلالها عظمة الله تعالى وفي المقابل يستصغر نفسه والعباد فيدرك ضعفه ونقصه، فصفات الكمال التي يتصف بها الله تعالى تقابلها صفات النقص التي يتصف بها البشر، والصفات المذكورة في الخطب هي ذات الأهمية الكبيرة والمقام الجليل مقابل الصفات غير المذكورة والتي يحيل لها القول.

إذن فاستشعار المتلقي لعظمة الله تعالى من خلال التمعن في صفاته، هي الغاية الأولى التي سعى ابن الجوزي للوصول إليها من خلال عرضه لصفات الله تعالى، وإثبات ألوهية الله تعالى ووحدانيته وعزه وجلاله، فصفاته تختص به وحده دون سواه ولا يشاركه فيها أحد، وفي المقابل يتذكر صفات النقص التي يتصف بها البشر وما

¹. أرسطوطاليس: الخطابة، ص228. 229.

يعتريها من علة وحرمان، إذ رغم كل النعم التي أنعمها الله تعالى على البشر فإن النقص من أبرز صفاتهم، ذلك أنهم بشر، وطبيعتهم غير مستقرة وأحوالهم تتغير وتقلب بين الفينة والأخرى، فهم يتعرضون للجوع والعطش، ويشعرون بالبرد والحر ويمرضون جراء ذلك، كما إن النعاس ينال منهم فينامون ويغيبون عن الوعي، ويشعرون بالتعب والإرهاق وبالقلق والتوتر وعديد المشاعر التي يتعرض لها المرء بما تمليه عليه طبيعته الإنسانية.

إذن يتجلى وجه الحجاج في موضوع ذكر صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى من خلال دعوة ابن الجوزي الضمنية . والتي تضمنتها لغة الخطبة بما تحويه من ذكر لأسماء الله الحسنى وخاصة التفصيل فيها . إلى استشعار عظمة الله تعالى التي تتجلى في كل اسم من أسمائه وفي كل صفة من صفاته عز وجل، إذ نجد في عديد الأحيان أن ابن الجوزي يقوم بذكر إحدى صفات الله تعالى ويتبعها بتفصيل أو توضيح أو تفسير لهذه الصفة.

وهنا تكمن المفارقة التي أراد إظهارها للمتلقي، والتي تكمن في الفرق بين صفات الله تعالى الجليلة وبين صفات البشر، وقد جسدت هذه المفارقة استراتيجية حجاجية تضمنتها لغة الخطبة، وهي تتخفى في تضاعيف النص باعتباره رسالة تواصلية تسعى لتحقيق غاية معينة، وهي ههنا إظهار عظمة صفات الله تعالى وبساطة صفات البشر وإحداث وتوليد ردة فعل لدى المتلقي تترتب عن كلا الأمرين.

وقد وردت في الخطب عديد العبارات التي أظهرت هذه القضية منها كشف ابن الجوزي عن عظمة الله تعالى التي تكمن في صفته أو اسمه " السميع " من هذه العبارات قول ابن الجوزي: " لا يحتجب عن سمعه صوت ناطق صيِّتاً كان أو ضئيلاً¹، وهي تظهر قدرة الله تعالى في سماع أصوات مخلوقاته وموجوداته وعباده مهما

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص124.

كان صوتها خافتاً، فهو يسمع تسبيح الشجر والحجر، كما يسمع أصوات المضطربين في ظلمة الليل، يقول: "سامع صوت المضطر" ¹

كما إن من العبارات قول ابن الجوزي: "الخبير بوسواس الصدور وأسرار القلوب وأخفاها... المدرك لخفي الأصوات فسيان لديه سرّ القلوب ونجواها" ²، وهي تظهر كذلك عظيم قدرة الله تعالى في الإحاطة بأسرار قلوب عباده وما تخفيه صدورهم من مكنونات وأفكار ونوايا وأحاسيس، وترادفها في المعنى عبارة "الخبير بسر ضمير الإنسان واختلاج لسانه...السميع لحنين الورق على أغصان زيد النبات وبانه" ³، كما يضيف إليها إظهار قدرة الله تعالى في سماعه أخفت أصوات الطبيعة منها حنين الورق على أغصان الشجر، وعند سقوطها في مواسم معينة من السنة على أوراق النبات.

كما يقول ابن الجوزي في ذكره لاسم "السميع" وتوضيحه إياه: "السميع، فخافي قول عبده عنده كمناداته" ⁴، وهو يظهر من خلال هذا القول درجة بساطة سماع الله تعالى لأصوات العبد الخفية، فهي عنده بمثابة أصوات المناداة التي يتخاطب بها طرفي الكلام من مسافة معينة، كما يذكر نفس الاسم من منظور آخر، يقول: "السميع، فلا يخفى عنه ذاكراً ولا مذكور" ⁵، وهو يوضح من خلاله سماع الله تعالى للذاكرين والشاكرين له وللمسبحين والمستغفرين له، كما أنه يحيط بذكر البشر لغيرهم بظهر الغيب سواء بالخير أو بالسوء.

كما يقول في موضع آخر يفسر فيه جوانب أخرى من نفس الصفة: "السميع بوقع قوائم الهوام على صمّ أصلاد الصخور...العالم بعواقب الأمور وخفيات الصدور، سواء

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص108.

². المصدر نفسه، ص123.

³. المصدر نفسه، ص115.

⁴. المصدر نفسه، ص119.

⁵. المصدر نفسه، ص117.

منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار¹، وهو يظهر من خلاله إحاطة الله جلّ وعلى بتفاصيل الكون وساكنيه، فهو الذي يسمع الأثر الصوتي الذي تحدثه قوائم الهوام على الأرض أثناء فعل المشي، كما إنه يسمع صوت هدير الحمام فوق الشجر "السميع لهدير الحمام على متون الشجر"²، كما إنه يعلم خفايا صدور البشر وهمسها عنده كجهرها، إضافة إلى أن أفعال البشر وأقوالها على مرأى منه ومسمع سواء بالليل أو بالنهار.

كل هذه الأفعال المذكورة والموضحة وغيرها الكثير، تندرج تحت اسم واحد من أسماء الله الحسنى وهو "السميع"، وهي تظهر في طياتها عظمة الله تعالى واستحقاقه لهذا الاسم أو لهذه الصفة، فسمعه عز وجل يفوق سمع البشر، فهو المحيط بكل أحداث الكون وما تحدثه من أصوات سواء من البشر أو من الهوام أو من الجماد أو من النبات، وهو الذي يسمع بتفاصيل الأشياء على وجه هذه الأرض مهما تعددت أمكنتها وتزامنت أوقاتها، وهذا ما هو مستحيل للبشر الإحاطة به أو بجزء ضئيل منه مهما تعددت محاولاتهم في ذلك، فهو فوق طاقتهم وهو خارج عن دائرة أفعالهم واستطاعتهم.

تتجلى المفارقة في الصفات، بين أسماء وصفات الله تعالى، وبين صفات البشر، كون صفات البشر التي أنعمهم الله بها تعد جزء من ألف جزء ويزيد من صفات الله تعالى، ثم بادئ ذي بدء فإن الله تعالى هو الذي سمى نفسه بما شاء هو من الأسماء، ومنحها الصفات التي شاء هو أن يمنحها، بينما صفات البشر من نعيم الله تعالى عليهم، لا من خلق أنفسهم، وهي المفارقة الأولى التي تظهر في القضية.

وثاني الأمور أن الله تعالى قد منحهم جزءاً ضئيلاً من صفاته، فقد أنعم عليهم بحاسة السمع التي هي جزء بسيط من اسمه "السميع"، فهم يسمعون بعضهم البعض في مخاطباتهم اليومية المباشرة أو عن طريق ما استحدثه الإنسان من وسائل تحقق

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص106.

². المصدر نفسه، ص103.

وظيفة السماع رغم بعد المسافة بين المتكلم والسامع، كما يسمعون فوضى المكان الذي ينتمون إليه، وهم يسمعون حديث نفوسهم واختلاجاتها، كما يسمعون في منامهم، إضافة إلى هذا فإنهم ويفضل ما آتاهم الله من عقل وتفكير، فإنهم قد أنشأوا وسائل تساعد أولئك الذين قد أصابتهم علة في حاسة سمعهم فتعينهم على سماع الأصوات وتعلم اللغات، كما إنهم قاموا بإنشاء وسائل تساعد على سماع دقات قلب الجنين في رحم أمه، كلها من فضل ومن الله تعالى عليهم، ثم بفضل جهودهم في المجال.

وقد سمى الله تعالى نفسه بالسميع، إلا إن صفة الله تعالى هذه تفوق صفة البشر في عظمتها، فالله تعالى يسمع خواطر نفوس كل البشر على وجه الأرض منذ بداية الكون إلى نهايته رغم تعدد الأمكنة وتزامن الأوقات، كما إنه تعالى يسمع أصوات الموتى في القبور كفاراً كانوا أو مؤمنين، كما إنه يسمع أصوات المعذبين في جهنم وكذا أصوات المنعمين في الجنة، كما إنه تعالى يسمع تسبيح النبات والشجر والحجر والجبال والحيوان.

يظهر من خلال هذا الفرق العظيم بين صفات الله تعالى الدائمة وصفات البشر الزائلة، وكلها رسائل بعث بها ابن الجوزي، وهو يدعو من خلالها المتلقي لاستنباطها من خلال لغة الخطبة، فهي رسائل حاجية يتم من خلالها إثبات أحقية الله تعالى في تسمية نفسه باسم السميع وفي استحقاقه للألوهية والربوبية التي لا يشاركه فيها أحد من العالمين، وذلك أن ابن الجوزي قد أودع في لغة الخطبة وضمّنها رسائل دعا ابن الجوزي المتلقي لاستكشافها، وهي لا تظهر علناً ولم ترد على شكل أوامر أو نصائح أو مواعظ، ف: "عندما يطالب المحاور غيره بمشاركته اعتقاداته فإن مطالبته لا تكتسي صبغة الإكراه ولا تدرج على منهج القمع وإنما تتبع في تحصيل غرضها سبلاً استدلالية متنوعة تجرّ الغير جرّاً إلى الاقتناع برأي المحاور"¹

¹. محمود طلحة: تداولية الخطاب السردي دراسة تحليلية في وحي القلم للرافعي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط1، إربد، 2012، ص155.

ذلك أن الخطبة الدينية بما تحويه من براعة في نظمها وفي تأليف كلامها وألفاظها وتراكيبها في غنى كبير عن تلك الأمور، فهي التي تتحف قارئها وسامعيها بفصاحتها وبلاغتها وتنوع فنونها وسمو معانيها، إضافة إلى كل هذا فإنها تحوي استراتيجيات إقناعية في روح تلك الألفاظ والتراكيب تضيف لتلك الجمالية وذلك الرونق تأثيراً مزدوجاً، إذ يتأثر المتلقي بفنّها من جهة، ومن جهة أخرى يتأثر بما تحمله من معاني وبما جاءت به من دعاوى وإثباتات تجر المتلقي جراً للاقتناع بها واتخاذ القرار الذي يتحول فيما بعد عنده إلى معتقدات وممارسات راسخة ومتجذرة في ذهنيته.

إذن، يمكننا القول إن ابن الجوزي قد تحرى أعلى درجات الاجتهاد في توضيح وتفسير أسماء الله تعالى وصفاته الحسنى، وهو يسعى من وراء ذلك لتحقيق غاية وهي تعريف المتلقي بالله تعالى، فمعرفة الله تعالى هي أساس وجود الإنسان على وجه الأرض، ذلك أن معرفة الله تعالى تؤدي بالعبد إلى خشيته والتقرب منه، كما تؤدي إلى الاجتهاد في عبادته وتحري العبد أفعال الخير والصلاح في حياته وفي معاملاته، كما تؤدي معرفة الله تعالى من خلال أسمائه وصفاته إلى الاعتراف بأحقية الله تعالى بالألوهية والعبودية، فهو الذي لا إله إلا هو، وهو الواحد الأحد من غير شريك ولا ولد، جلّ جلاله وعلا اسمه.

1. 2. 1. الحجاج من خلال موضوع خلق الكون وتسيير الظواهر الطبيعية:

ينتظر ابن الجوزي في موضوع خلق الله تعالى للكون وتسييره للظواهر الطبيعية، إلى إظهار ملكوت الله تعالى في السماء والأرض وإثبات قدرته العظيمة في خلق وإيجاد كل هذا الكون ومقوماته من العدم، كما يقوم من خلال ذكر هذه الموجودات بإظهار درجة إتقان الله تعالى في تسييرها دون حدوث علة فيها أو نقص منذ القدم وإلى أبد الأبد، وقد سعى للوصول إلى هذه الغايات الحجاجية من خلال تفصيله في ملكوت الله تعالى في السماء وإظهار جماليتها وبراعة تكوينها فيما تحويه من أفلاك ونجوم وكواكب، وشمس وقمر، كما تحدث عن ملكوت الله تعالى في الأرض، وما

تحويله من إبداع رباني في تسيير ظواهرها الطبيعية وما ينجر عنها من تحوّل في فصولها السنوية.

بحيث فصل ابن الجوزي في هذا التحول وصوره أبلغ تصوير مستعيناً في ذلك ببعض الفنون البلاغية التي أضفت الجمالية على لغة الخطبة وعلى ما تحمله من معاني ومفاهيم، فقد تحدث عن التغيرات التي تطرأ على الطبيعة، فصّل في الانتقال من الظلمة إلى النور وفرح الكائنات بذلك، كما فصّل في الانتقال من الخريف إلى الشتاء ومن الشتاء إلى الربيع وفرح الطبيعة والشجر والنبات بذلك، كما فصّل في الانتقال من ظاهرة النهار إلى الليل في أساليب جميلة وبديعة.

يقول في إحدى أمثله التي تطرق فيها إلى التحولات التي تطرأ على الطبيعة في فصل الشتاء والربيع: "... رافع الشمس بقدرته في أوج الفلك الدوار، ومقدر سيرها بالدقائق والدرج في الطلوع والغروب والاستتار، وجاعلها آية مبصرة في النهار، حتى إذا حفت بها النجوم ابتلاها بالغيوم فأخذت في السرار، وترنمت حداة الرعود فأزهر الغصن بعد الذبول والخمول والانكسار، وهطلت دموع السحاب بالانتحاب فجرى بوابل الأمطار، ولعبت به الرياح فانبسط وساح في فساح القفار، وأومض برقه من خلاله ودقه يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، عارضه الشمال وقد استكمل في جيش كرار، فبرز من كمينه الربيع فثار كطالب ثار، فثار عليه التشيع فأخذ منه بثأر..."¹.

يقوم ابن الجوزي من خلال إيراد هذا المثال في الخطب إلى إظهار عظيم قدرة الله تعالى في خلقه للكون بأسره وتسخيره للبشر بكل ما يحمله من مقومات المعيشة من تربة ومياه وهواء، ونور وظلمة، وفصول طبيعية، وليل ونهار، وبرد وحر، وأمطار ورياح، وقد احتج بها بكل ما تحمل من جمالية ووظيفية على إثبات مدى إتقان الله تعالى في تسيير الكون، وكذا درجة الكمال الذي وصل إليه الله تعالى، ذلك أن عظمة الكون التي تظهر على كل مخلوقات الله تعالى وموجوداته توجب وجود عظمة أكبر منها وهي عظمة الله تعالى الذي خلقها وأوجدها وأتقن صناعتها، كما إن كل هذا

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص120.

الكون الذي لا عيب فيه ولا علة توجب وجود إله استغنى في صناعته عن الشريك والولد، فهو سبحانه لا يحتاج للمساعد ولا للشريك.

يحمل القول في طياته ناهيك عن تصوير مشاهد الطبيعة ونقل روعتها للمتلقي، فكرة المحاجة، فقد احتج ابن الجوزي على فكرة عظمة الله تعالى من خلال مشاهد الطبيعة بعظمتها وروعة إتقانها، أي احتج بملكوته عز وجل لإثبات قدرته وسلطته على الكون بأسره، فالإيمان بعظمة الطبيعة توجب الإيمان بعظمة الله تعالى والافتناع به كمبدأ يسير عليه المؤمن في حياته، وبالتالي توجيه سلوكه الوجهة التي يرتضيها لهذا المبدأ، وهي عبادة الله وشكره على كل النعم التي نحن مغمورون بها.

يقول في آخر تفصيله لمشهد الطبيعة المذكور: " كل ذلك دلالة على قدرة الواحد القهار وبرهان على نقل الأنام من هذه الدار إلى تلك الدار، ودليل يعتمد عليه أهل البصائر والاعتبار أنه هو الخالق لهذه المخلوقات والموجد لهذه الآثار"¹، وهذا القول يمثل إحدى تجليات الحجاج التي برزت من خلال موضوع قدرة الله تعالى في خلق الكون وتسيير الظواهر الطبيعية.

يبعث ابن الجوزي من خلال هذا الموضوع برسالة للمتلقي، يحثه فيها على التقرب من الله تعالى والتوجه إليه بالعبادة الصحيحة التي تتبع من القلب السليم، والتي لا رياء فيها ولا كذب، فهو يخاطبه بأسلوبه الخاص الذي تمثل في الوعظ والافتناع بالخطبة وبما تحمله من معاني إيمانية سامية، فيدعوه للتمتع في آثار الله تعالى وموجوداته في الأرض والسماء، والتي وظفها ابن الجوزي كأفكار واستراتيجيات إقناعية، فهي تستوجب منه وجوب طاعة الله وعدم عصيانه، كون عصيان الله يستوجب الخروج من دائرة الكون والنعم التي يعيش الإنسان تحت رحمتها.

يدعو ابن الجوزي المتلقي من خلال توصيل هذه المشاهد الطبيعية إلى أمر واحد ووحيد هو طاعة الله وعدم عصيانه، إلا أنه اعتمد في ذلك على الأسلوب غير

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص121.

المباشر، بحيث يخبر المتلقي ويصور له مجموعة مشاهد من الطبيعة، كما يتحدث عن روعتها وجمالها وأهميتها لسير الكون والحياة والإنسان، وهو يدعو المتلقي من خلال هذا إلى شكر الله تعالى ويخبره أن هذا الكون الجميل له إله جميل يستحق التضرع لوجهه وإخلاص العبادة له، ذلك أن أساس الوجود بكل ما فيه هو الخالق عز وجل، والغاية تثبيت العبد على الطاعة أو العودة به لطريق الاستقامة والثبات على الحق.

اعتمد ابن الجوزي لتثبيت فكرة الإيمان في قلوب البشر ولتعريفهم بنعم الله التي وجب عليهم جزاءها إخلاص الطاعة لله والعبادة والحمد له وحده، على هذا الموضوع، وهو يعتبر أسلوباً حجاجياً لاعتماده على تصوير إحدى مشاهد الطبيعة كمادة أولية لإيصال هذه الأفكار، وبتعبير أوضح فقد استعمل الخطبة أو الخطاب في حد ذاته لأداء غايات حجاجية، فمشهد الطبيعة حجة لابن الجوزي جاء بها ليحقق ما تقدم، إذن وجب الاقتناع بالفكرة التي سعى ابن الجوزي لإيصالها للمتلقي، واتخاذ موقف ثابت يسير عليه متلقي الخطبة في حياته، لأنه لا يعقل أن نحيا من خيرات الطبيعة، ونتنفس هواءها، ونعصي خالق هذه الطبيعة؟ لا والله إنه لظلم لأنفسنا لا ظلم بعده.

1. 2. 1. 3. الحجاج من خلال موضوع خلق الله تعالى للبشر:

تطرق ابن الجوزي إلى موضوع خلق الله تعالى للبشر في عدة خطب من الكتاب، وقد اعتمد في ذلك على مرجع أساس وهي قصة خلق سيدنا آدم عليه السلام، والتي ذكرت في القرآن في أكثر من موضع، كما تحدث عن خلق الأجنة في الأرحام، وما تمر عليه من مراحل حتى يكتمل نموها، ونجده كذلك في مواطن أخرى يفصل في المراحل التي يمر بها الإنسان منذ الطفولة إلى غاية ملاقاته ربه لمحاسبته على ما قدم من أفعال الخير أو الشر.

ومن الأقوال المضمنة في الخطب، والتي قامت بذكر أهم المراحل التي يمر بها الإنسان، قول ابن الجوزي متحدثاً عن الإنسان وموظفاً ضمير المستتر الذي يعود على

الله تعالى: " تفرّد بفطرة صورة الجنين في ظلمة أحشائه، وأبدع في تسوية بنانه، واعتنى بتلفيق أجزائه، وتسهيل كلامه وبيانه، وحركه بريح الطلق حين أن أولان إتيانه، وأخرجه إلى دار التكليف لإظهار عرف عرفانه، ونقله في درج الحياة يقطع ساعاته وأزمانه، وأوضح له سبل معرفته بإقامة دلائله وبرهانه، وجعل غاية بقائه إلى فنائه وتمزق جثمانه، وأزعجه بالرحيل وجرّعه كأس الانتقال عن أوطانه، وانتزع عواري دنياه فلم يحظ منها بغير أكفانه، وأفرده بعد أنسه بإخوانه في لمّ لحده وديدانه، وخلا بمنكر وسؤاله ونكير وافتتانه، وساكن ما قدّم في منزل يوانس من في مكانه، ثم أعاده بعد أن أباده لعرض صحيفته وديوانه ¹"

تظهر أهداف الخطاب والقول أو غاياته من أولى عتباته، بحيث يُظهِرُ الفعل " تفرّد " والذي يعود على الله تعالى، قدرة الله تعالى من حيث تفرده في خلق الإنسان وتسيير أموره، وهو يحيل إلى أمور عديدة أهمها تعريف المتلقي بالله تعالى بإسقاط صفة التفرّد على أفعاله في الأرض والبشر، وكذا إظهار وحدانيته وسلطته على البشر دون منازع أو مشارك في ذلك، فهو الله وحده الذي خلق البشر، ورزقهم من نعمه، وهو وحده الذي يجمعهم يوم الدين، وهو وحده الذي يحاسبهم على أفعالهم، وهو وحده الذي يدخلهم جنة نعيمه، أو سعيير عذابه، كما إنه تعالى الوحيد الذي يطلع على الغيب، وعلى مصير الإنسان قبل أوانه، فالله تعالى وحده المحيط بشؤون الكون وشؤون البشر منذ خلقهم إلى يوم بعثهم.

تطرّق ابن الجوزي إلى موضوع خلق الله تعالى للبشر لغايات حجاجية، وهي تتمثل في إظهار عظيم قدرة الله تعالى في خلق البشر منذ سيدنا آدم الذي خلقه من صلصال من طين، وهو يدعو العباد من خلال التطرق لهذا الموضوع إلى التدبر في خلق البشر وإدراك تمام الدقة والجمال والإتيان في ذلك، كما يعرفهم بنعم الله تعالى على العباد، من حيث خلقهم وتسوية بنانهم وتجميل خلقتهم، وتمييزهم عن هوام الأرض

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص114.

بالعقل، كما أنهم عليهم بمختلف الحواس التي يدركون من خلالها العالم الخارجي، وسخر لهم النباتات والحيوان والأرض بخيراتها لخدمتهم بالتغذية واللباس والمسكن.

بحيث سعى ابن الجوزي إلى تذكير المتلقي وتعريفهم بكل هذه الأمور لغاية إقناعهم بعظيم قدرة الله تعالى في الكون وفي الإنسان، وذلك لتثبيت فكرة سلطة الله تعالى على البشر، وتذكيرهم بالواجب الذي يترتب عليهم القيام به لنيل رضا الله تعالى، وغاياته في ذلك التأثير في ذهنية ذلك المتلقي بتوجيه سلوكه الوجهة التي يرضاها ناظم الخطب، وهي التمسك بالمنهج الحياتي الصحيح، والذي يقوم على معرفة الله حق معرفة عن طريق إدراك صفاته وأفعاله في الأرض وفي العباد، وكذا طاعة الله وطاعة رسوله.

أسمى غايات الحجاج التي أراد ابن الجوزي تحقيقها، هي التطلع على الخطب، وإدراك ما تحويه من أفكار وعظية في طياتها، بحيث ضمن ابن الجوزي خطبه مجموعة دلائل على وحدانية الله تعالى وقدرته العظيمة وملكوته الواسع في الأرض والسماء، وذلك في صورة موضوعات تتحدث عن خلق البشر، والتفصيل في المراحل التي يمر بها الإنسان منذ صورته كجنين في بطن أمه إلى غاية لقاء ربه، بحيث احتج بهذا الموضوع وبموضوعات أخرى على وجود الله تعالى وتمايم وحدانيته وسلطته على البشر وإظهار عظيم قدرته في الأرض والسماء.

**1. 2. 1. 4. الحجاج من خلال موضوع التفصيل في وجود الله تعالى وقدمه
وحدانيته وأبديته:**

يعتبر موضوع التفصيل في وجود الله تعالى وقدمه ووجدانيته، من أكثر الموضوعات التي حوت مادة حجاجية في مضمونها، بحيث تجلى الحجاج في هذا الموضوع بواسطتين، الواسطة الأولى وهي ما تحويه مضامين القول من دلائل على وجود الله تعالى وقدمه، ذلك أنها تسرد أفعاله تعالى في الأرض والكون، وذلك الذي حصل في مرحلة كان لم يخلق فيها الإنسان أصلاً، أي أن هذه الوسيلة تمثل حجاج غير مصرح به في الخطبة فهو مهمة المتلقي في اكتشافه، أما ثاني الوسائل فهي أن

ابن الجوزي زيادة على تضمينه للدلائل في مضامين خطبه، قد قام بإيراد عبارات في ثنايا الخطب يثبت من خلالها الوسيلة الأولى وهذه الوسيلة مصرح منها من قبل ناظم الخطبة، أي الحجاج عن طريق بعض المعاني، أي أن هذا الموضوع قد حوى مادتين حجاجيتين مختلفتين من حيث الطبيعة، فالأولى حجاج بالأفكار، والثانية حجاج بالعبارات.

ورد في إحدى أقوال ابن الجوزي متحدثاً عن وجود الله تعالى قوله: "... جلاله أزلي لا جلال يساويه، وبقاؤه أبدي لا فناء يعتريه، وانفراده ثابت لا نفيه، وسلطانه ظاهر لا نخفيه، الأول قبل الكون وساكنيه، الآخر على الأبد بعد الدهر وأهليه، الحي فلا فناء يدخل على حياته فينفيه"¹

يظهر من خلال القول، تعريف ابن الجوزي للمتلقى بصفات الله تعالى التي تثبت وجوده وبقائه وانفراده وسلطانه على العالمين، وهو يدعو في مضمون القول إلى عدم الشك في وحدانية الله تعالى، فانفراده ثابت ولا داعي لنفيه، كما يدعو المتلقي إلى الاعتراف بسلطان الله تعالى في الأرض والسماء، وكذا سلطته على جميع البشر، وبالتالي توجيهه لطاعة الله وعبادته وشكره في الرخاء والشدة.

كما ورد من بين أقوال ابن الجوزي، والتي تصب في نفس الموضوع، قوله مثبتاً ألوهية الله تعالى: "... وأبان برهان إلهيته في موجوداته، وأوضح دليل قدمه بإحداث مبتدعاته، شهدت العقول بتوحيده وتنزه ذاته، وأمر المنقول برفع تشبيهه وإثبات صفاته، القديم في الأزل قبل الزمان وساعاته، الباقي على الأبد بعد إفناء الكون ومحدثاته، الحي فلا فناء يعرض لبقائه ولا زوال يدخل على حياته"²

تظهر عبارة "أبان برهان إلهيته في موجوداته"، أن الله تعالى قد أثبت أحقيته في الألوهية والربوبية من خلال مخلوقاته وآثاره في الأرض والسماء، فالجمال والإتقان

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص128. 129.

². المصدر نفسه، ص119.

والتنظيم والدقة عناصر تتوفر في كل موجوداته على هذا الكون، وإيجادها يتطلب رباً يتصف بكل صفات الكمال المنزهة عن النقص، فموجوداته عز وجل هي بمثابة برهان لإلهيته، من أجل هذا قام ابن الجوزي باستغلال الموضوعات التي هي بين أيدينا، كموضوع صفات الله تعالى، وخلق الكون ومظاهر الطبيعة، وخلق البشر، وموضوع وحدانية الله تعالى ليثبت من خلالها أحقية الله تعالى في العبادة والطاعة وإثبات ألوهيته وحده لا شريك له.

كما تظهر عبارة "أوضح دليل قدمه بإحداثا مبتدعاته"، قدم الله تعالى على الكون بأسره وعلى العباد والمخلوقات، ودليل ذلك هو الكون نفسه، فقد خلق الله تعالى السموات، ثم خلق الأراضي، ثم جعل الأرض التي نحيا عليها معاشاً للإنسان، فأودع فيها التربة الصالحة للزراعة، وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، كما بعث فيها ينابيع المياه والزرع والشجر، كلها لخدمة الإنسان، فخلق الإنسان جاء متأخراً عن خلق الأرض والسماء، فقد هيا الله تعالى للبشر كل أسباب الحياة وجعل لهم الأرض مرتعاً ومأوى، وهذا دليل قاطع . لا نقاش فيه . يثبت قدم الله تعالى على كل الكون وعلى البشر وعلى جميع المخلوقات، فهو عز وجل موجدتها من العدم، وهو عز وجل مسير أمورها في دقة لا متناهية، لأجل راحة الإنسان وتحقيقاً لوجوده.

يقول ابن الجوزي متحدثاً عن الله تعالى: "... القديم في الأزل ودليل ذلك واضح لإيجاد بريته ظاهر لمن نظر، الباقي على الأبد وبرهان ذلك بإعدام خلقه باهر لمن اعتبر، الموجود قبل كل موجود وجد وظهر، الدائم بعد كل مفقود عدم وغير"¹

فهل يعقل بعد كل هذه الدلائل التي قام ابن الجوزي بإيرادها، أن يناقش هذا الإنسان قضية وجود الله تعالى وقدمه وأبديته ويشك فيها، كلا ولا، بل عليه أن يرضخ لخالقه ويتوب إلى الله، ويبدل أعماله وظلم نفسه بأعمال الصلاح والتقوى، وذلك كي تتحقق عدالة الكون، فحضور النعم تستوجب شكر الله عليها وإخلاص الطاعة والعبادة له.

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص103.

إذن، احتج ابن الجوزي بمجمل هذه الموضوعات المذكورة، لإثبات قضية ألوهية الله تعالى وقدمه على العالمين، كما جاء بها من أجل تغيير معتقدات المتلقي أو تثبيتها، فقراءة الخطبة والتمعن في معانيها يترك بصمة لدى المتلقي، عن طريق التأثير في ذهنيته وتغيير معتقداته الخاطئة بمعتقدات صحيحة تؤسس للحياة السليمة والنهج الصحيح، أو أنها تقوم بتثبيت فكرة الإيمان لديه عن طريق التعرف أكثر على الله، فزيادة المعرفة بالله تؤدي بالعبد إلى إعطاء حق الله وتأدية الواجب تجاهه، والمتمثل في العبادة والطاعة، من هنا تحقق الخطبة أهدافها ويحقق ابن الجوزي مساعيه التي سعى إليها من وراء نظمه للخطب.

1.2.2. الحجاج بواسطة عبارات مخصوصة:

شاعت في ثنايا الخطب بعض العبارات التي لجأ إليها ابن الجوزي واعتبرها وسيلة حجاجية يثبت من خلالها أمور عدة، وقد تركزت هذه العبارات تارة في العرض وتارة أخرى في نهايته، أي عندما ينهي ابن الجوزي من التفصيل في الأفكار التي عبرت عن الموضوع الذي تطرق إليه، يقول في إحدى خطبه وبعد أن فصل في موضوع قدرة الله تعالى في خلق الخلائق، وتسيير الكون والتحكم في الرياح والسحب والأمطار وإنبات الشجر وإزهارالنبات: " ... كل ذلك دليل على إحياء العظام الناخرة وآية على إعادة الأنام من أرض الفناء إلى أرض الساهرة"¹

يتجلى الحجاج في العبارة المذكورة من خلال لفظتي {دليل وآية}، وهما يحملان معاني البرهان والحجة، بحيث يظهر من خلال العبارة أن ابن الجوزي قد أتى بكل تفاصيل العرض لإثبات أمر واحد هو إحياء الله تعالى للموتى يوم البعث لمحاسبتهم، يقول { دليل على إحياء العظام الناخرة} فقدره الله تعالى في خلقه للخلائق وللكون بأسره لا نتوقف عند هذا الحد بل نتعداها إلى إحياء العظام الناخرة في القبور وإعادة تكوينها من العدم على صورة الإنسان، وهو عند الله تعالى ذا اسم معلوم وأفعال محددة قام بها في حياته وهي مسؤولة عن إدخاله الجنة أو النار.

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص 105.

كما يظهر الحجاج على مستوى عرض إحدى الخطب في عبارة أخرى، يقول ابن الجوزي إثر حديثه عن تزيين الله تعالى للسماء بالكواكب والنجوم والقمر والضياء والظلام: "... وكل هذه الخلق والآثار دلالة على وحدانية القديم الجبار وبرهان يعتبر به ذوو الفطن والأفكار وطريق نظر واستدلال يعرف به أهل الاعتبار أن فاعل ذلك موجد الأكوان ومبدع الخلائق"¹

يتجلى الحجاج في العبارة المذكورة من خلال ألفاظ {دلالة، برهان، استدلال}، وقد أورد ابن الجوزي أفكاره التي أودعها في عرض الخطبة مثبتاً من خلالها أمر واحد ووحيد وهو وحدانية الله تعالى، يقول {دلالة على وحدانية القديم الجبار}، فهو عز وجل لا شريك معه في خلقه، ولا ولد له ولا زوجة تلهيه، فصفاته فوق كل البشر وملكوته الواسع الذي شمل كل السماوات والأرض لا ينازعه فيه منازع ولا يشاركه فيه مشارك، كما ذكر أن أصحاب الفطن وأهل الاعتبار هم الذين يدركون هذا الأمر، ذلك أنهم يتمعنون فيما خلق الله ويدركون قدرته العظيمة من مخلوقاته وموجوداته فيزيدون إيماناً به وتقرباً وخشية منه.

كما يظهر الحجاج في موضع آخر من الخطب، وفي عبارة أخرى، يقول ابن الجوزي في معرض حديثه عن فصول السنة وتفصيله في ظواهرهم الطبيعية: "... كل ذلك دلالة على قدرة الواحد القهار، وبرهان على نقل الأنام من هذه الدار إلى تلك الدار، ودليل يعتمد عليه أهل البصائر والاعتبار أنه هو الخالق لهذه المخلوقات والموجد لهذه الآثار"².

تتشابه هذه العبارة إلى حد كبير مع العبارات الأولى التي ذكرناها، ويحصل التشابه على مستوى بعض الألفاظ والتراكيب، كما يحصل التشابه على مستوى الفكرة أو القضية التي حاول ابن الجوزي إثباتها من خلال عرض الخطبة، بحيث تجلى الحجاج

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص117.

². المصدر نفسه، ص121.

في العبارات الثلاث تقريباً بنفس الألفاظ {دليل، حجة، برهان، استدلال}، وهي تؤدي نفس الوظيفة الحجاجية.

كما أن تراكيبيها تتشابه، فتركيب: {كل ذلك دلالة} يتشابه مع تركيب: {كل ذلك دليل}، وتركيب: {واستدلال يعرف به أهل الاعتبار} يتشابه مع تركيب: {ودليل يعتمد عليه أهل البصائر والاعتبار}، كما أن تركيب: { وآية على إعادة الأنام من أرض الفناء إلى أرض الساهرة} يتشابه مع تركيب: {وبرهان على نقل الأنام من هذه الدار إلى تلك الدار}.

إضافة إلى هذا فإن التشابه قد حصل كذلك على مستوى المفاهيم، بحيث دارت العبارات حول نفس المعاني، بحيث سعى ابن الجوزي لإثبات مجموعة أمور متعلقة بالله تعالى من خلال إظهار قدرته في الأرض والسماء وفي مخلوقاته وموجوداته، كما تبين وحدانيته عز وجل وملكوته الذي لا يشاركه فيه أحد.

1. 2. 3. الحجاج بواسطة الصور البيانية:

برزت على مستوى الخطب عديد الصور البيانية التي خصصنا لها جزءاً من البحث في الفصل الأول أظهرنا فيه بعض الاستعارات والتشبيهات والكنائيات المجازية، كما بينا فيها الأوجه الجمالية التي حققتها تلك الصور في الخطبة من خلال تزيين أسلوبها ومنحه رونقاً وتصويراً حسنين، إلا أن هذه الصور لها وظائف أخرى غير إضفاء الجمالية على اللغة، ذلك أنها تحقق أغراض حجاجية لارتباطها من هذه الناحية بالمعنى الذي يكون ابن الجوزي في سبيل عرضه، فمن: "الأشكال أو الصيغ اللغوية ذات المدى الحجاجي الوجوه أو الصور البلاغية التي كثيراً ما نظر إليها نظرة أدبية حصرتها في وظيفة التحسين والتزيين"¹

ومن الصور البلاغية الأكثر انتشاراً عند استعمال المتكلمين هي الاستعارة، وذلك لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التخاطبية، فكما يبدو أن: "الأقوال الاستعارية

¹. حمادي صمود: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص323.

أعلى حاجياً من الأقوال العادية، لذلك يقدم المرسل الحجة الاستعارية في بعض السياقات بوصفها الدليل الأقوى¹

وبالنظر إلى الاستعارة في كونها تنقل مجموعة معانٍ للمتلقي، فإن كل مفهوم يورده ابن الجوزي يسعى من ورائه توصيل رسالة وتبليغ غاية محددة، والاستعارة من هذا المنظور تساعد المتكلم وتحمل بمعانيه للوصول لأعلى درجات الفهم والإفهام لدى الآخر متلقي الخطاب أو الرسالة، يقول ابن الجوزي في معرض حديثه عن ظاهرة الليل والنهار وما يعبر عنهما من نور وظلام: "... ترتفع بالظلام ستورها، ويظهر بالغسق بعد الشفق نورها، ويغيب نبراسها فتضحك لأفوله ثغورها"²، وتمثل هذه الاستعارة صورة السماء حين تظلم وعندما يغيب نور الشمس أثناء الغسق، فتضحك السماء بثغورها لهذا الموقف موقف تحولها بقدرة الله من النهار إلى الليل، أو من النور إلى الظلمة، والمرحلة التي بين النور والظلمة والتي تظهر على السماء لحظة تغير لونها، واكتسابها اللون الأحمر الصادر عن أشعة الشمس المختلط ببياض السحب والسواد الذي يظهر في بداية الليل، هي التي شبهها ابن الجوزي بالثغر الذي نسبه للسماء حين قال { فتضحك لأفوله ثغورها }، وهي استعارة مكنية فالضحك بالثغر ينسب للإنسان لكن ابن الجوزي نسبه للسماء، أي شبه السماء بالإنسان وترك لازمة من لوازمه وهي الضحك بالثغر أو بالفم.

تنقل الاستعارة المذكورة صورة في غاية الروعة كونها تبعث بالمعنى في ثوب جميل، فالصورة التي قام ابن الجوزي بنقلها للمتلقي، والتي تترجم حالة السماء وتفصل في تحولها من النور إلى الظلمة أو من النهار إلى الليل، سعى من ورائها إلى توصيل رسالة وتحقيق غاية، فالاستعارة من هذا المنظور تقوم بتقوية المعنى عند المتلقي، وإحداث الأثر القوي في مخيلته، وهذا الأثر هو الذي يتوجه به ناظم القول إلى ذهن متلقي الخطاب فيدرك من خلاله تمام قدرة الله تعالى في تغيير حال السماء في دقائق،

¹. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص452.

². ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص116.

ووحده تعالى الذي خلق ظاهرتي النهار والليل وربطهما بالنور والظلمة، وفي القضية
إعجاز رباني كبير

فقد تعلق الاستعارة استعمال ألفاظ الحقيقة، وذلك لأنه لا يفضل المرسل استعمالها
إلا لثقتها بأنها أبلغ من الحقيقة حجاجياً، وهذا ما يرجح تصنيفها ضمن أدوات السلم
الحجاجي أيضاً، إذ تعرّف الاستعارة الحجاجية: "بكونها تلك الاستعارة التي تهدف إلى
إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمتلقي"¹، وهو ما يود المرسل تحقيقه،
فاستعارات ابن الجوزي هي استعارات حجاجية إذ وجدناه يشبه ضوء السماء أثناء
الغروب بثغر الإنسان، كما نسب لها الضحك والفرح، وهو يبين من خلال هذه
الاستعارة جمال وروعة المعطى الكوني المتحدث عنه والمتمثل في السماء لحظة
الغروب، وقد كان الهدف من الاستعارة هو إظهار وإثبات عظمة الجمال الذي خلقه
الله تعالى وحده لا شريك له، كما أن الاستعارة تحدث تغييراً في الموقف الفكري
والعاطفي للمتلقي من خلال إثبات نسبة خلق الظاهرة الكونية المذكورة لله تعالى ونفي
إيجادها من قبل البشر أو أن يكون لهم يد فيها.

ترتبط الاستعارة بقصد المتكلم وباختياره، فهي لا تظهر من خلال المعنى الحرفي
للجملة، يقول [جون سيرل John Searle 1932. 1990] في كتابه [المعنى
والتعبير]: "إذا تحقق التطابق بين معنى الجملة والمعنى الذي يقصده المتكلم نكون
أمام المنطوق الحرفي، أما في حالة عدم التطابق بينهما فإننا سنكون إزاء المنطوق
الاستعاري"²، والذي يشتمل على معانٍ مجازية قصد المتكلم إيصالها إلى المتلقي
بطريقة غير مباشرة، فهي تحدث تنوعاً في اللغة من خلال إيراد المعنى بغير لفظه،
فقد يشير القول الذي أورده ابن الجوزي في عبارة (ضحك السماء) إلى حضور استعارة
قامت بنقل معاني الجمال والإبداع الرباني بواسطة خطاب تلمحي، والتلميح أسبق إلى

¹. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص495.

². نادية ويدير: البعد التداولي للاستعارة، مجلة الممارسات اللغوية، العدد 15، نقلاً عنه، مخبر الممارسات
اللغوية، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، 2012، ص165.

الفهم من التصريح، " لأن المرسل إليه يفهم ما يضره في خطابه تماماً مثلما يفهم ما يظهر فيه، فإذا كانت تتجلى كفاءة المرسل التداولية في صناعة الخطاب فإنها تتجلى الكفاءة التداولية للمرسل إليه عند تأويل الخطاب للوصول إلى مقاصد المرسل وإدراك حججه، فلو كان التخاطب يعتمد على الاستراتيجية المباشرة دون غيرها، لكلف الناس أنفسهم عناءً من أجل تفسير الخطاب وتوخي الإطناب، وإغفال ما تستدعيه عناصر السياق الاجتماعية من تنوع الخطاب في بنيته"¹، كما وقامت الاستعارة بتقريب معاني الإبداع والخلق والإعجاز الرباني من خلال التعبير عنهما بصفات الإنسان المعروفة للعيان كالضحك والابتسامة، كما أنها قامت بتقوية المعاني المذكورة من خلال إظهار جمال السماء الذي يثبت جمال الخالق عز وجل وينفي الشك عنه.

إذن يمكننا القول إن وظيفة الاستعارة من منظورها الحجاجي تفيد في تقوية المعنى وتثبيت صحته لدى المتلقي، فتؤدي إلى تحقيق قوة الإذعان والاقناع بعظيم قدرة الله تعالى في القضية المطروحة، فالاستعارة المذكورة تؤثر في متلقيها عن طريق زيادة الأثر الإيماني الذي يدفع بصاحبه لزيادة التقرب من الله لإدراك عظيم قدرته وعظم موجوداته، يقول ابن الجوزي: "... وامتدت عين النرجس في المجلس إلى القيصوم والسوسن والبهار، فخلج الياسمين من الحاضرين عند ذلك وغار"²، إذ تظهر الاستعارة في (عين النرجس في المجلس) وفي (خلج الياسمين من الحاضرين وغيرته)، وقد نقل ابن الجوزي من خلالهما صورة للمتلقي عن الأزهار والرياحين التي ملأت الطبيعة جمالاً وبهاءً، لكن بصورة استعارية مشبهاً إياها بمجموعة أشخاص يحضرون مجلساً ويتسامرون فيه وملؤهم خجل وغيره من جمال بعضهم، ف: " قوة الحجاج في المفردات تبدو في الاستعمالات الاستعارية أقوى مما نحسّه عند استخدامنا لنفس المفردة بالمعنى الحقيقي، إن للاستعارات ذات الدور الحجاجي خاصية ثابتة،

¹. لكل سعدية: استراتيجية الحجاج في محاوره إبراهيم عليه السلام لأبيه في القرآن الكريم، مجلة

الممارسات اللغوية، العدد 15، مخبر الممارسات اللغوية، جامعة مستغانم، الجزائر، 2012، ص186.

². ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص121.

فالسّمات الدلالية المحتفظ بها في عملية التخيّر الدلالي الذي تقوم عليه هذه الاستعارات هي سمات قيمية¹

فقوة الحجاج في عبارة (خجل الياسمين وغيرته) تفوق قوته في العبارة التي تنقل لنا على سبيل المثال . خجل التلميذ وغيرته من تفوق زميله عليه، وهي في الخطبة أبلغ وأقوى وأمتع ف: " المستعار ينبغي أن يُجْتَنَّب في البراهين، دون المواعظ، والخطابيات، والشعر، بل هي أبلغ باستعماله فيها"²

وقد سعى ابن الجوزي من وراء إيراد مجموع استعاراته إلى إظهار معنى خفي أو إيضاح وإزالة اللبس والشك في قضية معينة، وفي هذا الشأن يقول حسن المودن معتمداً على أقوال عبد القاهر الجرجاني: "إننا عندما نؤلف جملة فمن أجل أن نقول شيئاً وأن نبني معنى، فالمجاز ليس مجرد وسيلة تزيينية إضافية بل هو مكون أساس في بناء المعنى، فالتشبيه والاستعارة معانٍ إضافة إلى زخرف، كما إننا عندما نؤلف معنى فإننا نخبر، ألا ترى أن الخبر أول معاني الكلام وأقدمها، والذي تستند سائر المعاني إليه وتترتب عليه، ومعنى هذا أن الجملة حتى عندما تكون مجازية فهي تقدم خبراً وتؤدي وظيفة إخبارية، كما إن الإخبار يعني الإثبات والنفي، فإن مدار الفائدة على الإثبات والنفي، والجملة المجازية عندما تؤدي وظيفة إخبارية فهي تثبت وتنفي، أي أنها تؤدي وظيفة حجاجية، وأن المجاز عندما يقع في الإثبات فإن الأمر يتعلق بدعوى يدعيها المتكلم وتكون صادرة عن عقله ومخاطبة عقل المخاطب، أي أن للمجاز في هذه الحالة وظيفة حجاجية"³

سعى ابن الجوزي من وراء إيراد الآلية البلاغية المتمثلة في الاستعارة تحقيقاً أغراض إقناعية، فهي تساعد في تقوية المعنى في ذهن متلقي الخطبة، وتعينه على عملية فهم مسألة الإعجاز الرباني في القضية المتحدث عنها، كما يمكن للاستعارة أن

¹. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 495.

². المرجع نفسه والصفحة نفسها.

³. ينظر: حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، ص 243.

تحقق أحسن غاياتها الحجاجية بعيداً عن ذاتها وما تحمله من قوة المفاهيم والصور والأفكار، وذلك من خلال بروزها مع استعارات أخرى في نفس الخطبة.

فتعدد الاستعارات في الخطاب الواحد يكسب هذا الأخير عدد لا بأس به من الصور التي تخاطب ذهن المتلقي وحواسه ومخيلته، فيرى بخياله ما عبرت عنه اللغة بالكلمات وما أخفته في تضاعيفها من تصورات جميلة يغرق القارئ في روعتها، وكلما كثرت الاستعارات في الخطبة الواحدة وبما تحمله من تشبيهات، زادت في معانيها قوة وتأثيرين في متلقيها.

فقد لجأ ابن الجوزي في الخطبة الرابعة عشر إلى أكثر من تشبيه واستعارة، بغض النظر عن المثال الذي قمنا بذكره، يقول: " ... فكأن السماء على الثرى قبة عسجدية (...) وكأن النجوم تماثيل أشكال ياقوتية (...) القبة لم تدنسها أيدي الحدث (...) عطفت عليها غائرة عساكر النهار (...) ثار عليها الفجر طالباً للثأر (...) غار منها القمر فطلع بعد أن غار (...) فأخذت جيوشها في الهزيمة والفرار (...) وتولت إلى الغروب منهزمة (...) وهربت من سلطان الشمس (...) فهيم بأقطارها جند الظلام وعسكر (...) وشرط القمر على الشرطين أن يظهر (...) وثار الثريا مسرعاً في الرحيل وتعثر (...) ¹ إلى غيرها من الاستعارات والتشبيهات التي زينت للأسلوب في الخطبة وصورت المعنوي وشخصته وزادت في المعنى قوة، كما حققت عنصر التأثير في المتلقي، من خلال الإحساس بعظمة الله تعالى من خلال جمال موجوداته.

تتضح من خلال هذا الوظيفة الحجاجية لكل من الاستعارة والتشبيه والكناية، وخاصة عند ربط المتكلم بين مفهوم الاستدلال ومفهوم البيان، ذلك أن البيان الذي يظهر من خلال المجاز مكون أساسي في نظم الدليل، ف: " من أتقن أصلاً واحداً من علم البيان كأصل التشبيه أو الكناية أو الاستعارة، ووقف على كفيته لتحصيل المطلوب به، أطلعه ذلك على كيفية نظم الدليل، فهدف البيان حجاجي يتعلق بكيفية

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص116.

توظيف وجوه البيان من تشبيه وكناية وغيرهما، في سياق تخاطبي معين، من أجل
تحصيل المطلوب¹

ومن الوظائف الحجاجية للاستعارة أنها تساعد في تحقيق البيان أو إظهار المعنى،
فالمثال السابق عن ضحك السماء، يصور السماء ككائن بشري يقوم بفعل الضحك
الذي هو نتيجة لشعور القلب بالفرح والسرور، وهو يدرج هذه الاستعارة في خضم
تفسيره وتفصيله لظاهرة الشفق التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحلول أولى درجات الليل، فهي
عند الرائي ظاهرة طبيعة تعودنا على رؤيتها وشائعة على مرآنا مذ رأينا الحياة، ولا
مدلول من ورائها غير أنها إحدى المراحل التي يمر عليها النهار والليل، إلا أن ما
تحمله هذه الظاهرة الطبيعية من إعجاز رباني وقدرة إلهة فوق ما يتصورها العقل،
والاستعارة من هذا المنظور قد فصلت في هذا الأمر وسلطت الضوء عليه، من خلال
تصوير السماء في كائن بشري له ثغر يتبسم به، ذلك أنها تقرب المعنى إلى المتلقي
ويتصور بمخيلته فعل السماء كفعل البشر، ويتجلى له بناظره ذلك الفعل واضحاً
كوضوح أفعال البشر.

يصبح فعل تحول حالة السماء من النهار إلى الليل وبروز ظاهرة الشفق في السماء
واكتسابها ألوان مغايرة، عملية في غاية الروعة، وذلك أن متلقي الخطبة يتمعن في
معانيها وفي فنونها البلاغية التي تزيد المعنى قوة وتأثيراً وإقناعاً، والتي تدعوه بدورها
إلى التمعن فيما خلق الله من فلك ومخلوقات، ويدرك في كل استعارة قدرة الله تعالى
العظيمة في الظاهرة التي منحها الله تعالى للبشر تقريباً منه المعنى للمتلقي، وكنتيجة
لكل ذلك، يسبحه ويدعوه ويشكره على جل النعم التي نحن بها موجودون.

ومنه فإن الاستعارة بصورها المجازية تقوم بمخاطبة عقل المتلقي وذنه وانفعاله
أيضاً، والأكثر من ذلك أن قيمة الاستدلال المجازي تكمن في أنه يخاطب عقل المتلقي
ونفسه ومخيلته في الوقت عينه، ذلك أن الوظيفة الحجاجية للمجاز: " لا تعني سعيه

¹. ينظر: حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، ص244.

إلى إقناع عقل المخاطب بدعوى ما فقط، بل هي تعني سعيه إلى بلوغ النفس وجعلها تقتنع بهذه الدعوى وتتبناها أيضاً، وفوق هذا، يبدو أن المجاز أنجع وسيلة للتأثير في النفس وتمكين المعنى في القلب¹

إذن تعمل الاستعارة والكناية عمل الاستدلال، فالجملة المجازية تدعي دعوى تثبت أو تنفي أمراً، فوظيفتها لا يمكن أن تكون إلا استدلالية حاجية، وبالمقابل أيضاً فالاستدلال ليس عملية عقلية استنباطية محضة، بل إنه عملية خطابية، وفوق ذلك فإن الاستدلال البياني أو المجازي أشد تأثيراً من غيره، فإن أرباب البلاغة وأصحاب الصياغة للمعاني متفقون على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، وأن الاستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه، وأن الكناية أوقع من الإفصاح بالذكر²

1. 2. 4. الحجاج بواسطة المحسنات البديعية:

وللمحسنات البديعية دور حجاجي أيضاً ناهيك عن دورها في زخرفة الخطاب، فهي تهدف إلى الإقناع وبلوغ الأثر مبلغه الأبعد، " فهي ليست اصطناعاً للتحسين والبديع وإنما هي أصلاً أساليب للإبلاغ والتبليغ"³

وتقوم أهم المحسنات البديعية على أساس اللفظ الذي: " يؤدي بالضرورة وظيفة الإفهام، لكنه لن يكون لفظاً بلاغياً مبيناً إلا إذا كان يؤدي وظيفة الإغراء والإفتان والإمتاع، وهذه المكانة التي يمنحها الجاحظ لوظيفة الإمتاع هي التي جعلته يستخدم مصطلح البديع الذي كان له شأن كبير عند أهل الشعر والنثر كما عند علماء النقد والبلاغة، حيث يمكن اعتبار البديع في البلاغة إعادة غزل اللغة، واللغة الأدبية خاصة، حتى تكون غير ما كانت عليه في البداية"⁴، وصورتها الجديدة تلك هي التي تتعلّق بمجال الحجاج والإقناع، إذ لا تكتفي بزخرفة اللغة والخطاب التي عادة ما تكون

¹. ينظر: حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، ص 246.

². ينظر: المرجع نفسه، ص 245. 246.

³. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 498.

⁴. حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، ص 177.

بموسيقى خاصة بل تتعداها إلى البعث من خلال ألفاظها وموسيقاها برسائل بيانية للمتلقي من أجل إفهام بعض القضايا وتوضيح بعض المضامين، ومن أجل هذا يشترط علم البلاغة في اللفظ شرطين أساسيين: " الشعرية والتداولية، وهو ما يعني أن النص البليغ هو الذي يستعمل الإمكانيات الشعرية للألفاظ ويمنحها دوراً ما في الإقناع، فالأمر يتعلّق بشعرية وظيفية، ذلك أن العناية باللفظ لا تتفصل عن استراتيجية الإقناع

1"

وللتفصيل، فإن لموسيقى اللفظ خاصة دور كبير في تحقيق الغرض العام الذي تسعى إليه خطب الكتاب، فقد قام ابن الجوزي بعرض مجموعة من الموضوعات عبّر عنها بزخم كبير من الألفاظ امتازت معظمها بنهايات ذات نغمات وجرس خاص، يقول أرسطو: " فقد ينبغي أن نهب اللغة مظهراً غريباً، فإن العجيبات إنما تكن من البعيدات، وما يحدث العجب يحدث اللذة، فأما في الأوزان، فكثير من الوسائل تحدث هذا الأثر وتتفق مع طبيعة الشعر " ²، ولا تمثل هذه اللذة وذاك العجب قيمة خارجية فحسب، لأنها لو اقتصر على قيمتها الخارجية لما كانت ظاهرة أسلوبية: " فهي خارجٌ يؤدي إلى داخل، أي أن الميزة الصوتية تشمل بنية الكلمة وتشمل مع عناصر المعنى عنصراً جديداً لا ينفصل عن العناصر الأخرى " ³، وهو يتمثل على العموم في الإقناع، فقد استعان ابن الجوزي بعدد لا بأس به من المحسنات البديعية وذلك بوصفها تحقق هدف المرسل من الخطاب، من حيث التأثير فيه، فالعناية بالمحسنات ليست من قبيل الزخرفة اللفظية، أو إبراز قدرات المرسل اللغوية، كما: " لا تتحدد وظيفتها في ترجمة الانفعالات، بل هي تعمل من أجل أن تتواصل هذه الانفعالات وتصبح عنصراً من عناصر التواصل والإقناع " ⁴

1. حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، ص 153.

2. أرسطوطاليس، الخطابة، ص 186.

3. حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، ص 202.

4. المرجع نفسه والصفحة نفسها.

كما وتؤثر المحسنات البديعية في تحقيق الإقناع من وجهة أخرى، إذ تكون العناية في الخطاب موجهة إلى المرسل إليه حتى فيما يعرف بالمحسنات البديعية، فقد ورد أن: " الاستعارة والمبالغة والطباق هي وسائل بلاغية من حيث أنها تساهم في الإمتاع والتأثير، ولكنها أيضاً وسائل حجاجية من حيث أنها تعبر عن حجج بطريقة مركزة مع جعلها أكثر تأثيراً وإصابة"¹، ويشمل التركيز طرح المعنى من أجل إثباته، وطرح ضده لأجل نفيه، أي أن يسعى المتكلم لتوضيح وتقوية معنى ما من خلال ذكر ضده، وهو ما يعرف بالطباق الذي يركز فيه المتكلم على المعاني لجعلها أكثر قوة وأكثر تأثيراً، وهنا يتحقق الإقناع ويبلغ المتكلم غرضه من الكلام.

وللسجع كذلك دور هام في تحقيق الإقناع في الخطب، فارتباط الخطبة بالصناعة الصوتية يبين الوظيفة الإقناعية للإقناع، ذلك أن: " توقيع الكلام وتوازنه يكاد يكون حجة على صدقه، وهذا ملحوظ في الأمثال والحكم التي يندر أن تكون غير مسجوعة وموزونة"²

1. 2. 5. الحجاج بواسطة تقنية التصوير:

استغل ابن الجوزي تقنية التصوير أو الصورة، واتخذها وسيلة حجاجية في الخطب، وتعدّ هذه التقنية: " مجرد أسلوب فني يتخذ من المحتوى التصويري والمتعة الجمالية التي يبثها في النفس وسيلة لتحقيق غاية أعمق وأجلّ، ألا وهي الإقناع، فللكلام البلاغي وظيفة تمثيلية تنطوي على طاقة إيحائية مؤثرة، وأن قوته التأثيرية تتولد من أسلوبه التخيلي وليس من محتواه الدلالي"³

وقد قام ابن الجوزي في مجموع الخطب بتصوير وتشخيص مظاهر الطبيعة كالريح والمطر، وتفصيلاً في فصول السنة وما يطرأ عليها من تغييرات تظهر على الطبيعة وعلى محتوياتها، وذلك بإضفاء الحركة والحياة على عناصرها، فالطبيعة

¹. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص456.

². محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، ص116.

³. حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، ص29

ليست مادة جامدة بل روح حية، ويزيد تأثير الظاهرة الطبيعية المذكورة على المتلقي لحسن تصويرها، ويظهر هذا التصوير من خلال تركيب الصورة الفنية البديعة وتنسيقها في مشهد فني واحد ومعبر، والتي تمثله لغة الخطبة بما تحمله من ألفاظ وتراكيب تعبر عن أدق المراحل التي تمر بها الطبيعة في ذلك الفصل أو في تلك الظاهرة الطبيعية.

يقول ابن الجوزي في إحدى الخطب التي تصور فصول السنة، وهو يبدأ بحديثه عن حركة الشمس وكيفية جريانها من المشرق حتى المغرب: "... رافع الشمس بقدرته في أوج الفلك الدوار، ومقدر سيرها بالدقائق والدرج في الطلوع والغروب والاستتار، وجاعلها آية مبصرة في النهار، حتى إذا حفت بها النجوم ابتلاها بالغيوم فأخذت في السرار، وترنمت حداة الرعود فأزهر الغصن بعد الذبول والخمول والانكسار، وهطلت دموع السحاب بالانتحاب، فجرى بوابل الأمطار، ولعبت به الرياح فانبسط وساح في فساح القفار، وأومض برق من خلاله ودقه يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، عارضه الشمال وقد استكمل في جيش كرار، فبرز من كمينه الربيع فتار كطالب ثأر، فتار عليه التقشيع فأخذ منه بثأر، بحيث انقطع ماء دمه المدرار، ضحكت ثغور الأرض بعده لبعده بالنوار، وانفسحت إلى الضوء كمائم الروض بأسرار الأزهار ..."¹

يظهر هذا القول تصويراً لمجموع التغيرات التي تمر بها طبيعة، وقد بدأ حديثه بالشمس في طلوعها وغروبها، ثم يصور حالها بحوم الغيوم حولها، كما يصور تحول حالها تدريجياً إلى أمطار ورعود وبرق ورياح، ثم ينتقل إلى تصوير حال الشمس بحلول الربيع فذكر ظاهرة التقشيع وانقطاع المطر وفرحة الروض والأزهار بذلك، وقد استعان ابن الجوزي في كل ذلك بعناصر الخيال التي تقرب بين الإنسان والطبيعة، فهو يكسر الحاجز الذي يبدو عصياً على العقل والمادة، وهو تلك القوة التركيبية التي توافق بين الطبيعة والمبدع لتوحدتهما في صورة فنية مؤثرة في المتلقي.

تسهم صور الشتاء والربيع التي أودعها ابن الجوزي خطبته، في تقوية الأثر الذي يحدثه الكلام في قارئه، ذلك أن ابن الجوزي نقلهما لنا بلغة تصويرية تجعلنا نتخيل تلك

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص120. 121.

التغيرات التي طرأت على الطبيعة الواحدة تلك الأخرى، ومن خلال ارتباط لغة الخطبة بتقنية التصوير تتحد الصور المذكورة مع عنصر الحجاج، فيسهم ذلك في إحداث الأثر الكبير على المتلقي إلى الاقتناع بعظيم قدرة الله تعالى في تسيير تلك الظواهر الطبيعية واتباعها لنظام رباني فلا تريح عن هذا النظام ولا تخرقه، وكيف ذلك وهي تسبح الله بكرة وعشيا.

تزدوج المتعة في الخطب التي من هذا النوع مع المنفعة، متعة الخيال ومنفعة التدبر في خلق الله تعالى وما يحدثه في النفس من إدراك عظمة الله تعالى وزيادة في الإيمان به وعبادته، وهي غاية الحجاج حيث: " يجعل العقول تدعن لما يطرح عليها، أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، فأنجع الحجاج ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى الساعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب إنجازه أو الإمساك عنه، أو هو ما وفق على الأقل في جعل السامعين مهيين لذلك العمل في اللحظة المناسبة"¹.

كما يلجأ ابن الجوزي إلى الحجاج باستخدام تقنية التصوير في إحدى الخطب، وهو يتحدث عن قدرة الله تعالى في خلق الإنسان، ومصوراً مراحل الأولى في ظلم الأحشاء إلى حين مماته، يقول: "... تفرد بفطرة صورة الجنين في ظلمة أحشائه، وأبدع في تسوية بنانه واعتنى بتفريق أجزائه، وتسهيل كلامه وبيانه، وحركه برياح الطلق حين أن أوان إتيانه، وأخرجه إلى دار التكليف لإظهار عرف عرفانه، ونقله في درج الحياة يقطع ساعاته وأزمانه، وأوضح له سبل معرفته بإقامة دلائله وبرهانه، وجعل غاية بقائه إلى فنائه وتمزق جثمانه، وأزعجه بالرحيل وجرحه كأس الانتقال عن أوطانه، وانتزع عواري دنياه فلم يحظ منها بغير أكفانه، وأفرده بعد أنسه بإخوانه في ظلم لحدده وديدانه، وخلا بمنكر وسؤاله ونكير وافتتانه، وساكن ما قدم في منزل يؤانس من في مكانه، ثم

¹. محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر،

أعاده بعد أن أباده لعرض صحيفته وديوانه، وواقفه على ما أسلفه وويلاه من موافقة
ديّانه¹

يصور لنا هذا القول المراحل التي يمر عليها الإنسان ابتداءً بمرحلة تكونه في رحم
أمه إلى غاية وقوفه أمام ربه لمحاسبته على أفعاله، وهي مراحل نختصرها في كونه
كان: [جنيناً، ثم رضيعاً، ثم راشداً، ثم ميتاً، ثم مكفناً، ثم ساكناً القبر، ثم يحاسب من
قبل منكر ونكير، ثم حياً حياة البرزخ، ثم واقفاً أمام ربه لعرض صحيفته]، هي مراحل
صوّرها لنا ابن الجوزي بتفاصيلها، كي تظهر للمتلقي تمام عناية الله تعالى بعبده، وقد
لجأ ابن الجوزي إلى تقنية التصوير واعتبرها وسيلة حاجية، لإظهار وجه الإعجاز في
القضية، ذلك أنه يتوجه لذهن المتلقي وبالتحديد إلى مخيلته، فيجعله يتصور مسألة
خلق الله تعالى للإنسان، وعنايته العظيمة به منذ ولادته حتى عرضه بين يدي ربه، في
مراحلها وتطوراتها، وهذا ما يدعو متلقي الخطبة إلى الإيمان بقوة الإعجاز الإلهي في
القضية، وفهم الغاية التي من أجلها وجد الإنسان على وجه الأرض، لا عبثاً، إنما
حياته مجرد اختبار منحه إياه الله تعالى، ليرى عز وجل أمن الصالحين هو أم من
الفاستدين؟

وقد سبق هذا القول في الخطبة، حديث عن صفات الله تعالى العظيمة، وقد مهّد به
ابن الجوزي لما أتى بعده من تفاصيل عن مراحل وجود الإنسان، يقول: " الواحد فلا
ثاني في ملكه وسلطانه، الفاعل فلا مساعد له في حكمه واتقانه"²، وهو يبين من
خلال هذا القول وحدانية الله تعالى في ملكه وسلطانه، كما أن لا شريك له ولا مساعد
له في خلق الإنسان ولا في خلق باقي المخلوقات والموجودات، وهو يبعث للمتلقي ومن
خلال هذا القول برسالة مفادها أن الله تعالى الوحيد الذي لا شريك له هو الأحق
بالعبادة، وهو الإله الوحيد الذي نتوجه له بالطاعات والتضرعات والدعاء، وهو الوحيد

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص114.

². المصدر نفسه والصفحة نفسها.

الذي نتقيه ونخشاه، هي أعظم رسالة وجب على المتلقي قراءتها وفهمها وتطبيقها بالاعتقاد والممارسة، وهنا يتحقق الحجاج وتظهر غاياته.

تدعونا هذه الخطبة بالمراحل التي أوردتها عن خلق الإنسان ووجوده، وتدفعنا إلى الاقتناع الخالص بحقيقة وجود الله تعالى وحده لا شريك له، وبقبول أطروحة عظمة قدرة الله تعالى التي لا تضاهيها عظمة، كما تدفعنا للقيام بالفعل فعل الطاعة والخضوع لله تعالى وتجنب معصيته، والإيمان الخالص به ومحاسبة أنفسنا في كل تصرفاتنا، وبممارسة هذا الفعل حقيقة لا الاعتقاد به فحسب، وهذا من طرق إظهار الأثر الذي خلفته الخطبة على نفس متلقيها، والتي تمثل الغاية التي من أجلها جاء ابن الجوزي بالمعاني التي أوردتها خطبه.

1. 2. 6. الحجاج بواسطة الآيات القرآنية:

لجأ ابن الجوزي في الخطب إلى الحجاج عن طريق توظيف آيات قرآنية استدلت بها على صحة الفرضيات التي أتى بها، وقد اعتبرت الآيات القرآنية بمثابة الحجج الجاهزة لاقتباس المتكلم إياها من كتاب الله تعالى، وهي: "تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها وتواترها، وتدخل الخطيب ينحصر في اختيارها وتوجيهها إلى الغرض المرصود للاستدلال عليه ولقد اعتمد أرسطو على الوسائل المستعملة التي يدخل في نطاقها القوانين والشهود والاعترافات وسماها بالحجج غير الصناعية أو الحجج الجاهزة"¹ وهي في الخطابة العربية تضمين الآيات القرآنية والأحاديث وأبيات الشعر والأمثال والحكم.

إذ يدخل ضمن الحجاج ما هو خارج عن قدرات الشاعر اللغوية، ويتمثل ذلك في الاستشهاد بما هو جاهز سلفاً وقد سميت بالبنيات والوقائع الخارجية: "وهي بنيات مستمدة من الواقع الماضي بما يختزنه من تجارب إنسانية وأحداث تاريخية أو شخصية، تترجمها الحكم والأمثال والحكايات والكنائيات وغيرها ... تكون معروفة من

¹. محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، ص90.

قبل وذات قيم مجتمعية، تحظى باحترام واهتمام الأفراد والجماعات¹، وتدخل هذه الاستراتيجية الحجاجية ضمن كفاءة المعارض ابن الجوزي، مما يكسبه سلطة أكثر، فهو إلى جانب امتلاكه الكفاءة اللغوية والعلمية. والتي تتمثل في الرصيد اللغوي والتمكن من قواعد النحو. يمتلك كفاءة معرفية تمثلت في حفظ الآيات القرآنية ومعرفة أسباب نزولها وتفسيراتها وحسن توظيفها في الكلام من أجل المحاجة.

وقد سميت الآية القرآنية بهذا الاسم لأنها تحمل معاني الدليل والبرهان الذي يثبت الشيء أو ينفيه، وهي في الخطب وسيلة حجاجية، يحتج بها ابن الجوزي على مسائل ربانية، بحيث يسعى من وراء هذا النوع من الحجاج لإثبات أشياء كلية مثل قدرة الله، ووجود الله، وثبوت كلامه المتمثل في القرآن الكريم، وخلقه للأرض والسماء وبما يحتويانه من معجزات، كالليل والنهار، والشمس والقمر، والصيف والشتاء، والخريف والربيع، والكسوف والخسوف، وهي أشياء كثيرة تتوزع في كل الخطب تبين أمرا ذات شأن كبير مثل عظيم قدرة الله تعالى أو وجود الله أو النهج الصحيح الذي يسير عليه المسلمين، والذي يضم أشياء جزئية كثيرة منها التقوى، الجزع، الصبر، الطاعة، تجنب المعصية، والخوف من الله وخشية عذابه.

يحتج ابن الجوزي بآيات عديدة على أمور مختلفة، بحيث نجده في إحدى الخطب يقول متحدثاً عن إرسال الله تعالى للأنبياء والرسول: "...أرسل الأنبياء بالدلائل الواضحة والبرهان، وأنزل الصحف والإنجيل والزبور والقرآن، وخص محمداً بسماع كلامه حين قال في نص القرآن: "الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ"²، فهو يذكر من خلال هذا الحديث الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى للبشر مع كتبهم السماوية، فقد أرسل إبراهيم عليه السلام بالصحف، وأرسل موسى عليه السلام بالتوراة، وأرسل داوود عليه السلام بالزبور، وأرسل عيسى عليه السلام بالإنجيل، وأرسل محمداً

¹ مكلي شامة: الآليات الحجاجية في نقائص جرير والفرزدق من خلال نقيضتيهما "سم نافع" و "إن الذي

سمك السماء"، ص416.417.

² ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص103.

عليه الصلاة والسلام بالقرآن، وهو يثبت من خلال هذه الآية رحمة الله تعالى بخاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم، بتعليمه القرآن وتلقينه إياه آية تلو أخرى، كما أنه تعالى علّمه بيانه أي معانيه وتفاسيره ووجه الإعجاز في ألفاظه وما تحمله من مدلولات إيمانية.

كما لجأ ابن الجوزي إلى الاحتجاج بآيات قرآنية أخرى، نجد من بينها قوله ذاكراً إحدى صفات الله تعالى: "... وانفرد لنفسه بالانفراد، وجعل المحدثات أفراداً وأزواجاً، ونبّه العقول لتقف على ما يقول وخاطب بقوله وناجاه " أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا "¹، كما يقول ابن الجوزي في موضع آخر من خطبة أخرى: " كل ذلك دلالة على قدرة الواحد القهار، وبرهان على نقل الأنام من هذه الدار إلى تلك الدار، ودليل يعتمد عليه أهل البصائر والاعتبار، أنه هو الخالق لهذه المخلوقات والموجد لهذه الآثار، " وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُوحَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ "²

حيث يُظهِرُ ابن الجوزي من خلال هذين القولين أمور عدة، منها أن الله تعالى اتصف بصفة الانفراد، فهو وحده عز وجل لا شريك معه في مملكته، ولا زوجة له ولا ولد، فهو جل وعلا متعالي عن الشريك وعن صفات البشر التي تصيبها العلة وتقول إلى الزوال، بينما جعل الله تعالى مخلوقاته وموجوداته أفراداً وأزواجاً، فمن الموجودات الأفراد على سبيل المثال بعض الظواهر الطبيعية كالشمس والقمر والأرض التي نحيا عليها، والسماء التي نبصرها بأعيننا، فالشمس واحدة، والقمر كذلك، وأرضنا واحدة وسماؤنا واحدة.

بينما خلق الأزواج في أمور لا تعد ولا تحصى، كسنة البشر والحيوانات في خلقها، فهي تتزوج لتعمر الأرض، كما خلق كل الأفعال مزدوجة بين الخير والشر، كالتجارة والمعصية، والكرم والبخل، والأوامر والنواهي، زيادة على ذلك فقد خلق عز وجل بعض

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص124.

². المصدر نفسه، ص121.

الظواهر الطبيعية مزدوجة، كظاهرة البرد والحر، والجفاف والظوفان، كما خلق الأسماء مزدوجة كأدم وحواء، وقابيل وهابيل، منكر ونكير، كذلك خلق الجنة والنار، والعذاب والنعيم، والظلام والضياء، إلى غيرها من الموجودات التي خلقت أزواجاً، والتي تحتاج رفيقتها لتكملها، وليحييا سوياً لا تستغني الواحدة عن الأخرى، في حين وصف نفسه عز وجل بالكمال المنزه عن الزيادة والنقصان، وبالانفراد والوحدة التي تتحقق من خلالها العظمة والجلال.

وقد أتى ابن الجوزي بهذه الآية القرآنية ليثبت القضية الإلهية التي تعرض لها بالشرح، وهي وحدانية الله تعالى وانفراده بصفاته الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد، فالآية القرآنية تقنية إقناعية ووسيلة حجاجية لجأ إليها ابن الجوزي ليمنح كلامه صدقاً وتأثيراً في المتلقي، فيزيد اقتناعاً بالقضية المطروحة، ويذعن لها، وبالتالي تزيد إيمانه قوة وتمنحه نتيجة لذلك راحة نفسية تدعوه للقيام بالفعل المرغوب فيه وهو الخضوع والطاعة، وهنا تتحقق غاية الحجاج.

كما قد لجأ ابن الجوزي إلى إقناع المتلقي بآيات أخرى من خطب أخرى، يقول في إحدى أمثله التي يتطرق فيها للحديث عن نفوس الإنسان المؤمنة منها والضالة: "... خلق النفوس المؤمنة بقدرته لخدمته وسواها، وبصرها بجميل رشدها وحذرّها بوبيل مرعاها، ... وخلق النفس الضالة وأقصاها، وصدّها وما ذكرها ولا ناداها، أمرها بخدمته فجحدت هداها، كلّمها همّت بالصلاح ردّها فسادها وبلواها، وكلّمها أنست بالفلاح صدّها خذلانها وأقصاها، فسبحان من منح تلك بقربه وأهلك هذه وأشقاها، وأشار لنا إلى ذلك في قوله: " وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا " ¹

من المعاني التي تبرز من خلال القول، أن الله تعالى قد خلق النفس البشرية لخدمته، ولكنه فرّق بينها، فمنها النفس المؤمنة السوية الراشدة التي تطيع الله وتخشاه وتتقيه، والتي بين الله لها مكانتها في الجنة، وتقابلها النفس الضالة الفاسدة والشقية، والتي صدّت عن ذكر الله، وجحدت نعمة ربها عز وجل، والتي يبين الله لها مكانتها

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص122.

في النار، وقد تطرق ابن الجوزي لهذه القضية ليبين قدرة الله تعالى وحكمته الربانية في منح الأولى قربه، وأهلك الثانية وأشقاها، كما يحتج لكلامه بالآية التي ذكرت في القرآن الكريم عن هذا الشأن، وليثبت من خلالها صدق القضية المطروحة.

1. 2. 7. الحجاج بواسطة الأمثلة:

يعتبر التمثيل أو الأمثلة استراتيجية حجاجية قام عليها مشروع ابن الجوزي الخطابي الحجاجي، بحيث سعى في ثنايا الخطب إلى بعث عديد المعاني الإيمانية، وقد تنوعت الوسائل التي أدت إلى ذلك، والتي من بينها التمثيل، إذ استعمله ابن الجوزي لغرض إثبات بعض القضايا الإيمانية وتأكيدا أو نفي أخرى، حيث إن: " كل الخطباء ينتجون الاعتقاد باستخدام الأمثلة أو الضمائر ولا شيء غيرها كحجج"¹، وقد مثل ابن الجوزي بنفسه لتوصيل بعض الأفكار الإيمانية، بحيث أسقط لها عديد الصفات الجميلة التي دعا المسلمين من خلالها وبطريقة غير مباشرة إلى التحلي بها.

فابن الجوزي الراضي بقضاء الله، والمتوكل عليه، والمخلص له في أفعاله، والمتضرع لوجهه الكريم، والتائب له من كل الذنوب والخطايا، وغيرها من الصفات، تمثل كلها مقاصداً أخلاقية سعى ابن الجوزي لإظهارها ليس بوصفها أفكارا إيمانية مجردة، إنما عن طريق تمثيلها بالأمثلة، ونسبتها لنفس ابن الجوزي الذي يعتبر شخصية جسّد هذه الأفكار، ويصير المثال نتيجة لهذا: " وسيلة تعمل على تشبيه المعاني الذهنية المجردة بالأشياء الحسية الملموسة، ومن ثم وضوحها يؤدي إلى تقريب الأفكار من العقل وجعلها مفهومة، كما يؤدي إلى إدراك المعنى وتكوين صورة له في المخيلة، ويجعل التأثير بتلك الصورة أشد من الأفكار المجردة، بالإضافة إلى ما في التصوير والتشخيص الحي من الإثارة والمتعة"².

¹ محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، ص40.

² عقيل سعيد ملازاده: الحوار قيمة حضارية، دراسة تأصيلية لمنهجية الحوار في الإسلام، دار النفائس

للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 2010، ص172. 173.

ويقوم المثل في الخطابة: "مقام الاستقراء في المنطق، أو المثل هو استقراء بلاغي، والمثل حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها، ويراد استنتاج نهاية إحداهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها"¹، بحيث سعى ابن الجوزي لتشبيه حاله بحال العبد من حيث مماثلتها في الأقوال والأفعال، وهي دعوة منه موجهة للمتلقي ليثبت من خلالها موقفه باعتباره عالماً من علماء العرب والمسلمين وقدوة لهم في أفعاله.

وقد انتبه دارسوا النص القرآني والبلاغيون العرب بالممارسة والمثاقفة إلى أهمية المثل في إحداث الإقناع، إذ جاء في البرهان في وجوه البيان لأبي إسحاق بن إبراهيم بن وهب أنه قال: "وأما الأمثال فإن الحكماء والعلماء والأدباء لم يزلوا يضربون ويبينون للناس تصرف الأحوال بالنظائر والأشكال، ويرون هذا النوع من القول أنجع مطلباً وأقرب مذهباً"²، ويشير هذا الكلام إلى نوع من القياس المضمحل الذي يعتبر وسيلة منطقية من وسائل الإقناع الذي من مميزاته أنه قياس تختفي فيه المقدمة الكبرى لتظهر الصغرى والنتيجة، فابن الجوزي العابد لله، والذاكر له تعالى، والمدرك لنعمة، وصفاته، وأفعاله، والشاكر والحامد له في جميع الظروف، يعتبر عالماً مسلماً، وهو يدعو جميع المسلمين . الذين يماثلونه في نفس الدين . للتخلي بنفس الصفات والأفعال، كما أن الله تعالى وعد عباده الصالحين والأتقياء بنيل الأجر والثواب الحسن والفوز بالجنات، إلا أن ملامح هذا القياس لم تكن واضحة الوضوح الكافي للتفصيل فيها، فاكتمنا بعنصر التمثيل الذي هو جزء منه، والواقع أن المثل: "يعتبر دعامة كبرى من دعائم الخطابة لما يحققه من إقناع وتأثير، وإذا أخذناه بمعناه الواسع الذي يشمل التشبيه والاستعارة صار أهم دعائم هذه البلاغة"³

بحيث يكمن دور التمثيل في الجمع بين المتعة والمنفعة، إذ بحضورهما واتحادهما يتضاعف الأثر على المتلقي ويذعن بما تلقاه من أفكار ومعاني إيمانية، كما صارت

¹ محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 82.

² المرجع نفسه، ص 83.

³ المرجع نفسه، ص 85.

للممثل قوة دامغة في إنتاج الإقناع اللين السلس¹، وذلك كونه يستثير المشاعر أكثر من استثارة العقل، فرؤية نتيجة الفعل الصالح على فرد معين تعزز المتلقي وتدفعه إلى الفعل المشابه، إذ يعجب المتلقي بتصرفات ابن الجوزي أو المتكلم بالخطبة، ويرى ما ناله من أجر وثواب، وما أنعم الله عليه من النعم الجمّة التي أوصلته للمقام الذي هو فيه، فيدعو هذا الأمر بالمتلقي لاتباعه في تصرفاته، حيث: "ينتج إقناعاً أكثر ليونة، إنه قوة ساطعة مداعبة للذة المترابطة بكل مقارنة، إنه الدليل في كامل قوته الخالصة"²

كما تحدث القرآن الكريم في مواقع عديدة عن الأمثال، منها قوله تعالى: "وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ"³، وكذا قوله تعالى: "وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ"⁴، وكذلك قوله: "وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ"⁵

وهو ما يبين الأثر الكبير الذي يحدثه المثل في الخطبة وبالأخص الدينية منها، بحيث تعتبر خطاباً إقناعياً بالدرجة الأولى يحدث التأثير في نفوس المتلقين عن طريق إدراك ما تحمله من معاني إيمانية على المرء فهمها والتصديق بوجودها والإيمان بها، وممارسة الفعل المترتب عليها.

يتكلم ابن الجوزي في عديد الأحيان عن نفسه فينسب إليها بعض الأفعال والعبادات والطاعات، وهو يمثل بنفسه لتقريب المعنى للمتلقي، كما أنه في سبيل مخاطبة جماعة المسلمين ودعوتهم إلى اعتبار شخصه قدوة لهم من خلال الاقتداء بأفعاله والسير على نهجه الحسن الذي تحفه أفعال الخير والصلاح، إذ للمثل علاقة باعتبار جماعة المسلمين مرسل إليه وجه لهم رسالة تجسدت من خلال نصيحة دينية، يقول: "نؤمن

¹. محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، ص40.

². ينظر: المرجع نفسه، ص151.

³. سورة إبراهيم: الآية 25.

⁴. سورة العنكبوت: الآية 43.

⁵. سورة الروم: الآية: 58.

بصفة استوائه كما وصف بها نفسه وارتضاها، وثبتت الأخبار بنزوله ونصدق قول من رواها، ونسلك طريق الكتاب والسنة لا نتخطاها، وندين بظواهر أخبار الصفات ولا نتكلف كيف ما نظم سواها، ونفقو أثر السلف ولا ندخل في إيماننا اشتباها، ونهجر اختلاف طوائف المخالفين في نصر الحق ولا نتولاها، هذه سبيل أهل النجاة فاحتفظ بها فقد خاب من ينساها، وفارق بإيمانك فرق الضلالة فإن الشيطان أَرادها¹

يعتبر ابن الجوزي نفسه قدوة للمتلقي، فهو يمثل بنفسه وينسب لها بعض الأفعال، إذ يتحدث بضمير المتكلم نحن وبصيغة المضارع المرفوع، ومن الأفعال التي تدل على ذلك قوله: "نؤمن، نصدق، نسلك، ندين، نتكلف، نفقو، ندخل، نهجر"، إذ تدعو هذه الأفعال المتلقي بطريقة ما إلى ممارستها لتحقيق النتيجة المرجوة وهي مرضاة الله تعالى والفوز بجناته، وتدور مجمل الأفعال التي أتى بها ابن الجوزي وبينها من خلال عنصر التمثيل حول:

- الإيمان بصفة استواء الله تعالى على العرش.
- تصديق الأخبار بنزول الله تعالى إلى سماء الدنيا.
- سلك واتباع طريق الكتاب والسنة وعدم تخطيها.
- تصديق صفات الله تعالى الواردة في كتابه الكريم.
- اتباع السلف الصالح.
- الابتعاد عن الشبهات في أمور الدين.
- الابتعاد عن طوائف المخالفين في نصر الحق.

ثم نجده يصرح في آخر القول بنصيحة يقوم بتوجيهها للمخاطب، أو لمتلقي الخطبة يدعوه فيها للاحتفاظ بسبيل أهل النجاة كما يبين له مصير من يخالف هذا السبيل، كما ويدعوه لمفارقة فرق الضلالة والفساد التي يدعمها الشيطان ويرديها، وهو يستعمل في ذلك أفعال الأمر المبنية على السكون، منها: "احتفظ، فارق" يقول: "هذه سبيل أهل

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص123.

النجاة فاحتفظ بها فقد خاب من ينساها، وفارق بإيمانك فرق الضلالة فإن الشيطان أرداها."

كما يقول في موضع آخر من خطبة أخرى: "نؤمن به أنه على عرشه كما أخبر في كتابه المبين، ونصدق الخبر بنزوله كما ورد في صحاح الناقلين، ونقف مع إثبات صفاته الواجبة إرغاماً لأنوف المعطلين، ونمتنع من تكيف ذاته القديمة رداً على المشبهين، ونبين بالإبطال إبطال المتأولين، هذه عقيدة أهل الحق وإياك ومذاهب المبتدعين"¹

يخاطب ابن الجوزي المتلقي ويحدثه عن مدى تقربه من الله تعالى وإيمانه به وبصفاته وبكتابه الكريم، وبمنهجه الحق الذي لا يزيغ عنه زائغ، وهو يدعو المتلقي من خلال هذا الحديث إلى سلك نفس المنهج، وذلك بعبادة الله تعالى واتباع أوامره وتجنب نواهيه، وبتحري الحلال والابتعاد عن الحرام وعن الشبهات، ومن الأفعال التي نسبها ابن الجوزي إلى نفسه قوله: "نؤمن، نصدق، نقف، نمتنع، نبين" وهي أفعال مضارعة مرفوعة جاءت بصيغة الجمع وهو يقصد بها نفسه والمؤمنين، كما يبين في آخر القول عقيدة الإسلام الصحيحة ويدعو إليها ويحذر من مذاهب المبتدعين، يقول: "هذه عقيدة أهل الحق وإياك ومذاهب المبتدعين"

كما يوظف ابن الجوزي عنصر التمثيل كوسيلة حجاجية، من أجل تحقيق أغراض إقناعية في مواضع أخرى من الخطب، بحيث نجده يتحدث عن طائفة من الناس خصهم الله تعالى بمحبته وجعلهم أولياءه، يقول: "قسّم الأنام بين سعيد بقربه وشقي بإبعاده، واختص منهم طائفة لمحبتته وولايته ووداده، فهم بين متجاف لوساده وهاجر لرقاده، كاحل لجفن عينه بعد لذيذ نومه بسهاده، وقال في نعتهم في كلامه القديم الذي

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص113.

لا ينفد، ولو كان البحر من مداده، رفيع الدرجات ذو العرش، يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده"¹

يظهر من خلال القول أن ابن الجوزي دعا للعمل الصالح باستعمال عنصر التمثيل، بحيث اختار طائفة من أختيار البشر من حيث طاعة الله والتقرب منه وجعلهم كمثال يقتدي به متلقي الخطبة، وينحصر تحت المثل الذي أورده ابن الجوزي جميع المسلمين منذ بداية البشرية حتى يومنا هذا وإلى غاية فناء الكون، شرط اشتراكهم في نفس الصفات وممارستهم لنفس الأفعال التعبدية، والتي ذكر ابن الجوزي أهمها وهي قيام الليل أي الصلاة وذكر الله والتسبيح والاستغفار والناس نيام، وقد عبّر عنها بقوله: " فهم بين متجاف لوساده وهاجر لرقاده، كاحل لجفن عينه بعد لذيذ نومه بسهاده "، وقد بين المقام أو الثواب الذي تناله هذه الطائفة من البشر واختصرها في كلمات السعادة والمحبة والولاية والوداد، يقول: " سعيد بقربه "، " محبته وولايته ووداده " إذ يندرج تحت السعادة عديد المعاني كرضا الله تعالى عن عبده الذي يخشاه ويتقيه، وينعكس هذا الرضا على العبد فيحس بالنعمة التي أنعمه الله تعالى إياها ويسعد بها ويرضى هو كذلك عن الله تعالى ويفرح بالعبادة التي يوجهها له وحده لا شريك له.

كما اختص الله تعالى هذه الطائفة بمحبته فهم يحبون الله تعالى وهو يحبهم بهدايتهم لطريق الرشاد، ويتوفيقهم للعمل الصالح ولفعل الخيرات وتجنب المنكرات، كما جعلهم الله نتيجة لحبه لهم في مكانة أوليائه، وهم خاصته الذين قال الله تعالى عنهم: " ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون "، وهم أهل التقوى والإيمان وأهل الصلاح والاستقامة على دين الله، فهم الذين يؤمنون بالله تعالى بكل جوارحهم، فلا يرون ولا يسمعون من حولهم إلا نعم الله تعالى على العبد، ودلائل عظمة وقدره الله تعالى الواسعة في مخلوقاته وموجوداته، كما إن أولياء الله هم أحبائه وخاصته من عباده الذين صدقوا في محبتهم لله عز وجل، وانعكس ذلك على سلوكهم في الحياة.

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص118.

كما وجدنا ابن الجوزي في موضع آخر من الخطب يتحدث عن النفس الإنسانية، عن المؤمنة منها والضالة، يقول: "وابتلاها فكتمت شكواها فكشف ما غطاها وأراها، وناداهما فأجابت مولاهما فوسمها بملكه واشتراها، وخلق النفس الضالة وأقصاها، وصددها وما ذكرها ولا ناداهما، أمرها بخدمته فجحدت هداها، كلما همت بالصلاح ردّها فسادها وبلواها، وكلما أنست بالفلاح صدّها خذلانها وأقصاها، فسبحان من منح تلك بقربه وأهلك هذه وأشقاها"¹

يظهر من خلال القول أن ابن الجوزي قد تحدث عن خلق الله تعالى للنفوس البشرية وتفريقه لها بين نفس مؤمنة وشقية، ويتحدد هذا الأمر من خلال النوايا الحسنة أو السيئة التي تقوم بها كلتا النفسين والتي تؤثر في سلوكيات وأفعال الإنسان، فالنفس المؤمنة هي التي تتخلى عن شهواتها وملذاتها الدنيوية لأجل تحقيق مرضاة الله تعالى، فهي التي تجتهد أبلغ اجتهاد في تصفية نواياها وتوجيههم دائماً صوب الله تعالى، والذي تخشاه وتتقيه وتسعى لنيل رضاه، وتتعكس هذه النوايا الحسنة على سلوكيات وأفعال الإنسان، فيثابر بدوره ويسعى إلى العبادات والطاعات، وفعل الخيرات وترك المنكرات، وتحري الحلال والبعد عن الحرام، وهذه النفس تدفع بصاحبها إلى طريق الصلاح ونيل رضا الله تعالى والفوز بالجنة والنجاة من النار.

أما النفس الأمامة بالسوء فهي بمثابة الشيطان، توسوس للإنسان وتدفعه لفعل المنكرات والتعدي على حدود الله من أجل غاياتها وشهواتها، وهي النفس التي سماها ابن الجوزي بالنفس الضالة، فهي نفس شقية تدفع بصاحبها إلى الهلاك وترميه في النار.

يتطرق ابن الجوزي إلى الحديث عن نفوس البشر والتي تنقسم إلى نفس مؤمنة ونفس شقية، باعتبارها معياراً تقاس عليه أفعال البشر، وقد اعتبرهما مثالين في غاية الأهمية كون كل البشر منذ خلق البشرية إلى يومنا هذا تتحكم في أفعالهم ذواتهم الداخلية الخفية التي لا يعلم مكنوناتها إلى الله تعالى، فهو خالقها ومدبر شؤونها،

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص122.

بحيث أورد ابن الجوزي مثال النفس الضالة إظهاراً منه لقدرة الله تعالى في كشفه عن هذه النفس البشرية مهما حاول صاحبها إخفاء نواياها الشريرة، وهو يدعو المتلقي من خلال هذا المثال إلى تصفية النفوس مما يعتريها من شرور وحسد ومكر وخداع وغيرها من النوايا القبيحة.

كما أنه أورد مثال النفس المؤمنة إظهاراً منه كذلك لقدرة الله تعالى العظيمة في الكشف عن هذه النفس الخيرة حتى وإن أظهر صاحبها غير ذلك، وهو يدعو المتلقي من خلال هذا المثال إلى الاقتداء بهذه النفس كي ينعكس ذلك على الأفعال والسلوكيات، وقد أظهر ابن الجوزي في آخر تفصيله في النفسين المآل أو النتيجة أو الجزاء الذي تتاله كلتاهما المؤمنة والشقية، فالله تعالى يجزي النفس المؤمنة عن حسن تأثيرها في العبد وفي المجتمع، فيمنحها حبه عز وجل وولايته ووداده، ويسكنها جناته العلا، بينما في المقابل يرى الله تعالى نوايا النفس الشريرة وسوء تأثيرها على العبد وعلى المجتمع فيبعدها عنه وعن نعيمه وعن جناته، ويسكنها الدرك الأسفل من النار، يقول ابن الجوزي: " فسبحان من منح تلك بقربه وأهلك هذه وأشقاها "

كما نجد ابن الجوزي في عديد المواضيع يمثل بنفسه فينسب لها مجموعة من الأفعال التعبدية، وذلك من أجل تحفيز المتلقي ودعوته للعمل الصالح، ذلك أن العلماء بمكانتهم العلمية الرفيعة وبمستواهم الثقافي والديني الكبير يمثلون قدوة للمتلقي، فيمثلون بأنفسهم لا لسرد أفعالهم إنما دعوةً منهم المتلقي للاحتذاء بها والسير على نهجهم، وأن يمثل متلقي الخطاب خير خلف لخير سلف وهم علماء الدين ورافعوا راية الإسلام والتوحيد.

استغلّ ابن الجوزي تقنية التمثيل أو الأمثلة واعتبرها استراتيجية حجاجية، بحيث سعى من خلال مجمل الأمثلة التي قمنا بإيرادها في هذا الجزء من البحث إلى إثبات عديد القضايا أهمها قضية وجود الله تعالى، ووحدانيته، ونزوله إلى سماء الدنيا، كما دعا إلى إثبات صفاته الممثلة في أسمائه الحسنى، كما سعى إلى الدعوة لعقيدة أهل الحق وتجنب مذاهب المبتدعين، كما استغلّ استراتيجية الحجاج بالتمثيل إلى إقناع

المتلقي بحقيقة الثواب الذي يناله عباد الله وأتقياء الرحمن جراء تحريمهم للخير والصالح، وقد أكد على وجه الخصوص الأجر الذي يناله العبد من قيامه الليل بالصلاة والتسبيح والاستغفار عن طريق التمثيل بطائفة من البشر خصّهم الله بمحبته وولايته، كما وسعى من خلال عنصر التمثيل إلى إقناع المتلقي بضرورة تطهير النفوس من كل ما يعترىها من شرور ومكائد، وتحري الحلال والسعي لتحقيق مرضاة الله تعالى، وعدم مجارة شهوات النفس الأمارة بالسوء.

1. 2. 8. الحجاج بواسطة التكرير:

استغل ابن الجوزي الوسيلة اللغوية المتمثلة في التكرير وجعلها وسيلة حجاجية لها صلة كبيرة بعنصر التأثير وتحقيق الإقناع على مستوى الخطب، بحيث يساهم التكرار في إظهار المعنى العام أو الغرض العام الذي تدور حوله كل الخطب، وهو التعرف على الله تعالى، ويتفرع هذا الموضوع إلى وحدات صغرى توفرت في مجموع الخطب الثلاثين، وتتجسد حقيقة التكرار في الخطب في كون هذه الوحدات الصغرى التي تتمثل في الموضوعات الثانوية يتكرر ذكرها في أكثر من خطبة، ولم يحصل هذا الأمر عبثاً، بل سعى من خلاله ابن الجوزي لتحقيق غاية تتمثل شكلياتها في إظهار الأهمية التي تنتقى من وراء الموضوعات، وذلك كونها تحمل عديد القضايا الدينية المهمة التي ينبني عليها الإيمان بالله وبوجوده وبقدرته وبصفاته.

احتج ابن الجوزي بالتكرير، وعدّه وسيلة حجاجية من خلال إلحاحه في الخطب وتركيزه على إيراد موضوعات أو ألفاظ أو عبارات وتكريرها في أكثر من خطبة، حيث يؤدي هذا التكرار إلى ترسيخ الفكرة وإقناع المتلقي بصدق هذه القضايا، وينجر عن هذا استيعاب المتلقي للأفكار التي تحملها، فتعزز في ذهنه، ويتم الاقتناع بها وقبول حقيقتها عن طريق مختلف الأدلة التي أضمّرها ابن الجوزي في ثنايا الخطب، وبالتالي تدعوه للأخذ بها وتدفعه للعمل بها، وقد عرض لنا ابن الجوزي من خلال الخطب عدة أوجه للتقرب من الله احتوت في مضمونها رسالة لعباد الله تحثهم على العمل الصالح وتدعوهم لحب الله وخشيته وعبادته.

اعتبرت الخطب وسيلة تواصلية بعث بها ابن الجوزي لجمهوره القريب والبعيد يوجهه من خلالها إلى اتباع النهج الصحيح والسير على منوال السابقين من المؤمنين، وقد أظهرت عديد العبارات في الخطب هذا الأمر منها قوله: [هذه عقيدة أهل الحق وإياك ومناهج المبتدعين، هذا مذهب أهل الحق وإياك وفرق الضلالة وما ابتدعت] ، وقد سعى ابن الجوزي إلى أن يحصل لدى المتلقي اقتناع تام بالموضوعات التي أوردها في خطبه، من خلال اتخاذ التكرار وسيلة توصله إلى ذلك، وذلك عن طريق الإكثار إيراد الأمثلة التي تظهر قدرة الله تعالى التي لا تضاهيها قدرة، كذلك من خلال الإكثار من إيراد أسماء الله الحسنى وصفاته العلى والتفصيل فيها، وذلك: " ليفهم من يبعد فهمه ويعلم من قصر علمه "¹، وقد ظهرت في الخطب عدة أوجه للتكرار منها تكرار الموضوعات، وتكرار الأسماء أو الصفات، وتكرار العبارات.

1. 2. 1. التكرير في الموضوعات:

يقوم ابن الجوزي بتكرير عديد الموضوعات في الخطب، ذلك أنه حين تصنيفنا لموضوعات الخطب لاحظنا حضور تلك الموضوعات في أكثر من خطبة، بحيث يقوم ابن الجوزي بتكرار بعض الموضوعات لغرض إظهار قيمتها، فتكرار الفكرة نفسها يولد لدى المتلقي اقتناع بحقيقتها وكذا تثبيتها في الذاكرة، فتكون صوب عينيه، وبالتالي تتجر عنها ردة فعل حسنة كالعامل بما جاءت به من أفكار وتحويلها إلى سلوكيات جيدة ينتفع بها المتلقي.

كل الموضوعات التي صنفناها كوحدات صغرى أو ثانوية يقوم ابن الجوزي بتكرار ذكرها في أكثر من موضع من الكتاب، ومجمل الموضوعات كانت حول ذكر صفات الله تعالى، إظهار قدرته تعالى في خلق وتسيير الظواهر الطبيعية، إظهار قدرته تعالى في خلق البشر، إثبات وجود الله تعالى وقدمه ووحدانيته وأبديته، إذ لا تلتزم كل خطبة بموضوعها الخاص، بل تتوزع هذه الموضوعات على طول الخطب، أي إن الموضوع

¹. مصطفى البشير قط: مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم، دار اليازوري العلمية، الأردن،

نفسه يتكرر ذكره في أكثر من خطبة، لكن بمعطيات جديدة وأساليب مغايرة يتحرى فيها ابن الجوزي دقة المعاني وحسن ملاءمتها للألفاظ وللإستراتيجية التي انتهجها في خطبه.

فصفات الله تعالى كثيرة ومتعددة ولها معاني لا تعد ولا تحصى، وأسلوب ابن الجوزي في الكتابة يقتضي منه التطرق لهذه الصفات والتفصيل فيها والإسهاب في شرحها، كما إن قدرة الله تعالى في خلق وتسيير الظواهر الطبيعية عظيمة لا تضاهيها قدرة، ومعطياتها الكونية عظيمة بعظم هذا الكون الواسع الذي خلقه الله تعالى وأبدع في تصويره وتسييره، فقدرته تعالى تظهر في الشمس وفي القمر، في الليل وفي النهار، في الشتاء وفي الربيع، في الظلام وفي الضياء، في النبات وفي الشجر، في الحرث وفي الزرع، في الزهر وفي الحجر، في السهل وفي الجبل، وهذا الكون بكل هذه المعطيات تمنح الناظم مادة خصبة وثرية تدعوه للحديث عنها وإظهار جمالها، وهو في الحقيقة جمال الله تعالى الذي أودعه في موجوداته ومخلوقاته.

ومن خلال هذه الموجودات وتلك المخلوقات التي خلقها الله تعالى وعمر بها الأرض، من إنسان وحيوان ونبات وشجر، تظهر قدرته العظيمة وملكوته الواسع، فأثبات وجود الله تعالى وقدمه ووحدانيته وأبديته يعتبر موضوعاً في حد ذاته، بحيث تكرر في الخطب عرض ابن الجوزي لمجموعة من الدلائل التي تثبت وجود الله تعالى والتي صاغها في عبارات حجاجية مخصصة، كما تثبت قدمه وأبديته.

ويرتبط هذا الموضوع إلى حد ما بالموضوع الذي سبقه وهو قدرة الله تعالى في خلق وتسيير الظواهر الطبيعية، ذلك أن مجمل الدلائل التي صاغها ابن الجوزي لإثبات وجود الله تعالى وقدمه وأبديته تتلخص في المعطيات الكونية والظواهر الطبيعية التي تحدثنا عنها آنفاً، فالكون الواسع والعظيم الذي يحيط بالإنسان يقتضي وجود رب أعظم منه وإلها يستحق العبودية والتقرب منه لشكره على النعم التي سخرها للإنسان، كما أن تسيير هذا الكون دون توقف ليلاً ونهاراً، ظلاماً وضياءً يقتضي رباً " لا تأخذه سنة ولا

نوم¹، فهو تعالى السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية ولا يدخل عليه نقص أو علة.

1. 2. 8. 2. التكرير في الأسماء والصفات:

يقوم ابن الجوزي في هذا النوع بتكرير ذكر صفات الله تعالى في مجموع الخطب التي أوردت أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، أي أن هذا التكرار قد حصل على مستوى الألفاظ والأسماء على نقيض النوع الأول الذي حصل فيه التكرار على مستوى الموضوعات أو المعاني، ويؤول هذا التكرار من وجهتين، الأولى أن ابن الجوزي قد أورد صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى في أكثر من خطبة، يقول في الخطبة الثانية وهو يتحدث عن الله تعالى: "... غافر الزلل، وسائر الخلل، ومقدر الأجل، ورافع العمل، الكريم الحليم الماجد، خالق الخلائق، ومرسي الشواهد، الكريم الرازق، الفائق الراق الصمد، القيوم الواحد الفرد من غير عدد، القديم وجوده أول كل أحد، الحي لا إلى انتهاء وأمد، المتعالي عن المساعدة والنصرة والمدد، المنزه في وحدانيته عن وجود الزوجية والوالد والولد..."².

كما تحضر صفات أخرى في الخطبة الرابعة، يقول ابن الجوزي عن الله تعالى: "... الحي بحياة منزهة عن عوارض الآفات والخطر، العالم فسيان في علمه ما بطن وما ظهر، المرید لإيمان من آمن وكفران من كفر، القاضي بما شاء فكل جار في خلقه بقضاء وقدر، السميع لهدير الحمام على متون الشجر، البصير بحركات الذر في سواد الليل إذا اعتكر..."³.

كما أورد ابن الجوزي في الخطبة العاشرة بعض صفات الله تعالى والتي يرفقها دائماً بتفصيل بسيط نجد منها قوله: "... الجواد فلا يبخل، الحليم فلا يعجل، القديم الذي ليس له بداية، والأول الباقي الذي لا يغني ملكه ولا يتحول، موضح الدلائل على

¹ سورة البقرة: آية الكرسي.

² ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص101.

³ المصدر نفسه، ص103.

وحدانيته، ومن يشك فليتأمل، وموعد عباده بالعطايا السنوية ومن أحب فليعمل، ومستدعي خواص خلقه فمن طلبه لم يكسل... المؤلف عطاؤه... المخوف عذابه....¹

نستخلص من هذه الأقوال أن معظم الخطب التي احتواها كتاب ابن الجوزي تشتمل على صفات الله تعالى وأسمائه الحسنی، بحيث يقوم ابن الجوزي بتكرار إيراد عديد الصفات في أكثر من موضع من الكتاب، أو في أكثر من خطبة، ومجمل الصفات التي يكرر ابن الجوزي ذكرها هي: الغفار، الأول، الآخر، القادر، المريد، القاضي، العالم، البصير، السميع، المتكلم، الخالق، المحيي، الشافي، الفاعل، الباقي، الحي، الملك، الكريم، الرازق، القديم، وتكرارها محمود في الخطب، ذلك أنه يقوم بالتعريف بالله تعالى من خلال ذكر صفاته والتفصيل فيها، كونها تدل على كمال الله المطلق من كافة الوجوه.

كما يكمن دور التعرف على صفات الله تعالى في زيادة الإيمان بالله تعالى، فمعرفة الله تعالى تدعو إلى محبته، وخشيته، والخوف منه، وإخلاص العمل له، ولا سبيل لمعرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته، والحرص على فهم معانيها، وهذا عين سعادة العبد، فبحسب معرفة العبد بربه يكون إيمانه، إذ كلما ازداد معرفة بالله ازداد إيمانه به عز وجل، وكلما نقصت معرفته بالله تعالى نقص الإيمان به، وأقرب طريق يوصله إلى ذلك تدبر صفاته وأسمائه سبحانه وتعالى.

كما تشتمل صفات الله تعالى وأسمائه، على أفعاله عز وجل في خلقه وفي موجوداته وفي الكون بأسره، فأفعاله عز وجل دائرة بين العدل والفضل والحكمة، حتى إن العارف به حق المعرفة يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله، وعلى ما يشرعه من أحكام، لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته.

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص110. 111.

بالإضافة إلى هذا فإن ابن الجوزي يقوم بإثبات تلك الصفات عن طريق تكرار ذكرها، ذلك أن التكرار يبرز قدرة الناظم في التلاعب بالألفاظ والعبارات من حيث التعبير عن الفكرة الواحدة بعدة كلمات تناسب الاستراتيجية التي انتهجها ابن الجوزي في نظمه للخطب.

أما الوجهة الثانية التي يؤول منها التكرار فهي كون ابن الجوزي يقوم بتكرار صفة واحدة ومعلومة لا مجموعة من الصفات، وذلك على مستوى الخطب، إذ مما لاحظناه في الخطب التي تحضر فيها أسماء الله الحسنى وصفاته العلى أنه يعيد ذكر صفة معينة في أكثر من خطبة، إلا أنه يفصل في هذه الصفة ويتبعها بشرح مبسط يظهر فيه معانيها المتعددة، ويمكن البراعة في هذا الأمر يكمن في تنويعه في هذا التفصيل من حين إلى آخر، ولكي يتضح الأمر أكثر، يقول ابن الجوزي في إحدى الخطب: "الحي لا إلى انتهاء وأمد"¹ "الحي بحياة منزهة عن عوارض الآفات والخطر"²، "الحي لا بطبائع وحدثان"³، "الحي بغير أمزجة ولا طبائع"⁴ فكل العبارات الأربع تشتمل على صفة واحدة أو اسم واحد من أسماء الله الحسنى، وهو [الحي] إلا أن التفصيل في هذا الاسم أو الصفة هو الذي طرأ عليه التغيير والتنويع.

ونفس الأمر قد حدث مع اسم السميع وأسماء أخرى كثيرة، يقول ابن الجوزي في موضع آخر من الخطب: "السميع لهفيف الورق على الأغصان"⁵، "السميع لهدير الحمام على متون الشجر"⁶، "السميع لاختلاف نغم هديل الحمام"⁷، بحيث قام بتكرار اسم الله تعالى المتمثل في [السميع] إلا أنه أحدث تغييراً على مستوى شرح معانيه

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص101.

². المصدر نفسه، ص103.

³. المصدر نفسه، ص102.

⁴. المصدر نفسه، ص109.

⁵. المصدر نفسه، ص102.

⁶. المصدر نفسه، ص103.

⁷. المصدر نفسه، ص131.

وعلى المواضيع التي تصلح فيه، وكل هذا لغرض إحداث المتعة لدى القراءة والتي تتزاج مع المنفعة التي يحصلها المتلقي من معرفته بالمعاني المتعددة التي تحملها صفة واحدة من صفات الله تعالى، أو اسم واحد من أسمائه، وهو ما يبين أن التكرار الذي لجأ إليه ابن الجوزي تكرر محمود وقع على مستوى الأسماء أو الصفات.

ومن الرسائل التي يوجهها ابن الجوزي للمتلقي من خلال إيراد صفات الله تعالى وأسمائه الحسنی وتكرار ذكرها في أكثر من خطبة، هي دعوة هذا المتلقي للسعي للاتصاف بهذه الصفات على ما يليق به لأنها صفات كمال، كالرحمة والعفو والعلم ونحوها من الصفات التي تليق للعبد الاتصاف بها، إلا أن عديد الصفات الأخرى تكون خاصة بالله تعالى ولا سبيل للمتلقي في الاتصاف بها، كما أن معرفة صفات الله تعالى تجعل المرء يعلم ما اتصف به الرب عز وجل من صفات الكمال، التي تجعله إلهاً معبوداً منزهاً عن صفات النقص التي تتصف بها المعبودات المخلوقة التي بين الله تعالى نقصها في كتابه عز وجل، ولذلك رأينا الله عز وجل يستدل بأفعاله في كتابه كالخلق والرزق والإحياء والإماتة والنفع والضر على استحقاقه للألوهية.

كما إن معرفة صفات الله تعالى تورث العبد ذلاً وخضوعاً وانكساراً، لأنه يستصغر نفسه عندما يعلم هذه الصفات العظيمة ويقارنها بصفاته الناقصة، فهو فقير وجد من العدم يموت وينام ويغفل ويجهل ويمرض ويجوع.

1. 2. 8. 3. التكرير في العبارات:

عادة ما يقوم ابن الجوزي بتكرير بعض العبارات في الخطب والتي تمركزت بالتحديد في آخر الخطب أو في الاختتام، وقد تكررت هذه العبارات تقريباً في معظم الخطب، ما دعانا إلى تسميتها باللوامز فقد لزمنا تقريباً كل اختتام الخطب، ومجموع الخطب التي توفرت فيها هذه اللوامز في نهاية اختتامها هي ثلاثة عشر خطبة من أصل ثلاثين خطبة، وقد جاءت هذه العبارات على صور ثلاث هي: "وسلم وشرف وكرم"، " وشرف وكرم وعظم"، " وشرف وكرم"

يقوم ابن الجوزي بتكرار إيراد العبارات الثلاث في معظم نهايات الاختتام، إلا إن أكثر العبارات انتشاراً في الخطب هي التي تأتي على صورة " وشرف وكرم "، فهي التي يكثر ابن الجوزي من توظيفها، إذ برزت في إحدى عشر خطبة من مجموع الخطب الثلاثة عشر التي تحتوي على هذه العبارات، فتارة ترد على الصورة التي ذكرناها، وتارة يضيف لها ابن الجوزي لفظة " وعظم "، أو لفظة " وسلم "، إلا أننا عادة ما نجده يغيرها في الخطب التي غيب فيها الحروف المكوّنة لهذه العبارات، فإما أنه يتخلى عنها نهائياً أو أن يستبدلها بعبارات أخرى توافق مقتضى حاله.

أضفت العبارات التي وظفها ابن الجوزي في أواخر بعض الخطب جمالية فائقة على الخطب لكون معانيها مخفية إذ لم يصرّح بها ناظم الخطبة التصريح الكافي بل تركها للمتلقي لاكتشافها، كما إن ما ساعد جماليتها على البروز، عنصر التكرار فيها، بحيث أثبت التكرار وجودها وزادها ظهوراً، كما إنه بغض النظر عن ما تحمله من معاني دينية سامية فإنه قد أكسبها قيمة بلاغية خاصة ونغما موسيقياً عذباً اكتسبته جراء تشابه ألفاظها في الوزن والحركة الإعرابية، فيصبح التكرار من خلال هذا وسيلة حاجية وظفه ابن الجوزي لتقوية بعض المعاني وإضفاء الجمالية على الخطبة التي تستميل المتلقي وتدفعه للتصديق بما جاءت به من معاني وما تحمله من رسالات للمتلقي ذات مضامين دينية.

يتبين من خلال هذا أن ابن الجوزي قد تطرق إلى التكرار في مجموعة خطبه لالعة أصابته أثناء نظم الخطبة، إنما لتحقيق غاية حاجية سعى إليها في مجمل الخطب، فالتكرار أحد الوسائل المتبعة للولوج إلى العقل الباطن من أجل إحداث تغيير في العادات أو الاعتقادات، بحيث يستقبل عقل الإنسان . إن ضربنا المثال بموضوعات الخطب . موضوعاً محدداً، يتكرر في كل خطبة، فيؤثر هذا الأمر في ذهنه، عن طريق تأكيده وتثبيته وتعظيم شأن ذلك الموضوع بمعطياته المعروضة، وكذا تقوية المعاني الإيمانية التي تتضمنها الخطب وإبراز أوجهها الدينية والتعبدية وإعلاء ذكرها كي يتسنى للمتلقي الاعتبار بها، من هنا تظهر الوظيفة الحاجية للتكرار في تأكيده

للمعاني وتثبيتها في ذهن المتلقي، زيادة على هذا فإن لكل تكرار سواء في الموضوعات أو في أوجه أخرى في الخطب فوائده الخاصة، إذ يبين في كل موضع منها من الاعتبار والاستدلال نوعاً غير النوع الآخر، وذلك كون ابن الجوزي يضيف في كل مرة يورد فيها موضوعاً ما معطيات جديدة ومعاني من وجهات مغايرة، وإن ضربنا المثال بأسماء الله الحسنى فإننا نجد ابن الجوزي يقوم بتكرارها لكن يقوم بصياغة شروحها وتقاسيرها في صور جديدة غير الصور الأولى التي قام بعرضها، كما أن الله تعالى يسمي نفسه جلّ وعلى بأسماء متعددة ولكل اسم دلالات ومعاني مختلفة عن الاسم السابق، كما إن للتكرار على مستوى العبارات شأن كبير ومهم في الخطب، بحيث لجأ إليه ابن الجوزي لما تحمله العبارات من أهمية في بناء لغة الخطبة وإظهار معانيها البلاغية والحجاجية.

2- العلاقات الحجاجية في الخطب:

ظهرت في ثنايا الخطب، بعض العلاقات التي تربط بين معاني الخطبة وبين المقصد الذي سعت إليه أي المقصد الحجاجي، من هذه العلاقات نجد العلاقة السببية وعلاقة الاقتضاء اللتين ترتبطان بالمتلقي من حيث درجة إقناعه، وتتمثل هاتان العلاقات فيما يلي:

2. 1. العلاقة السببية:

يمكن أن نعتبر العلاقة السببية هي العلاقة الأهم في الخطب، ذلك أن الخطبة بما تحويه من معاني إيمانية تنحصر حول معرفة الله وإدراك قدرته وملكوته في الأرض والسماء، وتفصيلها في خلق الكون والإنسان والوجود، تمثل أسباباً تؤدي بالمتلقي إلى إدراك عظمة سلطان الله تعالى على الأرض والعباد، كما تؤدي إلى تمسك المتلقي بمنهج الله تعالى العادل، والذي يحكم به البشر دون ظلم أو عدوان، وبالتالي زيادة عبادة الله والتقرب منه لنيل جناته.

إن العلاقة السببية تربط بين المرسل والمرسل إليه، وبالتحديد بين ناظم الخطبة وملتقيها، إذ يوجد الناظم في الخطبة سبباً يؤدي إلى حصول نتيجة معينة لدى الملتقي، إذا ما لقيت الخطبة صدى وتأثيراً لديه، إلا أن الناظم في الخطبة يوجد النتيجة بنفسه استناداً منه إلى ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم، وما وعد به عباده الصالحين من أجر وثواب، أو ما توعدهم من عقاب وعذاب.

وتعني هذه العلاقة " بجعل موقف معين سبباً مباشراً لموقف لاحق"¹، وهذا ما يتلاءم مع مساعي ابن الجوزي من وراء نظمه للخطب، بحيث حاول عرض مجموعة أسباب تجعل ملتقي الخطبة ينال رضا الله تعالى أو سخطه إذا ما هو أخذ بها أو أعرض عنها، فالخطبة تضع بين يدي الملتقي حالته إذا ما هو اتبع أقوال ناظم الخطبة، ومن هنا تتحدد السببية التي تتحكم في توليد النتائج التابعة حتماً للأسباب الخاصة بها. ففي العلاقة السببية تحضر النتيجة لحضور السبب وتغيب لغيابه.

نلاحظ من خلال الخطب حضور معظم أمثلة العلاقة السببية في افتتاحاتها، بحيث يقوم ابن الجوزي بحمد الله وشكره، ثم يقوم بإيراد السبب الذي دعاه لحمد الله تعالى، وهو في ذلك إما يفصل في نعم الله تعالى على العبد، أو يقوم بالتفصيل في أسماء الله الحسنى وصفاته العلى التي تمثل في فحواها قدرة الله تعالى وأفعاله في الأرض والسماء، والتي تعود بالنفع على العباد من حيث خلقهم وأخلاقهم وأرزاقهم وكذا تعليمهم أسس الدين الحنيف ومعاملاتهم مع الناس وما يصلح حالهم ومآلهم، وفي كل ذلك حجة للمتلقي للتحلي بالعمل الصالح الذي يؤدي إلى النتيجة الحسنة وهي رضا الله تعالى عليه وفوزه بالجنات العلى، كما أنها دعوة للمتلقي إلى اتخاذ الأسباب المذكورة في الخطب لنيل النتائج المذكورة كذلك، وللتفصيل في هذه العلاقة نورد بعض الأمثلة منها والتي هي موضحة فيما يلي:

¹. ينظر: سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن، 2008، ص327.

يقول ابن الجوزي في افتتاح إحدى الخطب: " حمدت ربي على نعمته حمد معترف بتقصيره في خدمته "1، بحيث تظهر العلاقة السببية من خلال:

. السبب: ويتمثل في تقصير العبد في حق الله مع إنعام الله تعالى عليه.

. النتيجة: وتتمثل في حمد العبد لله تعالى، فرغم تقصير العبد في خدمة ربه مع عدم حرمان الله تعالى عبده من فضله الواسع وعدم قطعه إياه سبل الرزق ومنحه من خيره الواسع، سبب يؤدي بالعبد إلى حمد الله تعالى وتوجيه كل الشكر له عز وجل.

كما تظهر العلاقة السببية في مواضع أخرى عديدة نذكر منها قول ابن الجوزي: " الشكر لله الذي خلق الأرض والسماء، وأرسى الجبال وأجرى الماء "2، بحيث تظهر العلاقة في:

. السبب: ويتمثل في خلق الله للأرض والسماء وإرساء الجبال وإرسال الماء.

. النتيجة: وتتمثل في شكر العبد لله تعالى، وكأن ابن الجوزي يقول أنا أشكر الله تعالى لأسباب عديدة منها أن الله تعالى قد خلق الأرض التي نعيش فيها ومن خيراتها، وخلق السماء التي نستضيئ من نورها وتهطل منها أمطار الخير والأرزاق، وأرسى الجبال التي هي أعمدة للأرض ومراكزها، وأجرى الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي.

كما يقول ابن الجوزي في موضع آخر من الخطب وفي سياق حمد الله: " الحمد لله خالق النجوم والشمس والقمر، ورازق الوحوش والطيور والبشر "3، إذ تظهر العلاقة السببية في:

. السبب: ويتمثل في خلق الله تعالى للنجوم والشمس والقمر، وتقسيم الأرزاق على الوحوش والطيور والبشر.

1. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص100.

2. المصدر نفسه، ص106.

3. المصدر نفسه، ص103.

. النتيجة: وتتمثل في حمد ابن الجوزي الله تعالى، أي أن نتيجة الحمد جاءت جراء سبب الخلق والرزق، فابن لجوزي يقوم بحمد الله تعالى بسبب نعمه التي عمّت كل الموجودات، والتي تمثلت في خلق الكون الذي نعيش فيه بما يحتويه من نجوم وشمس وقمر، وكذا تقسيم الأرزاق على العباد وعلى كل المخلوقات.

كما نلاحظ حضور العلاقة السببية في قول ابن الجوزي: " الحمد لله غافر الزلل، وسائر الخلل"¹، إذ يتمثل طرفيها في:

. السبب: وهو غفران الذنوب وستر العيوب

. النتيجة: وهي حمد الله، وفيها يقوم ابن الجوزي بتوجيه الحمد لله تعالى لكونه عز وجل غفار الذنوب وستار العيوب، وهو يمثل ههنا سبباً أدى إلى النتيجة المذكورة.

نستنتج من خلال الأمثلة المذكورة أنها تشترك في نفس النتيجة وهي حمد الله، إلا أن أسبابها تختلف وتتعدد، لكن تصب مجملها في محور واحد وهو إظهار قدرة الله في الأرض والسماء، وخلق له لكل الموجودات والآثار على هذا الكون، وكلها نعم ومنن ينتفع بها الإنسان بالدرجة الأولى كونه المحور الأساس لهذا الكون، والذي خلق لتعمير الأرض وخدمتها، وهذا يظهر من خلال عديد العبارات التي أوردها ابن الجوزي في الخطب، والتي تختصر بدورها العلاقة السببية التي دارت حول حمد الله على النعم، نذكر منها قوله: " أشكره على ما أنعم به وألهم"²، " أحمده على الإنعام المتتابع"³، " أحمده على نعمه السابغة الغامرة"⁴.

كما نجد من العلاقة السببية والتي خارج سياق الحمد قول ابن الجوزي: "... وقرب من بخدمته وطاعته اهتم، وخصّ بأوامره من بباب طاعته ألم، غافر الزلل، وسائر

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص100.

². المصدر نفسه، ص109.

³. المصدر نفسه، ص110.

⁴. المصدر نفسه، ص105.

الخلل، وقابل العمل، وكاشف الغم، خالق الأمم، ومحيي الرمم، وشافي السقم¹، إذ تظهر العلاقة السببية في ثنائيتي:

. السبب: ويتمثل في أن الله تعالى يغفر الذنوب، ويستر العيوب، ويكشف الهموم، ويقبل الأعمال، ويشفي الأسقام.

. النتيجة: وتتمثل في القرب من الله من خلال الاهتمام بطاعته واتباع أوامره والابتعاد عن نواهيه، إذ وجب على العبد القرب من الله وخشيته وتوجيه العبادة له وحده بسبب كون الله عز وجل وحده الذي يتغاضى عن أخطائنا وزلاتنا فيسامحنا عليها، كما أنه تعالى وحده الذي يزيل عن العبد همومه بعدم اتباع الدنيا الفانية وملذاتها وتوجيه الأعمال والنوايا لله عز وجل للفوز بالآخرة، كما أنه تعالى وحده الذي يشفي الأسقام التي تعترى الإنسان ويجعل فيها تطهيراً للنفس ومحوراً للسيئات.

كما تظهر ملامح العلاقة السببية في موضع آخر من الخطب، وذلك في قول ابن جوزي متحدثاً عن عظمة الله تعالى وهيبته عند العباد: "المخوف عذابه ومن خشي أليم عقابه تذلل"²، وهي موضحة من خلال ثنائيتي:

. السبب: والذي يتمثل في خشية العباد لعقاب الله تعالى وعذابه.

. النتيجة: وتتمثل في تذلل العبد لله تعالى، فالتذلل الذي يشعر به العبد تجاه خالقه أتى نتيجة لخوف هذا العبد من ربه ومن شدة عقابه، ونار جهنم والعياذ بالله أكبر دليل على هذا.

إذن، تحضر العلاقة السببية في مجموع الخطب بقدر لا بأس به، ذلك أن ابن الجوزي وفي جميع الخطب نجده يقوم بعرض نعم الله تعالى على العبد والتي عددها وفصل فيها، والتي تحيط بالإنسان من جميع مناحيه، فهي في الأرض والسماء، وفي ماضيه ومستقبله، وفي حياته وبعد مماته، وكل هذه النعم تعتبر أسباباً أدت بآبنا

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص108.

². المصدر نفسه، ص111.

الجوزي إلى ذكرها وحمد الله عليها، وهو يدعو من خلال هذا المتلقي إلى توجيه كل الشكر لله وحده، والشكر هنا نتيجة للسبب المتمثل في نعم الله المحيطة بالعبد، كما أن طاعة الله وخشيته جاءت في عديد المرات نتيجة لأفعال الله تعالى في الأرض، من حيث رأفه عليهم، فهو أحن بعبده من الأم على ولدها، وهذا ما يستحق من العبد أن يوجه كل حواسه ونواياه وأعماله لطاعة الله عز وجل وعبادته حق عبادة.

2.2. علاقة الاقتضاء:

ما يعرف عن هذه العلاقة أنها: "تجعل الحجة تقتضي النتائج اقتضاءً والعكس صحيح، بحيث تغدو العلاقة ضرباً من التلازم بين الحجة والنتيجة"¹، ويمكن الفرق بين هذه العلاقة والعلاقة السببية، أن الأخيرة لا يستلزم فيها حضور النتيجة بحضور السبب، إذ يحدث أن يوجد السبب ولا توجد النتيجة، بينما علاقة الاقتضاء علاقة إلزامية، حيث توجد النتيجة حتماً بوجود السبب

ومن أمثلة علاقة الاقتضاء في الخطب قول ابن الجوزي: "من عدل عن خدمته أصبح بصارم عقوبته قتيلاً، ومن أعدل بصدق طاعته نال عند رجعته ظلاً ظليلاً، ومن استروح اليوم بمعصيته حمل يوم محاسبته حملاً ثقيلاً، ومن أعرض عن سلامته حضي بندامته يوم تكون الجبال كثيباً مهيباً"²، إذ يعرض ابن الجوزي من خلال القول مجموعة حجج تؤدي إلى مجموعة نتائج، والتي سنوضحها في الجدول التالي:

¹ سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ص335.

² ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص125.

النتائج	الحجج
نيل العقاب من الله، وحدده بالقتل.	العدول عن خدمة الله
نيل ثواب الجنة، وحدده بالظل الظليل.	صدق الطاعة لله
الحمل الثقيل يوم الحساب، ومعناه الذنوب	مأ الفراغ بمعصية الله
الشعور بالندامة يوم العرض.	الابتعاد عن دين الله الإسلام

فبعد العبد عن خدمة الله أو عبادة الله يؤدي به إلى نيل العقاب من الله، وبالتحديد القتل، وقد يقصد به القتل في جهنم بمعناه الموت والحياة في سعيها، أو القتل بمعناه المجازي، فالحياة من دون الله كالموت، أما توجيه الطاعة لله بكل الجوارح فإنه يؤدي إلى نيل الثواب من الله بالجنة والتمتع بظلها الظليل يوم لا ظل إلا ظله، كما أن مأ فراغ العبد بمعصية الله يؤدي إلى حمل الأوزار والذنوب يوم القيامة، وبالتالي فإن الابتعاد عن دين الله الإسلام، وعن السلامة فإنه يؤدي بالعبد إلى الشعور بالندامة والحصرة يوم يواجه ربه، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المسلم من سلم المسلمين من لسانه ويده" متفق عليه، والإسلام دين السلام ودين السلامة، فلا يؤذي المؤمن أخاه المؤمن ولا يجرحه ولا يرى منه فعل السوء، وهذه هي السلامة.

كما إن من أمثلة علاقة الاقتضاء في الخطب قول ابن الجوزي: "من عطل صفاته أثم، ومن مثل ذاته ندم، ومن نزه جلاله سلم، ومن طلب النقل علم، إن هذه عقيدة أهل السنة الأخيار"¹، وقد قدّم ابن الجوزي كذلك مجموعة من الحجج التي تؤدي حتماً إلى مجموعة من النتائج نوردها من خلال الجدول التالي:

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص107.

النتائج	الحجج
ارتكاب الذنوب والآثام	عدم التصديق بصفات الله تعالى
الندامة يوم يقوم الحساب	إسقاط صفات البشر على الله تعالى كتمثيل صفة استوائه على العرش بالجلوس أو الالتكأ والعياذ بالله
السلامة يوم يقوم الحساب	الإيمان بكمال الله تعالى المنزه عن النقص
تعلم دين الله ومنهجه الصحيح	طلب العلم والتفقه في الدين

نلاحظ من خلال القول تركيز ابن الجوزي على إحدى الموضوعات التي تطرقت إليها الخطب وهي ذكر صفات الله، إذ قام بعرض بعض الأسباب والنتائج التي تصب في الموضوع نفسه، بحيث يؤدي عدم الاعتراف بصفات الله تعالى وإنكارها إلى ارتكاب الذنوب والآثام التي تؤدي بصاحبها إلى الانغماس في النار، كما إن تمثيل صفات الله تعالى يؤدي إلى المآل عينه، ذلك أن صفات الله تعالى تختلف عن صفات البشر بكمالها وعظمتها ودوامها إلى أبد الأبد، بينما صفات البشر زائلة ومعرضة للعلو والنقص، كما لا ينبغي التفصيل في بعض صفات الله تعالى كون التفصيل فيها يؤدي إلى تمثيلها، وتمثيلها إثم وظلم للنفس، لذا، فعلى المؤمن أن يؤمن بكمال صفات الله تعالى ويتفقه في الدين طلباً للعلم الصحيح ليسلم يوم الحساب وينال الأجر والثواب من الله تعالى.

كما نلاحظ حضور علاقة الاقتضاء في موضع آخر من الخطب، يقول ابن الجوزي: " من عدل في ذاته إلى التمثيل عمت عليه سبل المطالب، ومن مال في الصفات إلى التعطيل رجع بأمل خائب، ومن صرف كلامه إلى التؤول ادعى مشاركة

في العلم الغائب، ومن نزهه عن الأشباه والتكليف حظي بأحسن المكاسب، ومن وصفه بما أخبره أتانا بإيمان صائب¹، إذ وردت في القول مجموعة حجج كانت مسؤولة على حضور مجموعة من النتائج نوردها من خلال الجدول التالي:

النتائج	الحجج
فتحت له سبل الخير وحققت مطالبه	معرفة الله عن طريق عدم تمثيل صفاته
خيبة الأمل	تعطيل صفات الله وعدم الاعتراف بها
ادعاء المشاركة في علم الغيب	المبالغة في التأويل في الكلام
نيل مكسب الأجر والثواب	الابتعاد عن الشبهات في الكلام
التحلي بالإيمان الصحيح	وصف الله تعالى بصفاته الكاملة

ترتبط كل هذه النتائج بالحجج التي ذكرناها، حيث إن معرفة العبد لله المعرفة الصحيحة بعدم تمثيل صفاته تؤدي به إلى نيل مكانته الحسنة عند الله تعالى فيفتح له أبواب الخير، في حين أن تعطيل صفاته وعدم الاعتراف بها يؤدي إلى نيل الخيبة والخذلان والبعد عن الله، كما أن المبالغة في التأويلات والتعمق في الشبهات يؤدي إلى المشاركة في علم الغيب الذي هو من مهام الله تعالى وحده ولا يشاركه في علمه أحد من العالمين مهما بلغوا من درجة علمية رفيعة، في حين أن الابتعاد عن الشبهات في الكلام يؤدي إلى نيل المكسب والأجر والثواب الحسن.

كما إن من أمثلة علاقة الاقتضاء في الخطب قول ابن الجوزي متحدثاً عن الله تعالى: "اختص منهم طائفة لمعاملته وهذب خلالهم، ووسمهم بوسم معرفته وقطع عن سواه أشغالهم، وكشف لهم بلطف العناية ستور الهداية وجلالهم، إن عاملهم أربحهم

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص126.

ووفى لهم، وإن وعدهم عطف عليهم ورقى لهم، إن قربهم من بابه أعذب بمناجاته وصالهم، وإن أقبل عليهم فأعرضوا قطع بالطرد أوصالهم، وإن أبدى لهم حلاوة أنسه هجروا في طلبه حلالهم¹، إذ يتوفر القول على مجموعة حجج تقتضي مجموعة نتائج، والعكس صحيح، وهي ممثلة وموضحة من خلال الجدول التالي:

النتائج	الحجج
الوفاء بوعده	وعد الله تعالى عباده
قطع الله تعالى لصلته مع عبده	إقبال الله تعالى على العبد مع إعراض العبد
هجر العبد لمذات الدنيا وقربه من الله	إبداء الله تعالى لعبده حلاوة أنسه وقربه

فمعاهدة الله تعالى عباده تقتضي الوفاء بوعده في منح الجنة للمتقين من عباده والنار للمسيئين لله تعالى، إقبال الله تعالى على العبد مع إصرار العبد على الإعراض يقتضي قطع الله تعالى لأوصال ذلك العبد وطرده من رحمته إلى يوم الدين والعكس صحيح، كما أن إبداء الله تعالى للعبد حلاوة أنسه يقتضي من العبد هجره لمتاع الدنيا ومذاتها والاتصال بالله تعالى والتقرب منه لحلاوة ذلك الأنس.

إذن يوجه ابن الجوزي للمتلقي من خلال الأقوال المذكورة مجموعة من الحجج التي تقتضي مجموعة من النتائج، وهي بمثابة رسالة للمتلقي يدعوه من خلالها إلى الأخذ بتلك الحجج من أجل الوصول إلى تلك النتائج، وهي تمثل في نظر ابن الجوزي نتائج حتمية تتوفر بتوفر الحجة، فعلاقة الاقتضاء تستوجب توفر النتيجة بتوفر الحجة، وغياب النتيجة بغياب الحجة، وهذه العلاقة المؤكدة التي تربط بين طرفي الفعل تمثل استراتيجية حجاجية إقناعية استغلها ابن الجوزي لغرض التأثير في المتلقي، إذ يقتنع

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص112.

متلقي الخطبة بالنظرية المعروضة كون نتائجها مؤكدة ولا شك فيها، ما يدعو إلى الانغماس في أفكارها بكل جوارحه، فتؤثر فيه عن طريق الإيمان بما جاءت به، وبالتالي التأثير في سلوكه، بتوجيهه نحو عبادة الله وملاً الفراغ بالتسبيح والاستغفار واتباع منهج الله في أوامره ونواهيه، والبعد عن مناهج البدعة والظلاله وأفعال السوء، وذلك لنيل الأجر والثواب من الله والفوز في الدنيا والآخرة.

3- السلام الحجاجية في الخطب:

السلم الحجاجي هو علاقة ترتيبية للحجج، إذ عندما تقوم بين الحجج المنتمية إلى فئة حجاجية ما علاقة ترتيبية معينة، فإن هذه الحجج تنتمي إلى نفس السلم الحجاجي، وهو عبارة عن: " مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية وموفية بالشرطين التاليين:

أ . كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه

ب . كل قول كان في السلم دليلاً على مدلول معين كان ما يعلوه مرتبة دليلاً أقوى عليه " ¹

وقد ظهرت ملامح السلام الحجاجية من خلال الغرض العام الذي نادى به الخطب، بحيث تشترك كل موضوعاتها في إظهار عظمة الله تعالى وقدرته الكبيرة في تسيير ملكوته، وقد تجلّى هذا من خلال تفصيل ابن الجوزي في أسماء الله الحسنى وصفاته التي تترجم أفعال الله تعالى في الأرض وفي الكون بأسره، كما قام بالتفصيل في خلق الإنسان وكذا خلق الأرض والسماء بكل ما تحويهما من عناصر كالأفلاك والكواكب والنجوم، والشمس والقمر والطبيعة بما تحويه من جبال وسهول ومياه وأمطار ورياح، وكلها نعم منحها الله تعالى للإنسان محققاً له من خلالها متطلبات حياته، ورجوعاً لهذا الفضل كله وجدنا ابن الجوزي يبتدأ كل خطبه بحمد الله تعالى وشكره

¹. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص500.

على مجموع النعم التي ذكرناها، ثم نجده يفصل في كل خطبة مجموعة الأسباب أو الحجج التي دفعته لحمد الله، كما نجده يشكر الله في عرض الخطبة، وكذا في اختتامها لفضل الله تعالى العظيم عليه وعلى العباد.

ولا تقتصر النتائج على حمد الله وشكره على النعم، بل تتعداه إلى الإيمان بقدرة الله تعالى وعظمته في خلق الطبيعة بما تحويه من مظاهر متنوعة، كما تتعداه إلى الإيمان بقدرة الله تعالى ووحدانيته في خلق كل المخلوقات والموجودات والآثار، وعلى رأس قائمتها الإنسان، فقد فصل ابن الجوزي في خلقه استناداً إلى ما ذكره الله تعالى في كلامه العزيز.

يظهر من خلال ما ذكرناه أن ابن الجوزي يقوم بحمد الله تعالى، ويؤمن بقدرته وبِعظمته في خلق كل المخلوقات والموجودات على وجه الأرض، ثم يفصل في أسباب ذلك كله، وهذا ما يطلق عليه في مباحث الحجاج بالسلام الحجاجية، إذ: "تطرح هذه النظرية تصوراً لعمل المحاجة من حيث هو تلازم بين قول الحجة ونتيجتها، لكن قول الحجة والنتيجة في تلازمها تعكس تعدداً للحجة في مقابل النتيجة الواحدة"¹، ويبرز هذا التعدد من خلال تعدد النعم في مقابل النتيجة الواحدة وهي حمد الله، ويمكننا أن نمثل للحجج التي أوردها ابن الجوزي في خطبه ضمن السلام الحجاجية التالية، والتي تحوي حجج عقلية منطقية قاطعة وناضجة رتبها حسب قوتها لتخدم نتيجة واحدة، فتزداد قوة الحجاج مع كل حجة.

¹. نعمان بوقرة: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، جدارا للكتاب العالمي، الأردن،

السلام الحجاجية في الخطب:

النتائج	الحجج	رقم الخطبة
<p>. حمد الله على كل هذه النعمة</p>	<p>. عدل الله تعالى في حكمه على عباده . تقسيمه للأرزاق بجود وكرم . لطفه ورحمته على عباده . تفرد به بالعزة والعظمة . توحيده بالقدرة والسلطة . تصويره للعباد وتدبير أمورهم . خلق الخلائق ووهبهم للنعم</p>	<p>الخطبة الأولى</p>
<p>. حمد الله على كل هذه النعمة</p>	<p>. تسكين الله تعالى لروعات قلوب الخائفين بإيمانه . محيي موات نفوس الطالبين . ساتر أسرار المذنبين . مروح أرواح العاجزين . رافع فلك السماء بتقديره</p>	<p>الخطبة الثالثة عشر</p>

	<p>. مجري الفلك على الماء . الواحد فلا ثاني في ملكه . الفاعل فلا مساعد له في انقا . تفرده بتصوير الجنين في ظلمة الأحشاء</p>	
<p>. الإيمان بقدرة الله تعالى العظيمة وتفرده في خلق البشر</p>	<p>. خلق الله تعالى للجنين في الرحم . إبداعه في تسوية بنانه وتلفيق أجزائه . تسهيل كلامه وبيانه . تحريكه برياح الطلق عند الولادة . إخراجة إلى دار التكليف . نقله في درج الحياة يقطع ساعاته وأزمانه . إيضاح سبل المعرفة للإنسان . إفنائته وتمزيق جثمانه</p>	<p>الخطبة الثالثة عشر</p>

	<p>. نقله عن أوطانه بالموت . انتزاع عواري دنياه وإلباسه الكفن الأبيض . إفراده في اللحد مع الديدان . بعث منكر ونكير لسؤاله . إعادة إحيائه لعرض صحيفته . إيقافه أمام خالقه لمحاسبته</p>	
<p>. الإيمان بتمام قدرة الواحد القهار، وبأنه تعالى هو الخالق لهذه المخلوقات والموجد لهذه الآثار</p>	<p>. موجد الأكوان والألوان و الأرزاق والأعيان والآثار . رافع الشمس في الفلك الدوّار . مقدّر سيرها بالدقائق والدرج في الطلوع والغروب والاستتار . جاعلها آية مبصرة في النهار . ابتلائها بالغيوم والرعود . إزهار الغصن بعد الذبول . هطول الأمطار . لعب الرياح بالأمطار . أومض البرق ودقّ الرعد</p>	<p>الخطبة السابعة عشر</p>

	<p>. بروز الربيع من كمينه . انقشع الضوء من السماء . انقطع ماء المطر المدرار . ضحكت ثغور الأرض بالنوار . امتلأ الروض بالأزهار . اكتسى الغصن أثواب الطل فأزهر بأنواع الثمار . أشرق الأترنج في الأغصان . تحقق الرمان في الأغصان . تعلّق النبق في العيدان . هبّت نسائم أنفاس الأسحار . تطارحت على الأعواد التمائم والأطيّار . غنّت الحمائم برقة النسائم</p>	
<p>. حمد الله تعالى على فضله الواسع، والشهادة</p>	<p>. ذلّت لعظّمته رقاب الجبابرة . خرت لعزته جباه الأكاسرة . تزلزلت لهيبته الصخور</p>	<p>الخطبة الخامسة والعشرون</p>

<p>بربوبيته التي ردت دلائلها حجج أهل الشر وقطعت</p>	<p>وتصدّعت . حتّ السحاب السائرة بالرياح فتألّفت واجتمعت . أجرأها في فسح العلو فارتنفت . زجرها بالرعود فأبرقت . أرسلها إلى الأرض الموات فأغرقت حياضها وأترعت . ابتسمت تغور الأرض فأزهرت . أودعها دلائل قدرته فتعلّقت بها الأفكار وبرعت . إله يبصر دبيب الذرة على سواد الصخرة . يسمع صوت الحمام وهمس أقدام البهائم إذا رتعت . يعلم خفي ما أوحى الأسرار . يوصف بالاستواء على عرشه . يشرف السماء الدنيا كل ليلة جمعة</p>	
---	--	--

<p>. حمد الله على الإشفاق والإرفاق والعطف بالعبد</p>	<p>. الله خالق الأنام . مصرف الأحكام . رافع الأسقام . دافع الآلام . رازق العباد . كمل خلق الإنسان تصويراً وأخلاقاً وآجالاً وأرزاقاً . صرف الأحوال والطباع فقراً وغناءً وبخلاً وانطلاقاً . خط الأعمال غياً ورشاداً وإيماناً ونفاقاً . أحاط بسر الضمير وحركة الطرف رمقاً وإطراقاً</p>	<p>الخطبة السادسة والعشرون</p>
--	---	--------------------------------

يطرح ابن الجوزي من خلال الأمثلة المذكورة حجج أو أسباب متنوعة ومتعددة تؤدي إلى نتيجة واحدة، فعدل الله في حكمه على عباده بالتساوي دون ظلم وجور، وتقسيمه للأرزاق بجود وكرم، ولطفه ورحمته بعباده، وتدبير أمورهم، وتقديره وتوحيده عز وجل بالعزة والعظمة والقدرة والسلطة، كلها أسباب أدت بابن الجوزي إلى حمد الله عليها، كما أن تعدد الحجة يمنح صدى أقوى للمتلقي من حيث اقتناعه بالقضية

المطروحة، ويتمثل ذلك في أن حمد الله لا يقتصر على سبب واحد أو سببين بل يتعداه إلى ذكر معظم النعم التي يحيا بها الإنسان، والتي توجه معتقداته وتنظم حياته.

وقد ذكر ابن الجوزي جزءاً منها في مجموع خطبه، بغرض تذكير المتلقي بفضل الله عليه ومننه التي تحيط بالإنسان منذ خلقه إلى يوم بعثه، وهو يشير بطريقة ما إلى فضل الله الأعظم الذي ينتظر العباد إذا ما هم أصلحوا حالهم، واتقوا الله، وآمنوا بصفاته، وتفقهوا في أسمائه، وعرفوا فضله، وحمدوه عليه، يقول تعالى في سورة إبراهيم: " وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ¹، إذ يعني حمد الله الإيمان بنعمه وعدم تجاهلها، كما أن الإيمان بالنعم أساس الأمور كلها، فهو الذي يوجه الإنسان إلى شكر الله والاعتراف بفضله ودعوته تعالى إلى عدم قطعه عن النعم.

كما أن كون الله تعالى موجد الأكوان والألوان والأرزاق والأعيان والآثار، ورافع الشمس في الفلك الدوّار، ومقدّر سيرها بالدقائق والدرج في الطلوع والغروب والاستتار، وجاعلها آية مبصرة في النهار، وابتلاؤها بالغيوم والرعود، وإزهار الغصن بعد الذبول، وهطول الأمطار، ولعب الرياح بالأمطار، وظهور البرق ودقّ الرعد، وبروز الربيع من كمينه، وانقشاع الضوء من السماء، وانقطاع ماء المطر المدرار، وضحك ثغور الأرض بالنوار، وامتلاء الروض بالأزهار، وتعلّق النبق في العيدان، وغناء الحمام برقة النسائم، كلها أسباب أدّت بابن الجوزي إلى الإيمان بتمام قدرة الواحد القهار، وبأنه تعالى هو الخالق لهذه المخلوقات والموجد لهذه الآثار.

فهو عز وجل وحده الخالق لهذه الطبيعة والمنظم لأمرها دون ظهور خلل فيها أو عطب، فلا يسبق الرعد البرق، ولا تسقط المطر بغير غيوم، ولا تشرق الشمس من المغرب إلا بإذن من ربها، فكل عنصر من عناصر الطبيعة يمشي وفق نظام خاص سطره لها موجد الطبيعة والكون، كما أن كل عنصر من عناصر الطبيعة يمثل حجة على وجود الله تعالى وعظيم قدرته وتمام سلطانه، وقد جعل ابن الجوزي أداة العطف

¹. سورة إبراهيم: الآية 7.

التي تمثلت في الواو أهم أدوات الربط التي اتخذها للربط بين الحجج التي طرحها لإثبات موضوعاته المعروضة.

يدعو ابن الجوزي المتلقي من خلال التصريح بإيمانه بتمام قدرة الله تعالى في خلق الطبيعة والكون، إلى الاقتداء بأفعاله وأقواله، وذلك عن طريق إقناع المتلقي بضرورة هذه القضية، وهو في ذلك يقوم بعرض مجموعة من الحجج تؤثر في المتلقي بالتفصيل فيما خلقه الله وفيما أوجده من عناصر الطبيعة والكون، من أجل إظهار تفاصيل تلك القدرة الربانية وذلك الإعجاز الإلهي، وتلك هي الغاية التي سعى إليها ابن الجوزي من وراء نظم الخطبة، ذلك أن التأثير في المتلقي هو الهدف الذي يرتبط بكل خطاب.

يمكننا القول إن من الأهداف الحجاجية لتعدد الحجج، هو التأثير في المتلقي بتحقيق الإقناع لديه، بحيث يقوم ابن الجوزي بعرض أكثر من حجة، بل مجموعة لا بأس بها من الحجج وفي كل خطبة على حدى، بغرض تحقيق غاية إقناع المتلقي، وفي القضية نوعين من الاستراتيجيات الحجاجية: الأولى أن ابن الجوزي يقوم بعرض مجموعة من الحجج للمتلقي لغرض إقناعه، بينما الاستراتيجية الثانية فتتمثل في أن ابن الجوزي يقوم بحمد الله تعالى والإيمان بقدرته تعالى وبألوهيته وبخلقه للكون والوجود، وهو من خلال هذا يدعو المتلقي إلى الاقتداء بأفعاله وأقواله، كما يدعو إلى التمعن في ما خلق الله في الأرض والسماء ليزداد المتلقي طاعة لله وخشية منه، وعبادة له، ويكف العاصي عن أفعال السوء التي يقوم بها كون الله تعالى له حق على عبده يتمثل في تطبيق أوامره والبعد عن نواهيها، فهو تعالى العالم بأمورنا وما يصلح أحوالنا وما يحقق المكانة التي يسعى لها كل العباد وهي رؤية الله تعالى والفوز بجناته.

اعتبرت الحجج التي قمنا بذكرها بمثابة السلاسل التي يصعد من خلالها المتلقي ليتحقق لديه اقتناع تام بالأفكار التي عرضها ابن الجوزي من خلال الموضوعات التي ذكرناها، إذ يحث المتلقي من خلال هذه الموضوعات إلى الإيمان بقدرة الله تعالى العظيمة وتفرده في خلق البشر، كما يدعو إلى الإيمان بتمام قدرة الواحد القهار، وبأنه

تعالى هو الخالق لهذه المخلوقات والموجد لهذه الآثار، كما يدعو إلى حمد الله تعالى على فضله الواسع، والشهادة بربوبيته التي ردت دلائلها حجج أهل الشرك وقطعت، كما يدعو إلى حمد الله تعالى على الإشفاق والإرفاق والعطف بالعبد، هي معظم النتائج التي قمنا بعرضها في الجدول والتي تقابلها العديد من الأسباب.

نستنتج من خلال السلام الحجاجية المبينة في الجدول، تلازم بين قول الحجة ونتيجتها، لكن قول الحجة والنتيجة في تلازمها تعكس تعدداً للحجة في مقابل النتيجة الواحدة، على أن هناك تفاوتاً من حيث القوة فيما يخص بناء هذه الحجج، وهو ما يظهر من خلال مواقع الحجج على السلم، والذي يظهر بدوره مبدأ التدرج في توجيه الحجج، وهذا هو منطق نظرية السلام الحجاجية.

4- تأثير عناصر السياق في استراتيجيات الخطاب الإقناعي:

أثرت عناصر السياق بشكل مباشر في الاستراتيجيات التي اختارها ابن الجوزي وأودعها خطبه الثلاثين، وأهم هذه العناصر المتلقي، والذي تنوع بين متلقي خاص وهو زميله الذي تحداه أن يأتي له بخطبة مغيب فيها حرف من حروف الهجاء، وملتق عام وهو الجمهور الذي يتلقى الخطبة كتابة وشفاهة، وقد تنوعت الاستراتيجيات التي أودعها ابن الجوزي خطبه بتنوع هؤلاء المتلقين، بحيث وظف ابن الجوزي في خطبه نوعين من الاستراتيجيات، وقد سعى من خلالهما إلى تحقيق غايات عديدة، وسنظهر فيما يلي أنواع المتلقين وكذا الاستراتيجيات التي وجهت إليهم والتي تضمنتها الخطب، كما سنشير إلى ثاني عناصر السياق والتي تمثل العناصر المشتركة بين طرفي الخطاب أي بين المرسل والمرسل إليه، كما سنظهر الغايات التي سعى ابن الجوزي إلى تحقيقها من وراء ذلك كله.

4.1 المتلقي الخاص واستراتيجية تغييب الحروف:

حظي المرسل إليه أو المتلقي الذي وجه له ابن الجوزي الخطاب بالعناية الكبيرة من قبل ناظم الخطب، ذلك أن متلقي الخطب قد حضر في ذهن المرسل عند إنتاج

خطبه كونه القارئ لها والمتمعن في ألفاظها وتراكيبها ومعانيها، وهو الذي يلاحظ محاسنها أو عيوبها، وقد قام ابن الجوزي بتوجيه خطبه عمداً وبنية وقصد مسبقين، إلى متلقي مخصوص وهو أحد أصدقائه، وهو في سياق نظم الخطب بمثابة الخصم له كون ابن الجوزي قد صرّح بتفاوضهما على حروف الهجاء العربية، إذ نجده يقول في مقدمة الكتاب: "فإني تفاوضت أنا وبعض الأصدقاء في حروف الهجاء، فادعى أنه لا يصح كلام إلا بمجموعها، ولا يستقيم لفظ تام إلا بوجود جملتها، وحدثني بخطبة معه منظومة محذوف منها حرف الألف، فانتهضت القوة إلى الانتصار بإنشاء خطب حذف من كل خطبة منها حرفاً من حروف الهجاء، وختمتها بخطبة ليس فيها نقطة، فصارت ثلاثين خطبة، وقد وسمتها بكتاب <عجيب الخطب>¹"

يظهر من خلال القول الذي ضمّنه ابن الجوزي بداية عتبات كتابه، الاستراتيجية التي انتهجها عند نظم خطبه، والتي تقوم في الأساس على فكرة ذكرها الصديق وتبناها، ورفضها ابن الجوزي ونفاها كونها لا تتوافق وقدرات هذا الأخير المعرفية ورصيده اللغوي والثقافي، من هنا تظهر العلاقة التي تربط بين المرسل إليه والمرسل وبالتالي بين السؤال والجواب، فعلاقة المتكلم بالمخاطب حول مسألة ما، تمثل تجاوزاً للخطابة الأرسطية التي تدور أساساً حول الاستمالة والاقناع لأنها تهيء الفضاء الأمثل لإثارة السؤال وإذكاء المسألة المستمرة القائمة على الحجاج باعتباره مفاوضة للمسافة بين الطرفين وتكييفها حسب مقاصد الخطيب²، فالكلام: "هو جواب ما لم ينخرط في جدلية المسألة، فهو إذن من المعطيات المتاحة المجردة من الإشكالية لأن الجواب حاضر باستمرار، وما صياغة السؤال إلا وهم من أوهام المتكلم، فالخطابة (...). تشتغل في الحقيقة على الأسئلة انطلاقاً من الأجوبة"³

¹. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ص99.

². حمادي صمود: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص398. 399.

³. المرجع نفسه، ص401.

من هنا يمكننا اعتبار ابن الجوزي بمثابة المجيب عن فرضية الصديق التي تقول أن العربية غير قادرة على تحقيق التواصل بغياب إحدى حروفها، وقد سعى لإدخال هذه الفرضية باختيار استراتيجية تغييب الحروف، بحيث ادعى صديق ابن الجوزي أن الكلام لا يصح إلا باجتماع كل حروف العربية الثمانية والعشرين، وليس بإمكان أي متكلم أن يغيب حرفاً من الحروف أو بعضاً منها في كلامه، وإن حاول ذلك اختل الكلام وأصابته العلة على مستوى أفكاره ومعانيه، في حين أن ابن الجوزي قال غير ذلك، ومن الظاهر أن هذا الأخير (أي ابن الجوزي) قد تمسك بموقفه وأقنع رفيقه بصحة ما جاء به، إلى أن دفع بهذا الأخير (أي زميل ابن الجوزي) لإنشاء خطبة محذوف منها حرف الألف، من هنا انتهزت الرغبة للغلبة والانتصار عند ابن الجوزي وأنشأ ثلاثين خطبة محذوف من كل خطبة حرف من حروف الهجاء، وختمهم بخطبة ليس فيها نقط (مع العلم أن ابن الجوزي قد أضاف لحروف الهجاء حرف " لا " فصارت تسعة وعشرين حرفاً، وبإضافة النقطة تصبح ثلاثين).

يظهر من خلال هذا الكلام أن ابن الجوزي قد اعتمد على استراتيجية تغييب الحروف كوسيلة حجاجية احتلت المكانة الأولى من حيث الأهمية في الكتاب، بحيث أنشأ ابن الجوزي كنتيجة للتفاوض، ثلاثين خطبة برهن من خلالها على صحة الفرضية التي تبناها، يقول أرسطو: " فإن الريطوريات منهن برهانيات، ومنهن تفكيرات"¹، وخطب ابن الجوزي التي أودعها كتابه "عجيب الخطب" تمثل خطباً برهانية، كونها تدافع عن موقف اللغة في كونها تحقق التواصل والتأثير أيضاً رغم تغييب إحدى حروفها في الكلام، وقد حذف من كل خطبة حرفاً من حروف الهجاء.

إذ تحققت هذه الاستراتيجية في شكل الخطبة وبناء ألفاظها ومعانيها، بحيث يحكم على الخطب بملاءمتها للسياق التواصلية بناءً على درجة الناظم في التزامه بالاستراتيجية التي حددها قبل إنتاج خطبه، والتي تهىء المرسل إليه لاكتشافها في ثنايا

¹. أرسطوطاليس: الخطابة، ص12.

الخطب، إذ يمكن اعتبار " المرسل إليه مشارك إيجابي في مقام التواصل"¹، لأنه هو الذي يوجه المرسل إلى نظم الكلام وإلى تجويده وإعطائه صورة حسنة، ويعدّ المجلس أو السياق الذي انشأ جراه القول بمثابة: " الفضاء أو المجال المتميز للتواصل الكلامي في الثقافة العربية القديمة"²، وهو: " الفضاء الثقافي العربي الأساسي الذي تمّ فيه إنتاج الكلام العربي القابل للتداول والنقل والاستمرار"³.

ويمكننا اعتبار صديق ابن الجوزي بمثابة المحفّز الذي دفع بابن الجوزي إلى نظم خطبه، فهو بذلك يدعو إلى الكتابة وإلى النظم، ذلك أن: " الدعوة إلى الكتابة مثل الدعوة إلى الكلام في الثقافة العربية القديمة، ولعله لهذا الاعتبار كانت العديد من المؤلفات والمصنفات عبارة عن رسائل توجه إلى شخص معين (واقعي أو تخيلي) طلب من الكاتب التأليف في غرض معين"⁴

وقد قامت دعوته تلك على أساس شروط يمكن أن نسميها بالعقد الكتابي، وفيه يلتزم ابن الجوزي بالعقد الذي حدده للمرسل إليه قبل بدء إنتاجه للخطب، والذي نلاحظ عدم مخالفته له، إذ برع في نظم كلامه بتحسينه وتتميقه وإلباسه حلة الجمال، ف: " الكلام محور التواصل، وهو في الثقافة العربية يحتل أعلى المراتب، وهو عند ابن الجوزي يضم السامع النموذجي والمتكلم النموذجي، فلا عجب أن نجد الكلام الذي يجري بينهما يتصف بخصائص وسمات متفردة تخضع من جهة لطبيعة العقد الكلامي الذي يجمعهما، ومن جهة ثانية يتسع لمختلف المجالات والقضايا، فالسامع لا يريد سماع أي كلام فالشرط الجمالي والبلاغي أساسي"⁵

تمثل ألفاظ الخطب الثلاثين التي أوردها ابن الجوزي كتابه أحسن تمثيل للاستراتيجية التي اختارها، والتي تمثل وسيلة حجاجية اختارها ابن الجوزي واتفق عليها

1. سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتجليات، ص 153.

2. المرجع نفسه، ص 150.

3. سعيد يقطين: الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 1997، ص 213.

4. سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتجليات، ص 183. 184.

5. المرجع نفسه، ص 169.

رفقة زميله، وقد اعتبرت بمثابة التحدي الذي يسعى صاحبه ليبرهن للطرف الآخر صحة ما جاء به، وليثبت صدق القضية التي تبناها، بحيث قام ابن الجوزي في خطبه بالتعبير عن المعاني الدينية المختارة والتي بنى بها خطبه بدوال ذات ميزة خاصة، إذ تتحد ألفاظ الخطبة الواحدة منذ افتتاحها إلى غاية اختتامها في عدم احتوائها على إحدى حروف العربية الثمانية والعشرين مضافة إليها ال " لا " والنقطة.

4. 1. 1. العناصر المشتركة بين طرفي الخطاب:

يشترك طرفا الخطاب أي المرسل والمرسل إليه أو ناظم الخطب ومتلقيها، في بعض العناصر التي تؤثر تأثيراً كبيراً في إنتاج الخطب من حيث جودتها من عدمها، كما تؤثر في قوة أو ضعف ألفاظها وتراكيبها، وكذا صلابة أو لين معانيها، ذلك أن متلقي الخطبة له دور كبير في إنشاء الخطاب، كونه يحمل عناصر ذلك المتلقي، والذي تنعكس حالته على نوعية الخطاب، وهو يؤثر على الخطب تداولياً، فبناء الخطاب وتداوله مرهون إلى حد كبير بمعرفة حال المتلقي، أو بافتراض ذلك الحال، و: " هذا ما يسهم في حركية الخطاب بل يسهم في قدرة المرسل التنويرية، ويمنحه أفقاً لممارسة اختيار استراتيجية خطابه، وهذا جلاء لدوره من حيث كيفية تأثير شروط متلق معين في ظروف محددة إلى تنظيم آليات لخطابه"¹.

تغدو العلاقة بين طرفي الخطاب من أبرز العناصر السياقية التي تؤثر في تحديد استراتيجية الخطاب المناسبة، إذ يراعيها المرسل دوماً عند إنتاج خطابه، لما لها من دور في إنجاح عملية التواصل وتحقيق هدف المرسل من عدمه، وتتجسد هذه العلاقة على مستوى سياق الخطب في الصحبة أو الزمالة، كما أنها علاقة أدبية ودينية أظهرتها لغة الخطب وموضوعاتها، كما تربط طرفي الخطاب معرفة مشتركة تمثلت في كونهما يشتركان في نفس المعارف والثقافة الدينية، فقد تحدى ابن الجوزي صديقه المتلقي في عنصر تغييب حروف الهجاء، إذن فهو مرسل إليه أو مخاطب واقعي، وقد حدده المتكلم عندما اختاره هدفاً لمشروع الإقناع والتأثير.

¹ عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص48.

وتحليل خطب ابن الجوزي على أن مخاطبه من الخاصة وبالتحديد من الكتاب والمثقفين ورجال الدين والأدب، لأنه قد اجتهد ووظف فيها من الأساليب البلاغية ما وجده ملائماً لمقام مخاطبه، كما أودع فيها من المعاني الدينية ما يستثير الألباب ويحيي النفوس، ومن استراتيجيات الإقناع ما وجدها تحرز منفعتَه وتحقق غايته المتمثلة في التأثير والإقناع، وذلك لأن الخاصة طبقة اجتماعية من أفضل الطبقات لامتلاكها كفايات خاصة تؤهل صاحبها لأن يتلقى الخطاب كيفما كان مستواه الفني والتخييلي والفكري والأدبي، لذلك وجب على من يخاطب هذا النوع من الطبقات أن يحسن خطابه قدر المستطاع وأن يضع في الحسبان نوع متلقيه ودرجته الثقافية والأدبية.

تنقسم المعرفة المشتركة التي تربط طرفا الخطاب إلى "معرفة عامة بالعالم والمعرفة بنظام اللغة"¹، تتمثل المعرفة العامة بالعالم في كيفية تفكير الناس من نواحي عديدة: منطقية أو وهمية، سذاجة أو حذاقة، كما تمثل المعرفة بأطر المجتمع الدينية والثقافية والاجتماعية، إذ تتعدد السياقات بتعدد الطبقات والجماعات الاجتماعية وبحسب نوعيتها يمكن التمييز بين ثقافة عالمة (مجالس خاصة)، وثقافة شعبية (مجالس عامة)، في مختلف هذه المجالس، وباختلاف الحقب التاريخية تتشكل الثقافة العربية في صورها المتباينة والمتشاكلية².

أما المعرفة بنظام اللغة فتندرج تحته المعرفة بجميع مستويات اللغة المعجمية منها والتركيبية وكذا ودلالات اللغة المتعددة وعلاقتها بثقافة المتلقي والمجتمع الذي ينتمي إليه، وكذا امتلاك الرصيد اللغوي الكافي للخوض في النواحي الكلامية المختلفة، فعلى المتكلم أو الناظم امتلاك القدرة الكبيرة للتصرف في كل مجالات المعرفة المذكورة وكذا القدرة على تأليف الكلام وتقديمه في السياق التواصلي بالصورة المناسبة من أجل التأثير في المتلقي، واجتماع البلاغة والثقافة لدى المتكلم، تتيح له الكلام في أي مقام

¹. ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 49.

². سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتجليات، ص 150.

شاء وعلى الوجه الذي يريد، ويقول أبو هلال العسكري (395هـ) في هذا الشأن: " وإنما يدل حسن الكلام وإحكام صنعته ورونق ألفاظه وجودة مطالعه وحسن مقاطعه وبديع مبادئه وغريب مبانيه على فضل قائله"¹.

4. 1. 2. الغاية من استراتيجية تغييب الحروف:

سعى ابن الجوزي من خلال استراتيجية تغييب الحروف إلى إقناع متلقيه الخاص بقدرة اللغة العربية على تحقيق الرسالة التواصلية وإيصال معانيها وتحقيق الاقتناع لدى القارئ دون توظيف مجمل حروفها في الكلام، وهي ردة فعل قام بها ابن الجوزي شكاً من صديقه في هذه القضية، ف: " ما من محاجة إلا والباعث عليها وجود شك في مدى صحة فكرة ما، إن المحاجة تفترض أن هنالك فكرة ما ينبغي تدقيقها والتشديد عليها وبدون التدقيق والتشديد تبقى غامضة وغير واضحة بما فيه الكفاية، فلا يمكن فرضها على المتلقي الفرض القوي الذي ينبغي أن تفرض به"²، " قال المؤلفان (برلمان Perelman وتيتيكاه Tyteca في كتابهما " مصنف في الحجاج الخطابية الجديدة"): الغاية من تقربنا بين الحجاج والخطابة أن نلح على أنه لا حجاج بدون وجود جمهور يرمي الخطاب إلى جعله يقتنع ويسلم ويصادق على ما يعرض عليه"³.

كما نجد ابن الجوزي يثبت في الآن نفسه غنى هذه اللغة بالألفاظ وتنوع دوالها وزخمها اللغوي الكبير الذي يختار المتكلم منه ما راق له وما لذ وطاب له من الكلمات التي تناسب معانيه، وتعبّر له عن الأفكار التي تختلج نفسه، ولا يتوفر هذا الأمر عند كل المتكلمين بل عند خاصتهم، ذلك أنهم يملكون القدرة الكافية على التصرف باللغة، كما لهم الرصيد اللغوي والمعرفي الذي يؤهلهم لخوض مثل هذا التحدي، فاختيار ألفاظ ذات ميزات خاصة ومشاركة من أجل بناء خطبة بأكملها ليس بالأمر الهين، بل يلزمها ثقافة ودربة وخبرة في المجال، كما يلزمها صبر وتأنٍ ومثابرة، كلها عناصر وجب

¹. حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، ص 207.

². حمادي صمود: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 302.

³. المرجع نفسه، ص 306.

توفرها في مؤلف الكلام، كما تظهر على النص في المرحلة التي تسبق مرحلة عرضها في الكتاب في نسخته النهائية المكتملة.

إذن غاية ابن الجوزي من تأليف كتابه "عجيب الخطب" غاية ذات طبيعة حجاجية، بحيث سعى في كل أجزاء الخطب لإثبات قضية لغوية رأى في نظره أنها هي الأصح، وقد وجه رسالته اللغوية والتمثلة في مجموع الخطب لمرسل إليه محدد، كان في سياق عملياتهم التحوارية بمثابة المتحدي والمنافس، ولقد اعتمدت العملية الحجاجية عند ابن الجوزي على تغييب أصغر وحدة لغوية وهي الفونيم أو الحرف، وهو يمثل جانب من الجوانب الشكلية للغة، والتي يعبر بها المتكلم . مع اتحادها بالجوانب الشكلية الأخرى من ألفاظ وتراكيب . على المعاني والمضامين والأفكار التي تدور في ذهنه والتي يحاول إيصالها للمتلقي مقنعاً إياه بأمور معينة.

4. 2. المتلقي العام واستراتيجيات الحجاج:

يقوم ابن الجوزي في سياق عرض استراتيجيته الحجاجية اللغوية المتمثلة في تغييب حروف وحضور أخرى، بعملية حجاجية أخرى تخص معاني ومضامين الخطب، فقد سعى من وراء عرض أفكاره إلى إثبات أمور ونفي أمور أخرى، وكلها تخص المجال الديني وتندرج في الإطار التعبدية، منها الأوامر والنواهي والعبادات والطاعات وحدود الله والتمتع في مخلوقات الله وفي ملكوته الواسع.

وقد وجه ابن الجوزي هذه الاستراتيجية لجمهور المتلقين، بما فيهم صديقه، والذي اعتبرناه فيما يخص استراتيجية تغييب الحروف، متلق خاص وجه له الخطاب مباشرة، بغرض إقناعه بقضية قدرة اللغة على تحقيق التبليغ رغم تغييب حروفها، إلا أن ابن الجوزي قد اهتم أكثر الأمر في استراتيجية الحجاج بالمتلقي العام الذي يتلقى الخطب عن طريق قراءة الكتاب مهما تباعدت المسافات الزمنية والجغرافية بين مؤلفه وقارئه، والتي تمتد إلى وقتنا الحاضر، بحيث " يرى المؤلفان برلمان وتيتيكاه في كتابهما " مصنف في الحجاج الخطابية الجديدة "أنه لا فصل بين الشكل والمضمون في شأن

الخطابة وأنه لا يمكن دراسة البنى الأسلوبية منفصلة عن أهدافها الحجاجية فحتى ما ينشأ في الخطاب من تناغم وإيقاع وغير ذلك من الظواهر الشكلية المحضة يمكن أن يكون لها تأثير حجاجي من خلال ما يتولد عنه من إعجاب ومرح وانبساط وحماس لدى جمهور السامعين¹

كما يكمن الاختلاف في كون المتلقي العام لاستراتيجية الحجاج متلقي افتراضي أكثر الأمر، وليس متلقي معروف ومصرح به كالصديق، إذ يحصل أن يقرأ الكتاب من قبل قراء ينتمون إلى طبقات اجتماعية مختلفة، على عكس الصديق الذي حدد من قبل المؤلف، واحتملنا أن تكون له ميولات دينية وأدبية مثل ابن الجوزي، بامتلاكهما نفس الدرجة العلمية والمعرفية والثقافية التي أهلتها للخوض في مثل ذلك التحدي أو تلك المفاوضة.

منح ابن الجوزي المعاني الاهتمام الذي يليق بالمضامين الدينية التي أودعها مجموعة خطبه، وقد تمثلت الاستراتيجية التي خصّ بها متلقيه العام، والتي اهتمت بهذه المعاني هي استراتيجية الحجاج، إذ تعتبر أهم استراتيجيات الإقناع التي تخص مضامين الخطب، وقد سعى من خلالها إلى إقناع متلقيها بضرورة التوجه إلى الله تعالى عن طريق التعرف عليه من خلال إيراد صفاته وشرح أسمائه الحسنى، كما دعا إلى وجوب معرفة الله تعالى عن طريق عرض قدرته الربانية وإظهار ملكوته في الأرض والسماء وفي كل مخلوقاته.

وهو يدعو من خلال كل هذا إلى عبادة الله تعالى والتقرب إليه بالطاعة وتجنب المعصية وتزويد الطاعة كلما تعرف العبد على الله أكثر، ولم تقتصر هذه الموضوعات على صفة الإخبار بل تعدتها إلى البعث برسائل حجاجية للمتلقي، ف: " الحجاج هو علاقة دلالية تربط بين الأقوال في الخطاب تنتج عن عمل المحاجة، ولكن هذا العمل محكوم بقيود لغوية فلا بد من أن تتوفر في الحجة شروط محددة حتى تؤدي إلى أن المخاطب يقبل بقول ما ، لذلك فإن الحجاج مسجل في بنية اللغة ذاتها وليس مرتبطاً

¹. حمادي صمود: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص317.

بالمحتوى الخبري للأقوال، ولا بمعطيات بلاغية مقامية، فالخطاب هو وسيلة الحجاج وهو في آن واحد منتهاه¹

كما أن الحجاج عند ميشال ميار: " محايت لاستعمال الكلام، لأن الكلام يتضمن بالقوة سؤالاً يستمد منه دلالاته، والحجاج لا يتصل بضرب من الخطابات مخصوص، بل يشمل كل ضروب الخطاب الشفوي والمكتوب الأدبي وغيره (...). إن الحجاج متعلق لدى ميار بنظرية المساءلة وهو يشتغل باعتباره ضرورة تؤدي إلى نتيجة أو موقف نحمل الغير على اتخاذه إزاء مشكل مطروح في سياق يوفر للمتخاطبين مواد إخبارية ضرورية للقيام بعملية الاستنتاج"²، فقد هيا ابن الجوزي لعملية المحاجة مجموعة موضوعات دينية تمحورت حول إظهار ملكوت الله تعالى في الأرض والسماء، وفي خلقه للمخلوقات والآثار والموجودات، وقد كانت هذه الموضوعات بمثابة المواد الإخبارية التي أودع فيها ابن الجوزي استراتيجياته الحجاجية، مقنعاً من خلالها المتلقي ومثبتاً قدرة الله تعالى العظيمة، وفي استحقاقه للألوهية والعبودية، وكذا بوحدانيته لا شريك له.

وقد تنوّعت صياغة هذه المادة الحجاجية، كما توزّعت على كل أجزاء الخطب، فقد حصل أن برزت من خلال الموضوعات التي ذكرناها، كما حدث أن برزت على شكل فنون بلاغية كالاستعارات والكنائيات، ومنها ما برزت على شكل تقنيات حجاجية كالتصوير والتكرير والتمثيل، كما ظهر الحجاج من خلال توظيف آيات قرآنية تحمل دلائل وإثباتات على أمور ذكرت في ثنايا الخطبة، كما ظهرت استراتيجيات خطابية لغوية تخاطب المتلقي بطريقة مباشرة منها أساليب الأمر والنهي والنصيحة.

نتبين من خلال هذا كله، أن المتلقي قد أثر بطريقة مباشرة في الاستراتيجيات التي وظفها ابن الجوزي في ثنايا الخطب، فقد خصّ متلقيه الخاص والذي تربطهما علاقة الصداقة باستراتيجية خاصة هي استراتيجية تغييب الحروف، وقد ظهرت في الخطب

¹. حمادي صمود: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 360. 361.

². المرجع نفسه، ص 394.

على مستوى أصغر وحدة لغوية وهي الحرف، دون أن يبعده عن المعاني، ذلك أن المعاني هي روح اللفظ الذي يحتوي الحرف، كما أن اللفظ كساء المعنى، فله الفضل في تحويله من فكرة تختلج النفس إلى كلمات تقرأ وتفهم وتحقق التبليغ والتواصل، يقول بعض البلغاء: إن الألفاظ من المعاني بمنزلة الثياب من الأبدان والقبيح يزول عنه بعض القبح، كما أن الحسن ينتقص حسنه برثائه وعدم بهجة ملبوسه والقبيح يزداد قبحاً إلى قبحه¹، كما يقول الجاحظ في شأن اللفظ والإفهام: " فاللفظ في الخطاب الإقناعي يؤدي بالضرورة وظيفية الإفهام، لكنه لن يكون لفظاً بلاغياً مبيناً إلا إذا كان يؤدي وظيفة الإغراء والإفتان والإمتاع"²، وهو يشير في هذا القول إلى قضية البديع التي طغت على خطب ابن الجوزي والتي أكسبتها جمالاً صوتياً ومعاني بديعة، كما يسعى من خلال كل هذا إلى إفحام صديقه الذي اعتبره في سياق الخطب بمثابة الخصم، والتأثير فيه من خلال الاستراتيجية التي اختارها، يقول أرسطو: " فأما خاتمة الكلام فإنه مركب من أربعة أشياء: وذلك أن يقبل عند السامع من نفسه الصحة، ومن خصمه التهمة، ومن التفكير والتقصير، ومن أن يدخل على السامع شيئاً من الألم والآلام مثل الهم والفرح والغضب والبغضة والحسد والغيرة، ومن الذكر، وذلك مشتهى أو ممكن أن يكون بعد أن يظهر من نفسه أنه محق"³.

كما خصّ متلقيه العام الافتراضي، والذي يمتد إلى متلقي اليوم، باستراتيجية الحجاج التي تنضوي تحتها العديد من الاستراتيجيات التي ذكرناها سابقاً وفصلنا فيها، وهو في الوقت نفسه لا يبعده عن التمتع بالاستراتيجية اللغوية التي تخص الحروف، كما لا يبعده عن التمتع بسحر الألفاظ والتراكيب، بل يدعو للتمعن في فنونها ومحسناتها التي تطرب النفوس وتؤثر في المتلقي بمعانيها.

1. محمود عمارة: الخطابة، ص237.

2. حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، ص177.

3. أرسطوطاليس: الخطابة، ص252.

4. 1.2. الغاية من استراتيجيات الحجاج:

سعى ابن الجوزي من خلال استراتيجية الحجاج، وما تتضمنه من استراتيجيات ثانوية، إلى تعريف المتلقي بالله تعالى من خلال التطرق إلى أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وقد أظهر للمتلقي من خلالها عظمة صفات الله تعالى ووحدانيته والذي يقابله ضعف حال العباد وقلة حيلتهم، كما سعى إلى إثبات عظيم قدرة الله تعالى في خلق البشر، وفي إيجاد كل المخلوقات والكون بمكوناته، وهو يستعين في ذلك كله ببعض الخطط والاستراتيجيات المذكورة، وقد نبّه " [إتيان ديكرو Etienne Decroux 1991.1898] على أن دلالة الجملة لا تساوي المعنى الحرفي بل هو يرفض مفهوم المعنى الحرفي، ولبيان إمكان هذه المراوحة بين دلالة الجملة ومعنى القول يفترض أن القول تعليمات وتوجيهات تقدمها المكونات اللغوية للمؤول حتى يتمكن من الوصول إلى المعلومات المقامية الكفيلة ببيان كيفية إعادة بناء المعنى الذي قصد إليه القائل¹، وفي القول إشارة إلى المعنى المؤول والذي يتمثل في عدد القضايا التي حاول ابن الجوزي إثباتها من خلال المعاني الحرفية أو الموضوعات التي عرضها.

كما سعى إلى التأثير في المتلقي بمخاطبة العقل والعاطفة، وذلك بالتطرق إلى القدرات الربانية التي يمتلكها الله تعالى والتي يشاهدها البشر من حولهم ويدركونها بعقولهم، كما وتتجلى في ظواهر الكون والطبيعة والمخلوقات، زيادة على هذا فإنه قام بمخاطبة العاطفة عن طريق التطرق إلى عطف الله تعالى بعباده وإغراقهم بالنعم وغفرانه لذنوبهم عز وجل، كما تحدث عن منن الله تعالى للمؤمن ولغير المؤمن ليزداد الأول اعتباراً وعبادة ويكف الثاني عن التعدي لحدود الله والكفر به، وكلها من أجل التأثير في متلقي الخطبة مهما تعددت أشكاله . القارئ أو السامع . وتغيير معتقداته إن كانت تنافي الصواب، وبالتالي التأثير في سلوكه، ففي الخطبة: " يكتفي السامع

¹. حمادي صمود: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، نقلاً عنه، ص358.

باستقبال الكلام والانفعال به، وقد يظل هذا الانفعال ضمناً، أو يصبح متجسداً، ففي مجالس ابن الجوزي كان السامعون يجهشون بالبكاء¹.

فأساس الخطبة وغايتها إقناع المتلقين واستمالتهم لأجل التصديق بالقضية المطروحة، وهي في الأساس: " فن مخاطبة الجماهير بطريقة إقناعية، تشتمل على الإقناع والاستمالة"²، وعلى الخطيب أن يتحمل هذه المسؤولية على أوفى ما يكون.

¹. سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتجليات، ص152.

². محمود محمد محمد عمارة: الخطابة بين النظرية والتطبيق، ص6.

قمنا في هذا الفصل بتسليط الضوء على مجموع الاستراتيجيات الخطابية التي ضمّنها ابن الجوزي خطبه الثلاثين، والتي سعى من خلالها إلى إقناع المتلقي بصدق القضايا التي جاء بها، وأولى الاستراتيجيات التي وظفها ابن الجوزي في خطبه هي تلك التي تظهر على مستوى ألفاظ تلك الخطب، وقد تمثلت في تغييب ابن الجوزي لحروف الهجاء العربية في الخطب، كل حرف على حدى، أي أنه يغيب في كل خطبة حرفاً من تلك الحروف، إلى أن يبلغ الثلاثين خطبة، وقد كان هدفه من وراء توظيف هذه الاستراتيجية، إقناع المتلقي بقدرة اللغة العربية على تأدية وظيفتها التواصلية والتأثيرية رغم تغييب بعض حروفها في الكلام.

كما يسعى من ورائها إلى إظهار الثراء الذي تزخر به اللغة العربية لغناها بالزخم الكبير من الألفاظ، والذي يؤهل المتكلم الحذق من اختيار لفظ من مجموعة الألفاظ ليحقق له رسالته التواصلية، كما أن من أهم الأهداف التي سعى لتحقيقها ابن الجوزي هي إظهار قدرته وبراعته الكبيرة في التصرف في ألفاظ اللغة العربية على الوجه الذي يرضاه لها.

كما قمنا في هذا الفصل بتسليط الضوء على استراتيجية أخرى اعتمد عليها ابن الجوزي الاعتماد الكبير، وقد تمثلت في استراتيجية الحجاج، وهي استراتيجية رئيسية يقوم عليها مشروع الإقناع الذي اعتمده ابن الجوزي، وتندرج تحتها عديد الاستراتيجيات أو التقنيات الإقناعية الثانوية، بحيث فصلنا في موضوعات الخطب، إذ اعتبر الموضوع أهم الأوعية التي استوعب مواد حجاجية سعت لتحقيق غاية الإقناع، كما فصلنا في عناصر وتقنيات عديدة، كالاستعارة، والتصوير، والأمثلة، والتكرير، وبيّننا كيف ساهمت بعض العبارات المخصوصة، وكذا بعض الآيات القرآنية بالنظر إلى موقعها في الخطبة، في إثبات بعض القضايا الحجاجية، وكذا الدعوة إلى سلك طريق محدد وانتهاج نهج معلوم، وقد قمنا بالاستعانة في هذا كله بنماذج وأمثلة تشرح الظاهرة وتبين وجه الحجاج فيها.

كما تطرقنا إلى بعض العلاقات الحجاجية التي ظهرت على مستوى الخطب، منها العلاقة السببية وعلاقة الاقتضاء، ولقد ساهمتا باجتماعهما على إظهار الطريقة التي بنى بها ابن الجوزي حجاجه، إذ تقوم العلاقة السببية على جعل موقف معين سبباً لموقف آخر، بينما تقوم علاقة الاقتضاء على جعل الحجة تقتضي النتيجة اقتضاءً، وفي العلاقتين حضور كبير للمادة الحجاجية الإقناعية، بحيث يقوم ابن الجوزي بإظهار النتيجة التي تتحقق للمتلقي إذا ما هو اتخذ أسباب خاصة، وهو يقوم من خلال هذه الخطوة بتعريف المتلقي بالأجر والثواب الذي يناله العباد إذا ما هم أحسنوا لله تعالى وأدوا واجب العبادة، وفي العلاقتين تحفيز للمتلقي وتأثير فيه للمبادرة للعمل الصالح وانتهاج النهج الصحيح.

كما قمنا بالتطرق لعنصر السلام الحجاجية التي برزت على مستوى الخطب، والتي تعكس تعدداً للحجة في مقابل النتيجة الواحدة، وفيها يقوم ابن الجوزي بعرض مجموعة كبيرة من الأسباب والحجج التي تؤدي إلى نتيجة واحدة، وقد تمحورت معظم الأسباب حول إظهار ملكوت الله تعالى في الأرض والسماء وفي المخلوقات وفي مظاهر الطبيعة، وفي خلق الإنسان وإيجاده من العدم، وبالتالي إظهار وجه الإعجاز فيها.

كما ودارت معظم النتائج حول المآل الذي يؤول إليه العبد من وراء تمعنه في هذه المخلوقات والموجودات والآثار، والتي تمثلت غالبيتها في إظهار الحمد والشكر لله تعالى والتصريح به من قبل ابن الجوزي، ودعوة المتلقي بصريح العبارة لشكر الله والتمتع في نعمه ومعرفة فضله عز وجل، كما يندرج تحت هذا الحمد معرفة الله تعالى والافتناع بفضله الكبير على عباده، وكذا الافتناع بجدارته عز وجل في الألوهية والربوبية وكذا وحدانيته وعظمته التي لا تضاهيها عظمة.

كما قمنا في هذا الفصل، بإظهار التأثير الذي أحدثته عناصر السياق في استراتيجيات الخطاب الإقناعي، بحيث قام ابن الجوزي بالعناية بالمتلقي، والذي تنوع بين متلق خاص ومتلق عام، فقد وجه استراتيجيته بتغيير الحروف للمتلقي الخاص والذي يعتبر صديقاً له وزمياً في نفس المجال الديني، بينما وجه استراتيجيته الحجاج

للمتلقي العام، والذي تتعدد طبقاته الاجتماعية وهيئاته ومستوياته، وهو يمتد إلى المتلقي الحاضر الذي يقرأ خطب ابن الجوزي ويهتم بها، كما قمنا بإظهار بعض العناصر المشتركة التي تربط طرفا الخطاب، منها المعرفة المشتركة، والعلاقة التي تربط المرسل بالمرسل إليه، وذلك لتأثيرها الكبير في إنتاج الخطاب من حيث جودتها من عدمها، ومن حيث قوة أو ضعف ألفاظها وتراكيبها، ومن حيث صلابة أو لين معانيها، وقمنا في آخر الأمر بإظهار الغاية التي سعى إليها ابن الجوزي من وراء كل استراتيجية، لا بمفهومها العام، إنما بالنظر إلى المتلقي الذي وُجّهت إليه.

خاتمة:

لعلّ أول نتيجة يمكن أن تتبدى لنا بوضوح بعد التدرج في هذا البحث، ثراء الخطب التي أودعها ابن الجوزي كتابه " عجيب الخطب " بعدد الفنون البلاغية التي أضفت الجمالية والنفعية على الخطب، وكذا على عديد الاستراتيجيات الخطابية التي اعتمد عليها لتحقيق التأثير في المتلقي، وذلك من خلال إقناعه بالقضية المتبناة ودحض رأي الخصم في نقيضها.

ولقد ساق ابن الجوزي مجموعة خطبه في فكرة عرض خاصة أدرجتها تحت إطار المعارضات، والتي تعتبر شكلاً من أشكال النشاطات الأدبية التي عرفت في الشعر كما عرفت في النثر، وهي تقوم على فكرة مفادها تخريج نموذج أدبي على منوال نموذج سابق ينافسه في جودة ألفاظه وتراكيبه ومعانيه، وقد صرح ابن الجوزي بهذه الفكرة في تقديمه للكتاب، وذلك في تفاوضه رفقة زميله على حروف العربية الثمانية والعشرين، والتي ادّعى رفيق ابن الجوزي أن الكلام لا يصحّ إلا باجتماع مجملها، وقد كان هذا التفاوض مدعى لابن الجوزي لنظم مجموعته خطبه الذي حذف من كل خطبة منها حرفاً من حروف الهجاء بغرض دحض رأي خصمه، والتي قام بإيداعها كتابه الذي أسماه ب " عجيب الخطب " .

وقد أفاد البحث في هذه الخطب في التعرف على مجموعة لا بأس بها من الفنون البلاغية التي بنت لعنصر الجمالية على مستوى الخطب، والتي تفرعت إلى صور بيانية ومحسنات بديعية، إذ لا يغيب عنا ما أحدثته هذه الأخيرة بعناصرها . من طباق ومقابلة وسجع وجناس . من نغم موسيقي أخذ ظهر على مستوى ألفاظ وتراكيب الخطب، ما أكسب الخطبة ميزة شعرية جميلة تساعد في التأثير في المتلقي بجذبه للخطبة والتطلع للمزيد فيها، وكذا إبعاد الملل والخمول الذي يعترض النفس نتيجة عناصر لا مستحسنة فيها، بحيث تعتبر المحسنات البديعية من الأدوات التي استعان بها الخطيب ابن الجوزي لإظهار أفكاره والتأثير في متلقيه، فهي من الزينة اللفظية

التي تلبس الخطبة ثوباً جذاباً يتأثر به المتلقي بنفس درجة تأثير المعاني أو المضامين.

كما لا يخفى علينا ما أحدثته الصور البيانية بمكوناتها . من تشبيه واستعارة وكناية . من تنويع للصور وعرض جديد للمعاني وربط للأشياء في صور مختلفة وجميلة، كما لا ننسى جمالها وتميزها في نقل المعاني المعنوية إلى الواقع الحسي في أقرب صورة وأحسن مأخذ، فهي تقوم بتجسيد المعاني وتشخيصها في صورة محسوسة ما تزيدها وضوحاً وتقريباً من الذهن، وذلك أن المتلقي يتأثر بالماديات أكثر وأسرع من تأثره بالأمر المعنوية، إضافة إلى إسهامها في تحديد معاني الخطب وتوضيحها والكشف الجميل عن أفكار ابن الجوزي.

واهتم البحث بالكشف عن عديد الموضوعات الوجدانية والإيمانية التي ظهرت على مستوى معاني الخطب، وأهم هذه الموضوعات: ذكر صفات الله تعالى، خلق الكون وتسيير الظواهر الطبيعية، خلق الله تعالى للبشر، وجود الله تعالى وقدمه ووحدانيته وأبديته، وقد قام ابن الجوزي بعرضها للمتلقي في أبهى حلة من خلال تزيينها بشتى أنواع الزخرف اللفظي، فالخطبة ظاهر وباطن، فظاهرها اللباس الذي يكسيها به الأديب والذي يندرج تحت إطار عام سمي بالصناعة اللفظية، أما باطنها فيحيا بالمعاني والصور المعنوية التي تعتبر المسؤولة عن إخراجها للعلن، وفي كلا العنصرين أمور وجب توفرها كي تنال الخطبة إعجاب المتلقي وتلقى التأثير الحسن لديه.

وساهم البحث في مجموع الخطب بالكشف عن أجزاء القول التي تكونت منها الخطبة، من افتتاح وعرض واختتام، إذ بينا حدود كل من العناصر الثلاثة وتطرقنا إلى المعاني التي تضمنتها، كما أظهرنا أهمية ودور كل منها في بناء الخطبة من ناحيتها الجمالية والوظيفية، وأهم ميزة يمكن ذكرها في هذا المقام ما امتاز به عنصر الاختتام في الخطب، والذي يعتبر الكشف عنها سابقة في دراستنا لابن الجوزي، إذ حصل أن اختتم مجموعة من خطبه ببعض العبارات كما قام بتكرار إيرادها في معظم الخطب، وقد قمنا بتسميتها باللائمة للزومها لمعظم خواتم الخطب، ومنها عبارات: " وشرّف "، و

" سلم "، و " كرم "، و " عظم "، ويختلف ذكرها وترتيب ذكرها من خطبة إلى أخرى مراعاة من ابن الجوزي للحروف المغيبة في الخطب، وقد أضفت هذه اللوازم جمالية لا مثل لها وتميزاً وتفرداً للخطبة منقطع النظير.

وقد أفادنا البحث في الكشف عن البعد الحجاجي لمجموعة الخطب الثلاثين، والذي اعتمده ابن الجوزي لتحقيق غرضه الإقناعي، ونحن ننطلق في هذه المحاولة من مبدأ تداولي أجراه ديكر و يتمثل في اعتبار البعد الحجاجي سابقاً للبعد الإخباري في القول، في كل قول، فكل قول حسب هذه الرؤية هو حجاجي بالقوة، قبل أن يؤدي دوره الإخباري، فالسمة الحجاجية منغرس في اللغة، وهو ما يذكرنا بالتفاوض الذي أجراه ابن الجوزي مع زميله الذي يعتبر خصماً من الناحية المقامية، إذ يحتج ابن الجوزي بالخطب . بمعانيها وألفاظها وتراكيبها . قبل الإخبار بما جاء به، وبالتالي فإن نية المحاجة سابقة عن نية الإخبار لديه، وهو يقوم في كل ذلك بتنسيق مادته والمزج بين أغراضه وتنظيم حججه في كل متكامل يخلو من النقص.

بحيث ترجم ابن الجوزي لهذا البعد الحجاجي بمجموعة استراتيجيات وتقنيات خطابية تتراوح بين اللغوية والبلاغية والحجاجية، كما وتنقسم إلى استراتيجيات جاهزة وصناعية، فمن اللغوية تلك التي تمثلت في تغييب ابن الجوزي لحروف الهجاء العربية في الخطب، كل حرف على حدى، إلى أن يبلغ الثلاثين خطبة، وقد كان هدفه من وراء توظيف هذه الاستراتيجية، إقناع المتلقي بقدرة اللغة العربية على تأدية وظيفتها التواصلية والتأثيرية رغم تغييب بعض حروفها في الكلام، كما يسعى من ورائها إلى إظهار الثراء الذي تزخر به اللغة العربية لغناها بالزخم الكبير من الألفاظ، والذي يؤهل المتكلم الحذق من اختيار لفظ من مجموعة الألفاظ ليحقق له توصيل رسالته التواصلية، كما أن من أهم الأهداف التي سعى لتحقيقها ابن الجوزي هي إظهار قدرته وبراعته الكبيرة في التصرف في ألفاظ اللغة العربية على الوجه الذي يرضاه لها.

ومن الاستراتيجيات البلاغية تلك التي وظف فيها ابن الجوزي الفنون البلاغية كوسائل حجاجية تقوم بإثارة واستمالة الجمهور والمتلقين، كما أعانت في مواضع عدة

على تثبيت المعاني في النفوس وتقوية صداها في العاطفة، ومن المواد البلاغية التي حققت ذلك الصور البلاغية من تشبيه واستعارة وكناية، وكذا محسنات بدعية كالتطابق والمقابلة والسجع والجناس، إذ أعانت هذه المواد على تحقيق الغرض الإقناعي إضافة إلى دورها البلاغي والجمالي، فالخطابة حين تبنيتها للموضوعات الوجدانية يكون وضع الخطيب فيها أشبه ما يكون بوضع الشاعر، فالاستمالة فيها مقدمة على الحجة في الغالب، وفيها يسعى الخطيب لمشاركة الآخرين ما يجده أو يتظاهر به، أو إشعارهم بمشاركته إياهم وتعاطفه معهم فيما ألم بهم.

ومن الاستراتيجيات الحجاجية التي وظفها ابن الجوزي لتحقيق غرض الإقناع تلك التي وظف فيها موضوعات الخطب كوسائل حجاجية، إذ اعتبر الموضوع أهم الأوعية التي استوعبت مواد حجاجية سعت لتحقيق غاية الإقناع، وضمنها استراتيجية التكرير التي قامت بتكرار بعض الموضوعات المذكورة مسبقاً، إضافة إلى توظيف بعض الآيات القرآنية التي قامت بإثبات المعاني المعروضة في مواقع مختلفة من الخطبة، إضافة إلى توظيف بعض العلاقات الحجاجية منها العلاقة السببية وعلاقة الاقتضاء، ولقد ساهمتا باجتماعهما في إظهار الطريقة التي بنى بها ابن الجوزي حجاجه، إذ تقوم العلاقة السببية على جعل موقف معين سبباً لموقف آخر، بينما تقوم علاقة الاقتضاء على جعل الحجة تقتضي النتيجة اقتضاءً، وفي العلاقتين حضور كبير للمادة الحجاجية بحيث يقوم ابن الجوزي بإظهار النتيجة التي تتحقق للمتلقي إذا ما هو اتخذ أسباب خاصة، وهو يقوم من خلال هذه الخطوة بتعريف المتلقي بالأجر والثواب الذي يناله العباد إذا ما هم أحسنوا لله تعالى وأدوا واجب العباد، وفي العلاقتين تحفيز للمتلقي وتأثير فيه بالمبادرة للعمل الصالح وانتهاج النهج الصحيح.

وآخر الاستراتيجيات الحجاجية التي وظفها ابن الجوزي بغرض الإقناع، استراتيجية السلالمة الحجاجية، والتي تعكس تعدداً للحجة في مقابل النتيجة الواحدة، وفيها يقوم ابن الجوزي بعرض مجموعة كبيرة من الأسباب والحجج التي تؤدي إلى نتيجة واحدة، وقد تمحورت معظم الأسباب حول إظهار ملكوت الله تعالى في الأرض والسماء وفي المخلوقات وفي مظاهر الطبيعة، وفي خلق الإنسان وإيجاده من العدم، وبالتالي إظهار

وجه الإعجاز فيها، كما ودارت معظم النتائج حول النتيجة التي يصل إليها العبد من وراء تمعنه في هذه المخلوقات والموجودات والآثار، والتي تمثلت غالبيتها في إظهار الحمد والشكر لله تعالى والتصريح به من قبل ابن الجوزي، ودعوة المتلقي بصريح العبارة لشكر الله والتمتع في نعمه ومعرفة فضله عز وجل، كما يندرج تحت هذا الحمد معرفة الله تعالى والافتناع بفضله الكبير على عباده، وكذا الاقتناع بجدارته عز وجل في الألوهية والربوبية وكذا وحدانيته وعظمته التي لا تضاهيها عظمة.

كما وأفادنا البحث في التعرف على التأثير الذي يمكن لعناصر السياق أن تحدثه في العمل الأدبي وفي استراتيجياته الخطابية الإقناعية، بحيث قام ابن الجوزي بالعبارة بالمتلقي الذي تتوع بين متلق خاص ومتلق عام، فقد وجه استراتيجية تغييب الحروف للمتلقي الخاص والذي يعتبر صديقاً وزميلاً له، بينما وجه مختلف استراتيجيات الحجاج الأخرى للمتلقي العام، والذي تتعدد طبقاته الاجتماعية وهيئاته ومستوياته، وهو يمتد إلى المتلقي الحاضر الذي يقرأ خطب ابن الجوزي ويهتم بها، كما قمنا بإظهار بعض العناصر المشتركة التي تربط طرفا الخطاب، منها المعرفة المشتركة، والعلاقة التي تربط المرسل بالمرسل إليه، وذلك لتأثيرها التأثير الكبير في إنتاج الخطاب من حيث جودتها من عدمها، ومن حيث قوة أو ضعف ألفاظها وتراكيبها، ومن حيث صلابة أو لين معانيها، وقمنا في آخر الأمر بإظهار الغاية التي سعى إليها ابن الجوزي من وراء كل استراتيجية، لا بمفهومها العام، إنما بالنظر إلى المتلقي الذي وجهت إليه.

وهكذا أدرك العمل نهايته باعتباره خطاباً توصلياً تجسّد عن طريق جنس الخطبة، فهو محاولة لربط مساعي النص بالقارئ الذي من شأنه الإعلاء من هذا الخطاب وتحقيق أثره، عن طريق تجسيد الغرض الذي جاء من أجله، فالمتلقي هو الذي يعترف بحقيقة المبادئ التي أتى بها الخطاب وهو المسؤول عن تحويل النص المقروء من كلمات كتبت في سطور، إلى حقيقة تعاش ولحظات تحي، كما أنه المسؤول عن تفسير النص وتحديد معناه عن طريق فهم مقاصده والعمل بها، وهذا كي تنجح الخطبة ويرى للخطاب رواجاً.

ماحق

1. وصف المدونة:

1.1. الوصف الخارجي للمدونة:

نقوم في هذا البحث بإلقاء الضوء على كتاب < عجيب الخطب > لابن الجوزي، وهو: "الإمام الحافظ، المحدث، الفقيه الواعظ، المؤرخ، المفسر اللغوي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن، علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمّاد بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، القرشي التيمي البكري البغدادي، ولد في بغداد في سنة 505هـ وقيل سنة 509هـ، والأرجح أنه ولد بعد السنة العاشرة من بداية القرن السادس الهجري في عهد الخلافة العباسية أيام ضعفها وتفككها، ويقول عنه الحافظ الذهبي: < ما علمت أن أحداً من العلماء صنّف ما صنّف هذا الرجل >، ويقول ابن كثير في البداية والنهاية: < مجموع المصنّفات الكبار والصغار له نحو ثلاثمائة مصنّف، وكتب بيده نحواً من مائتي مجلّد >¹

وقد جمع وطبع كتابه < عجيب الخطب > مع ثلاثة كتب أخرى في كتاب مجمل كان عنوانه < مجموعة رسائل ابن الجوزي في الخطب والمواعظ والحكايات والفوائد العامة >، وهو عنوان جامع لما يتضمنه كل كتاب على حده، وقد تضمن كتابنا بالتحديد مجموعة خطب دينية وعظية ألقى بها ابن الجوزي على مسامع متلقيه لغرض خاص وقد دونت بعدها في كتاب أسماه < عجيب الخطب >.

وإذا ما جئنا إلى الكتاب العام وجدناه يتكون من 270 صفحة، بما فيها مصادر ومراجع الكتاب، وهو كتاب متوسط الحجم، كما أن صفحة الغلاف من نوع المجلدات العربية المزينة جوانبها بزخارف ذات طابع ديني، صفحته مستطيلة الشكل، خلفيتها باللون الأخضر القاتم ومزينة أطرافها وزخارفها باللون البني، في أعلى الصفحة على اليمين مكتوب سلسلة إصدارات الحكمة بريطانيا باللون الذهبي، أما على اليسار فنجد دائرة مرسوم فيها كتاب مفتوح ومكتوب عليها مجلة الحكمة، أما أعلى الصفحة وفي الوسط فزينت بنجمة ثمانية الرؤوس ومكتوب

¹. ينظر: ابن الجوزي: عجائب علوم القرآن، تح: عبد الفتاح عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د).

(ت)، ص 20. 26.

داخلها رقم 5 أي رقم المجلد، أما العنوان فهو مدون تقريبا في وسط الصفحة، داخل الزخرفة التي تحدثنا عنها، > مجموعة رسائل ابن الجزي في الخطب والمواعظ والحكايات والفوائد العامة <، وهو يضم داخله أربعة كتب، مدونة أسماؤها تحت عنوان الكتاب الرئيسي بقليل، بحيث نجد أربع مربعات باللون البني وإطارها باللون الذهبي، كل مربع مكتوب فيه رقم الكتاب تحت صيغة (الكتاب الأول، الكتاب الثاني، ...)، وتحت كل مربع مكتوبة عناوينها، فعنوان الكتاب الأول: اليواقيت، عنوان ثاني كتاب: عجيب الخطب، وهو الذي سنقوم بالبحث فيه ودراسته، ثالث كتاب عنوانه: رؤوس القوارير، أما رابع كتاب فمعنون ب: ملتقط الحكايات، والذي بحثت فيه في رسالة الماجستير الخاصة بي، وتحت عناوين هذه الكتب نجد: تأليف: عودة إلى السطر: أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، المتوفى سنة: 597 هجرية، وتحتها: حقه وعلق عليه: علي اليمين: الأستاذ: علي ناجي، ويقابلها على اليسار الأستاذ: وليد بن أحمد الحسين ومن الظاهر أن هذا الأخير له مساعد، لأنه قد ورد اسم آخر تحت اسمه وهو مكتوب بالخط المصغر وذكر فيه اسم: أبو عبد الله الزبيري.

أما ثاني صفحة من الكتاب فهي نسخة عن الصفحة الأولى للكتاب فقط هي من ورق المتن أي ورق الكتابة، فقط كإضافة، تحتوي على ذكر لعدد صفحات الكتب الأربعة بشكل (من صفحة كذا إلى صفحة كذا)، وقد وردت هذه الصفحات داخل مستطيلات جاءت تحت العناوين، ثم نجد في الصفحة التي تليها، وبالتحديد أعلاها في الوسط البسملة وتحتها حقوق الطبع محفوظة، وتحتها الطبعة الأولى 1421 هـ - 2000 م

أما إذا جئنا إلى الكتاب الذي سنقوم بالبحث فيه، فإننا نجد الكتاب الذي قبله ينتهي ترقيمه في الصفحة 90، لتبدأ أولى صفحات كتابنا، والتي تتمثل في الواجهة، وهي صفحة غير مرقمة، مزينة بإطار أسود، بحيث نجد في أعلى الصفحة على اليمين، مكتوب من روائع الوعظ الإسلامي، أما في وسط الصفحة فمكتوب الكتاب الثاني في الأعلى وتحت عنوان الكتاب بالخط الكوفي الثخين > عجيب الخطب <، وذكر في آخر الصفحة مؤلف الكتاب وتاريخ وفاته والمحققون الثلاثة، كما نجد في الصفحة التي تليها، مقدمة الكتاب، وكذا وصف لمخطوطة الكتاب التي قام الطابع بعرضها لنا كأنموذج مكتوب بخط يد > جد أبي أمير الخطاطين السيد عبد الوهاب بن السيد عبد الرزاق الشقاقي العلوي <، ويبدأ بعد ذلك مباشرة كتاب عجيب الخطب، والذي ينتهي في الصفحة 134.

1.2. الوصف الداخلي للمدونة:

يعتبر كتاب عجيب الخطب للعلامة أبو الفرج ابن الجوزي، من روائع الوعظ الإسلامي بأسلوبه المتميز المسجوع، فقد أبدع في تركيبه، وطاف على جميع حروف الهجاء، إضافة إلى هذا فإن الخطب تحمل وبحقة معاني الإيمان، وتحت على العمل الصالح، تأمر بالمعروف وتتهى عن المنكر، كما تذكر العبد بيوم يلقي ربه، إذن هو كتاب ديني، يحوي ثلاثين خطبة دينية، غيب المؤلف في كل خطبة من الكتاب حرفاً من حروف الهجاء، يقول: "فإني تفاوضت أنا وبعض الأصدقاء في حروف الهجاء، فادعى أنه لا يصح كلام إلا بمجموعها، ولا يستقيم لفظ تام إلا بوجود جملتها، وحدثني بخطبة معه منظومة محذوف منها حرف الألف، فانتهضت القوة إلى الانتصار بإنشاء خطب حذف من كل خطبة منها حرفاً من حروف الهجاء، وختمتها بخطبة ليس فيها نقطة، فصارت ثلاثين خطبة، وقد سمتها بكتاب < عجيب الخطب >، وأنا أسأل الله تعالى أن يعينني على القيام بما علي وجب، وأن يعيذني وجميع المسلمين في الآخرة من الطرد والغضب، وأن يجعلنا في دار كرامته من أهل المنازل والرتب، فهو أكرم من عم برحمته عبداً أحبه وطلب²، وعن سبب تأليف الكتاب فإن ابن الجوزي قد تفاوض هو وبعض أصدقائه في حروف الهجاء فادعى أحدهم أنه لا يصح كلام إلا بمجموعها، ولا يستقيم لفظ تام إلا بوجود جملتها، وحدث أحدهم ابن الجوزي بخطبة معه محذوف منها حرف الألف، فانتهضت القوة في قلب ابن الجوزي إلى الانتصار لإنشاء خطب حذف من كل خطبة حرفاً من حروف الهجاء، وختمتها (الخطب) بخطبة ليس فيها نقطة، فصارت ثلاثين خطبة.

ويقال إن هذا الكتاب من جيد ما خلف ابن الجوزي في فن الوعظ الإسلامي، وإذا كان السجع الوعظي قد غلب على خطب الكتاب الثلاثين فهو سجع موائم لزمه، ملائم لموضوعه، نابع عن قدرة بيانية فذة.

²- ابن الجوزي: مجموعة رسائل ابن الجوزي في الخطب والمواعظ والحكايات والفوائد العامة (عجيب الخطب)، تحقيق وتعليق: هلال ناجي ووليد بن أحمد الحسين، سلسلة إصدارات الحكمة، بريطانيا، ص99.

2. بعض خطب ابن الجوزي:

2. 1. الخطبة الأولى بغير ألف:

حمدت ربي على نعمته، حمد معترف بتقصيره في خدمته، وجل من طرده وصدده وسطوته، مؤمن بتفرده في ربوبيته، مستدل بصنعه على معرفته، ربُّ حكم فعدل في حكومته، وقسم فعم بكرمه وموهبته، وتفضل فشمّل مستحق لطفه برحمته، وتقرّد بقدمه وبعزه وعظّمته، وتوحد دون خلقه بتقرّد قدرته وسلطنته، صوّر ودبّر وقدرّ فكل شيء بمشيئته، ورزق ووهب وفطر وخلق وكل شيء من صنعه، ليس له شريك في مملكته، وليس معه مدبر في قضيته، يبصر ويسمع ويضر وينفع، ويدبر خلقه بحكمته، يقرب ويبعد ويشقي ويسعد، ويطلع على سر عبده وطويته، يعدم ويوجد، ويمتع ويرفد، ويريد كل فعل في بريته، وينشئ ويبدع، ويتكلم فيسمع، وينزل وحيه على من يختص من خليفته، ثبت بدليل حدث خلقه قدم ربوبيته، وتقدس في وصف نفسه عن تشبيهه وكيفيته، هذه عقيدة كل مسلم موحد في عقيدته، وضل في بدعته، شهدت لربي بتوحيده وبقدرته، وتوكلت عليه عند نزول بليّته، وصليت على رسوله خير من خصّ بنبوته، وعلى صحبه وعترتّه، وعلى صدّيقه ومؤنسه في حضرته، ومسعده بنصره عند طرده وهجرته، وعلى وزيره وضجيعه في تربته، ومقيم عمد دينه بحسن سيرته، ومسيل بئر رؤمه في محبته، وعلى صهره على كريمته، وحيب نفسه وكريم عصبته، وعلى عمه مجيب دعوته، ومن يتوسل صحبه عند قحطهم ببركة شيبته، وسلّم وشرف وكرم.

2. 2. الخطبة الخامسة بغير جيم:

الحمد لله رافع السماء بالقدرة القاهرة، ومزينها بالكواكب الثابتة والسائرة، ومسيرها بتقدير السير إلى الأفلاك الدائرة، وخالق الشمس والقمر بالوحدانية الباهرة، مسيغ نعمه على خلقه باطنة وظاهرة، ومظهر دلائل وحدانيته بالآيات المتواترة، القديم بلا أزمان حاضرة، الباقي ولا أكوان عامرة، القادر بقدرته ذلت لسطوتها نفوس الأكاسرة، المرید عمل كل نفس مؤمنة كانت أو كافرة، القاضي بما يشاء وكل كائن إلى مشيئته صائرة، العالم لا ينظر واستدلال ومناظرة، الحي لا بأعراض وطبائع ومكائنة، البصير بحركة الحيتان في قرار البحار الزاخرة، السميع لاختلاف النعم المتناسبة والمتغايرة، المتكلم ولا خلاف عند المسلمين في قدم كلماته ولا مناكه، المستوي على عرشه لا بمعنى الاستيلاء والمهاجرة، ينزل إلى سماء الدنيا فيغفر للقلوب الذاكرة

والعيون الساهرة، يرسل الرياح العاصفة الثائرة، بشرى بين يدي رحمته إلى الأرض العامرة، حتى إذا أرخت السحب عزاليها قاطره، أضحكت ببكائها الأرض الميتة الدائرة، وأضحت لمطوي أسرار السحاب ناشرة، وعادت كمائم النبات لودائع النور زاهره، وحركت متون الغصون بالثمار فغادرتها بعد الذبول خضرة ناضرة، ومالت إليها ورق الحمام المستكنة والطائرة، وحنّت إليها القلوب فعطفت نحوها الأبصار ناظرة، كل ذلك دليل على إحياء العظام الناخرة، وآية على إعادة الأنام من ار الفناء إلى أرض الساهرة، دليل على ذلك قوله تعالى: [إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ]، أحمدته على نعمه السابغة الغامرة، وأشهد أن لا إله إلا الله أنال بها الدنيا والآخرة والرتب الفاخرة، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ذو الأخلاق الزكية الطاهرة، صلى الله عليه وعلى أبي بكر الصديق الذي كان صادقاً في أفعاله وأوامره، وعلى عمر بن الخطاب الذي لم يبق عدله من الظلم غابره، وعلى عثمان الذي واساه وأعانه وآثره، وعلى علي بن أبي طالب ابن عمه الذي آخاه وصاهره، وعلى عمه وصفو أبيه بن عبد المطلب الذي رزق الله عقبه الخلافة إلى الآخرة.

2. 3. الخطبة السابعة والعشرون بغير واو:

الحمد لله خالق الأنام، مصرف الأحكام، رافع الأسقام، دافع الآلام، الملك الجبار الذي لا يضام، القادر القاهر الذي لا يرام، القديم في الأزل قبل تتابع الأيام، الباقي على تعاقب الدهر بغير انعدام، الحي بحياة منزهة عن حدث الأجسام المتعالي عن الكلال المنزه عن المنام، الممجد في بقائه عن الفناء المعظم في إيراده عن الانقسام، السميع لاختلاف نغم هديل الحمام، البصير بحركة الذر تحت ادلهمام الظلام، الخبير القدير البصير العلي العلام، المتكلم بكلام قديم أعجز بفصاحته كل كلام، المزيد فمن سلم إلى إرادته نال مراتب الكرام، من حرف ما عرف من الصفات ألحق إلهه بالأصنام، ومن نجا من التكييف بالأخبار الصحيحة استقام، هذه عقيدة طريق المحققين فمن أراد السلامة فهذا الإسلام، أحمدته على ما أعني به من الإنعام حين ألهمني أن أشهد أن لا إله إلا الله المؤمن السلام، مخلصاً في الطلب لدار السلام، شاهداً أن محمداً نبيه عليه السلام، صلى الله عليه صلاة دائمة تجمع في أطرافها السادة الأئمة الكرام، أبا بكر الصديق المقدم الإمام، ثم عمر بن الخطاب ربيع الأنام، ثم علي عثمان جامع الكلام، ثم علي بن أبي طالب مجندل الأبطال بالحسام، ثم علي عمه العباس بن عبد

المطلب جد الخلفاء الكرام الأعلام، صلاة دائمة ما طلع نجم في ظلام، على ممر الساعات
وتعاقب الأيام.

2. 4. الخطبة الثلاثون بغير نقط:

الحمد لله الواحد الأحد، وكل أحد سواه مطلع الأعداد، العادل الصمد، ولا والد ولا ولد، ملك
وصور وحكم ولا مساعد ولا إسعاد، وأمهل وأهلك أهل الرد والإلحاد، وسمك السماء ومسك ولا
حامل ولا عماد، وسطح المهاد وأوسع ولا أوطار ولا وساد، وكل طامع حاد عما سمع حال
حاله لما حاد، ولا وصول إلا لواله صد لأمل الوصال حلاوة الوساد، ولا ورد إلا الساهر وأورد
طعم المورود مرار السهاد، إله وعد أهل السعادة أعلى محل وأكرم مراد، وهدى أهل الإهمال
سوء المرصاد وهول المعاد، عالم سامع مدرك مسمع لا عمل لعامل إلا ما أراد، الملحد هالك
والموحد مالك ومسلك السلامة سعادة الورد، أحمده وأوحده حمداً أعده للأهوال الحداد، وأمدح
رسوله أكرم العموم وأكرم الأحاد، سلام الله واصلما لاح لامع وادلهمّ سواد، مواصل صدور أهل
الكمال والسداد، وسلّم وكرم، وصلى على محمد المكرّم.

قائمة المصادر والمراجع

❖ المصادر:

1. القرآن الكريم.
2. ابن الجوزي: صيد الخاطر، تح: محمد عبد الرحمان عوض وأحمد إبراهيم زهوة، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 2005.
3. ابن الجوزي: عجائب علوم القرآن، تح: عبد الفتاح عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ت).
4. ابن الجوزي: عجيب الخطب، تح: هلال ناجي ووليد بن أحمد الحسين، سلسلة إصدارات الحكمة، بريطانيا.
5. ابن الجوزي: فنون الأفتان في عجائب علوم القرآن، تح: صلاح بن فتحي هلال، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، بيروت لبنان، 2001.
6. ابن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة.

❖ المراجع:

1. أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، تح: حسن السندوبي، دار المعارف، تونس، 1990.
2. أبو محمد عبد الله بن سعيد بن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، تح: داود غطاشة الشوابكة، دار الفكر، ط1، 2006.
3. أبي الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب ابن الخوخة.
4. أبي هلال العسكري: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ضبط مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت لبنان، 2008.
5. أحمد محمد الحوفى: فن الخطابة، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 2003.

7. أرسطوطاليس: الخطابة، تح: عبد الرحمان بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت لبنان، 1979.
8. الأزهر الزناد: دروس في البلاغة العربية، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1992.
9. جيرالد برنس: قاموس السرديات، تر: السيّد إمام، ميريت للنشر والمعلومات، ط1، القاهرة، 2003.
10. حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، دار كنوز المعرفة العلمية، ط1، عمان الأردن، 2014.
11. حمادي صمود: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، كلية الآداب منوبة، تونس.
12. سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم، من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن، 2008.
13. سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتجليات، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2006.
14. سعيد يقطين: الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 1997.
15. الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ط1، 1994.
16. صابر الحباشة: التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، ط1، دمشق، 2008.
17. طه عبد الرحمان: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الرباط المغرب، 1993.
18. الطيّب البكوش: التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، المطبعة العربية، ط3، تونس، 1992.
19. عبد العاطي غريب علّام: دراسات في البلاغة العربية، منشورات جامعة قازيونس بنغازي، ط1، 1997.

20. عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان، تح: سعيد محمد اللحام، دار الفكر العربي، بيروت لبنان، ط1، 1999.
21. عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت لبنان، 1988.
22. عبد القاهر الجرجاني: دلائل العجاز في علم المعاني، تح: سعد كريم الفقي، دار اليقين، ط1، 2001.
23. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بنغازي ليبيا، 2004.
24. عبد الواحد حسن الشيخ: دراسات في البلاغة عند ضياء الدين بن الأثير، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1986.
25. عقيل عيد ملازاده: الحوار قيمة حضارية، دراسة تأصيلية لمنهجية الحوار في الإسلام، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 2010.
26. محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية. الخطابة في القرن الأول نموذجاً. إفريقيا الشرق، ط2، بيروت لبنان، 2002.
27. محمد بركات حمدي أبو علي: بلاغتنا اليوم بين الجمالية والوظيفية، دار وائل للنشر، ط1، عمان الأردن، 2004.
28. محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، لبنان، 2008.
29. محمود طلحة: تداولية الخطاب السردية، دراسة تحليلية في وحي القلم للرافعي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط1، إربد، 2012.
30. محمود محمد محمد عمارة: الخطابة بين النظرية والتطبيق، مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع، المنصورة، ط1، 1997.
31. مسعود صحراوي: التداولية عند العرب، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2005.

32. مصطفى البشير قط: مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم، دار
اليازوري العلمية، الأردن، 2009.
33. نعمان بوقرة: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، جدارا
للكتاب العالمي، الأردن، 2009.

الانترنت:

1. مكلي شامة: الآليات الحجاجية في نقائض جرير والفرزدق من خلال نقيضتيهما " سم ناقع " و " إن الذي سمك السماء "، مجلة الخطاب، العدد 4، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، 2009.
2. نادية ويدير: البعد التداولي للاستعارة، مجلة الممارسات اللغوية، العدد 15، مخبر الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو الجزائر، 2012.
3. لكل سعدية: استراتيجية الحجاج في محاوره إبراهيم عليه السلام لأبيه في القرآن الكريم، مجلة الممارسات اللغوية، العدد 15، مخبر الممارسات اللغوية، جامعة مستغانم الجزائر، 2012.

فهرس الموضوعات

1.....	مقدمة
7.....	مدخل : المهاد النظري للبحث
8.....	تحديد مفاهيم البحث الرئيسية
8.....	1_ مفهوم البلاغة
11.....	2_ مفهوم الفنون البلاغية
12.....	3_ استراتيجيات الخطاب
13.....	3-1 مفهوم الاستراتيجية
14.....	3-2 مفهوم الخطاب
15.....	3_3 مفهوم الاستراتيجية في الخطاب
16.....	4_ الخطاب الإقناعي
16.....	4-1 مفهوم الإقناع
18.....	4-2 آليات الإقناع
19.....	5_ الخطبة
20.....	5-1 مفهوم الخطبة
21.....	5-2 أركان الخطبة
24.....	5-3 أنواع الخطبة
26.....	5-4 العناصر اللغوية للخطبة
28.....	5_5 خصائص الخطبة

- 29.....6-5الأسلوب في الخطبة
- 30.....7-5 التأثير والاستمالة في الخطبة
- 32.....6_ الجمالية والوظيفية في الخطاب
- 35.....7_ السياق
- 35.....1-7 مفهوم السياق
- 37.....2-7 عناصر السياق
- الفصل الأول : أجزاء القول في خطب ابن الجوزي " الإفتتاح ، العرض ، والإختتام "
- 44.....1_ افتتاح الخطب
- 48.....1_1 افتتاح كتاب عجيب الخطب
- 48.....1_1_1 فاتحة استهلال كتاب عجيب الخطب
- 50.....1-1-2 عرض استهلال كتاب عجيب الخطب
- 56.....1-1-3 خاتمة استهلال كتاب عجيب الخطب
- 57.....2-1 افتتاح الخطب
- 57.....1_2_1 اصيغ الافتتاح
- 60.....2-2-1 طبيعة الافتتاح
- 60.....1_2_2_1 حدود الافتتاح
- 64.....2-2-2-1 معاني الافتتاح
- 66.....3-2-2-1 طبيعة ألفاظ الافتتاح

- 68..... 4-2-2-1 طبيعة تراكيب الافتتاح
- 70..... 2_ عرض الخطب
- 70..... 1-2 حدود العرض
- 73..... 2_2 موضوعات الخطب
- 73..... 1-2-2 الموضوع العام : التعرف على الله
- 74..... 2_2_2 الموضوعات الثانوية
- 74..... 1-2-2-2 موضوع ذكر صفات الله تعالى
- 79..... 2_2_2_2 موضوع خلق الكون وتسيير الظواهر الطبيعية.
- 82..... 3-2-2-2 موضوع خلق البشر
- 84..... 4-2-2-2 موضوع التفصيل في وجود الله تعالى وقدمه و وحدانيته وأبديته
- 86..... 3-2 خواتم العرض
- 86..... 1-3-2 الخواتم التي على شكل آيات قرآنية
- 89..... 2_3_2 الخواتم التي على شكل علاقة بين السبب والنتيجة
- 92..... 3-3-2 الخواتم التي على شكل نصيحة
- 93..... 3_ الاختتام في الخطب
- 93..... 1-3 حدود الاختتام
- 96..... 2-3 بداية الاختتام
- 96..... 3_3 وسط الاختتام

98.....	4-3 نهاية الاختتام
103.....	هفوات الكتاب
104.....	خاتمة الفصل الأول
الفصل الثاني : فنون البلاغة في كتاب " عجب الخطب " لابن جوزي	
108.....	1_ الفنون البلاغية في الخطب
110.....	1_1_ الصور البيانية
110.....	1_1_1_ التشبيه
112.....	1-1-1_ الاستعارة
116.....	1-1-3_ الكناية
119.....	خاتمة الصور البيانية
121.....	1-2_ المحسنات البديعية
121.....	1_2_1_ الطباق
121.....	1-1-1-2-1_ مفهومه وصوره
121.....	1-1-2-1-2_ الطباق بين لفظين من نوع واحد
121.....	الطباق بين اسمين
133.....	الطباق بين فعلين
137.....	1-1-2-1-2_ الطباق بين لفظين مختلفين
137.....	الطباق بين اسم وفعل

- 138..... 3-1-1-2-1 الطباق باعتبار كون طرفيه من الحقيقة أو المجاز
- 138..... طباق باعتبار كون طرفيه من الحقيقة
- 140..... طباق باعتبار كون طرفيه من المجاز
- 140..... 4-1-1-2-1 الطباق باعتبار الإثبات أو النفي
- 140..... طباق الإيجاب
- 141..... بلاغة الطباق
- 142..... 2-2-1 المقابلة
- 142..... 1-2-2-1 مفهومها وصورها
- 143..... مقابلة معنيين بمعنيين
- 144..... مقابلة ثلاث معان بثلاثة معان
- 146..... مقابلة أربعة معان بأربعة معان
- 146..... بلاغة المقابلة
- 146..... 3-2-1 السجع
- 148..... 1-3-2-1 مفهومه
- 149..... 1_2_3_2 أقسامه
- 156..... طول وقصر فقرات السجع
- 157..... بلاغة السجع
- 160..... 4-2-1 الجناس

- 160.....1-4-2-1 مفهومه
- 160.....2-4-2-1 أقسامه
- 160.....1-2-4-2-1 الجناس التام
- 162.....2-2-4-2-1 الجناس غير التام
- 171.....أنواع أخرى من الجناس
- 171.....3-2-4-2-1 جناس الإشتقاق
- 173.....4-2-4-2-1 جناس المشابهة
- 175.....5-2-4-2-1 الجناس المزدوج
- 176.....بلاغة الجناس
- 177.....خاتمة المحسنات البديعية
- 179.....خاتمة الفصل الثاني

الفصل الثالث : استراتيجيات الخطاب الإقناعي في كتاب " عجيب الخطب " لابن

الجوزي

- 183.....1_ استراتيجيات الإقناع في الخطب
- 184.....1_1 استراتيجية تغييب الحروف
- 187.....2-1 استراتيجية الحجاج
- 187.....1_2_1 الحجاج بواسطة الموضوعات
- 189.....1-1-2-1 الحجاج من خلال موضوع ذكر أسماء الله الحسنی وصفاته

2-1-2-1	الحجاج من خلال موضوع خلق الله تعالى للكون وتسييره للظواهر الطبيعية	194.....
3-1-2-1	الحجاج من خلال موضوع خلق الله تعالى للبشر	197.....
4-1-2-1	الحجاج من خلال موضوع التفضيل في وجود الله تعالى وقدمه ووحدانيته	199.....
2-2-1	الحجاج بواسطة عبارات مخصوصة	202.....
3-2-1	الحجاج بواسطة الصور البيانية	204.....
4-2-1	الحجاج بواسطة المحسنات البديعية	211.....
5-2-1	الحجاج بواسطة تقنية التصوير	213.....
6-2-1	الحجاج بواسطة الآيات القرآنية	217.....
7-2-1	الحجاج بواسطة الأمثلة	221.....
8-2-1	الحجاج بواسطة التكرير	229.....
1-8-2-1	التكرير في الموضوعات	230.....
2-8-2-1	التكرير في الأسماء والصفات	232.....
3-8-2-1	التكرير في العبارات	235.....
2	العلاقات الحجاجية في الخطب	237.....
2-1	العلاقة السببية	237.....
2_2	علاقة الاقتضاء	242

247.....	3_ السلام الحجاجية في الخطب
257.....	4_ تأثير عناصر السياق في استراتيجيات الخطاب الإقناعي
257.....	4-1 المتلقي الخاص واستراتيجية تغييب الحروف
261.....	4-1-1 العناصر المشتركة بين طرفي الخطاب
263.....	4-1-2 الغاية من استراتيجية تغييب الحروف
264.....	4-2 المتلقي العام واستراتيجيات الحجاج
268.....	4-2-1 الغاية من استراتيجيات الحجاج
270.....	خاتمة الفصل الثالث
273.....	خاتمة
278.....	ملحق
279.....	1_ وصف المدونة
282.....	2_ بعض خطب ابن الجوزي
285.....	قائمة المصادر والمراجع
291.....	فهرس الموضوعات

ملخص

كۆن موضوع البحث " فنون البلاغة واستراتيجيات الخطاب الإقناعي في كتاب عجب الخطب لابن الجوزي " صورته من علمين، تمثل الأول في علم البلاغة، والذي يهتم بتحسين الكلام وتنميته مع تحقيق الفهم والتواصل، كما واعتمد على علم تحليل الخطاب، والذي يختص بمجالات البرهنة وآليات وتقنيات الحجاج التي يودعها المبدع نصه، منتقلا به من كونه نصا يحقق الإمتاع إلى كونه خطاباً يسعى لتحقيق غايات إقناعية، وقد عالج البحث فنا من فنون النثر العربي تمثل في الخطبة الدينية للواعظ ابن الجوزي، وذلك في كونها تمتاز بخصائص ذات قدر من الجمال من حيث فصاحة الألفاظ وبلاغة التراكيب، والتي تستعين بعلوم البلاغة في استكشاف حقيقتها وتقصي أحوالها، كما أنها تمثل رسالة تواصلية بعث بها المؤلف ابن الجوزي الذي يعتبر مرسلًا إلى مرسل إليه خاص، تمثل في زميله الذي يعتبر في سياق التواصل خصماً، وإلى مرسل إليه عام وهو جمهور المتلقين للخطب.

ABSTRACT

The subject of this research titled « rhetoric arts and persuasive speech strategies in the book of ibn al juzi titled ajib al khotab has shaped its content based on two sciences including rhetoric which is concerned with improving speech and embellishing it while achieving understanding and communication on the one hand, and brought up discourse analysis science that is concerned with proof areas along with justification techniques and mechanisms that a creative author uses in this text on the other, this would turn the said text from fun to a persuasive one moreover, the research has tackled one of the arab prose arts which is religious preach, taking that of the preacher ibn al juzi as it is characterized by such a beauty in terms of fluent utterances and eloquent structures relying on rhetoric that adds to its beauty, such preach is a communicative message that the preacher ibn al juzi considered as the sender has sent to his colleague, who is a private recipient viewed in communicative context as an apponent, as well as to audience that is viewed as public recipient.